وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر-2-"أبو القاسم سعد اللّه"

كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: التّاريخ

الحركات المناوئة للسلطة العثمانية بالمشرق العربي

خلال عهدي السلطانين سليم الأول وسليمان المشرع(1512م-1566م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر.

تخصص:الدولة العثمانية و المشرق العربي.

إعداد الطّالب:

علـي لعبيــدي

إشراف:

أ.د .ة: فلّة موساوي- القشّاعي

السنة الجامعية 2014/2013

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر-2- "أبو القاسم سعد الله"
كلية: العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: التاريخ

الحركات المناوئة للسلطة العثمانية بالمشرق العربي

خلال عهدي السلطانين سليم الأول وسليمان المشرع(1512م-1566م)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر.
تخصص: الدولة العثمانية و المشرق العربي.

إعداد الطّالب
علي لعبيدي

إشراف:
أ.د ة: فلّة موساوي- القشّاعي

لجنة المناقشة:

أ.د ة/ فلة مساوي-القشاعي ..... مقررا.
أ.د / أرزقي شويتام ..... رئيسا.
د. ة/ ليلى خيراني ..... عضوا.
د/ إبراهيم سعيود ..... عضوا.

السنة الجامعية 2014/2013

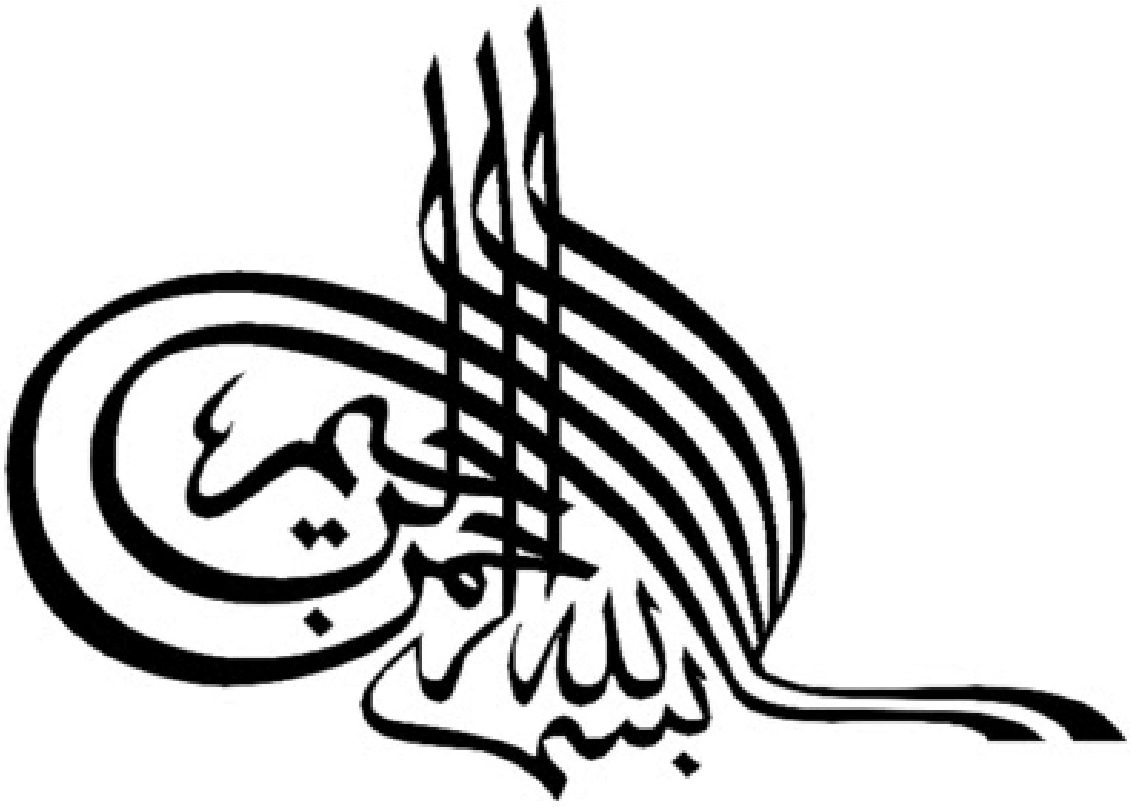
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و عرفان

إذا كان ولا بد من كلمة شكر وعرفان فإنها:

أولا: لله الذي هداني ووفقني.

ثانيا: إلى **والديّ** الكريمين.

ثالثا: إلى الذين آثرت طلب العلم على إيفائهم حقوقهم، وتجشّموا ألم الحرمان وصبروا، وكان صبرهم عونا لي، وهم: أيقونة حياتي**"وردة"**، وأبنائي:**نونة**، و**مصطفى**، و**محمد الفاتح بلحاج.**

رابعا:إلى كل من علمني، و من ساهم في تعليمي؛ بدءا بأول من تعلّمت على يديه حروف الهجاء، (معلمي الأول): "**شرقي الجموعي**"(رحمه اللّه)، ثمّ عمّي عبد الرّحمان، الذي لقّنني شيئا من القرآن و النّحو والصّرف، وأنا أرعى الغنم، فجازاه اللّه عنّي كلّ خير، وانتهاء بالأستاذ الدكتور (شيخ المؤرّخين الجزائريّين) **"أبو القاسم سعد اللّه"**، الذي تمنّيت أن أدرس على يديه، وتحقّق ذلك سنة 2012/2011م، ثمّ كان سببا في اختياري لهذا الموضوع.(رحمه اللّه).

شكر خاص

والشكر الخاص إلى الأستاذة الفاضلة، الأستاذة الدّكتورة: **"فلّة موساوي- القشّاعي"**، التي شرّفتني بإشرافها على رسالتي وتأطيري، وآثرتني بذلك على كل طلبة دفعتي. والشّكر موصول أيضا لأستاذي الفاضل، الأستاذ الدّكتور:**"شويتام أرزقي"**، الذي رافقني في بحثي، وفتح لي أبواب بيته، وأمدّني بكل أنواع المساعدة. فإلى هؤلاء جميعا شكري وعرفاني اللّا محدودين.

إهداء

أهدي هذا العمل إلى كلّ طلاّب

العلم والمعرفة.

المختـــــــصـــرات

-ص= ..... الصّفحة.

-ها= ..... هامش.

-تر=.....ترجمة.

-تع= .....تعريب.

-تح= .....تحقيق.

-تق= ..... تقديم.

-مج= .....مجلد.

-تا= .....تاريخ.

-(د.ط)= .....دون طبعة.

-(د.ت)= .....دون تاريخ.

-ح ش= ..... حديث شريف.

-(م.د.و.ع.)= .....مركز دراسات الوحدة العربية.

-(ع.د.إ.إ.)=.....عين للدراسات الإنسانية و الاجتماعية.

-(د.م.إ.)= ..... دار المدار الإسلامي

-(م.د.ك.و.ق)=..... مطبعة دار الكتاب والوثائق القومية.

-(م.ع.ن.ت.)=.....مصر العربية للنشر والتّوزيع.

-(م.ع.ف.أ)= .....المعهد العالمي للفكر الإسلامي

-(د.ك.ن.ط.ت.)= .....دار الكشّاف للنّشر و الطّباعة والتّوزيع.

-(م.ح.د.ج.ن.ت.)= .....مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية و النشر والتّوزيع.

-(م .د .خ .ع. ج .ب.)= .....مركز دراسات الخليج العربي جامعة البصرة.

-(م.ب.ت.ف.ث.إ.إ.)=.....مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثّقافة الإسلامية بإستانبول (إرسيكا).

Abréviations

-Ed=.....Edition.

-(E .N.E.D.) = ...Entreprise Nationale du livre.

-Imp.= .... Imprimerie.

-P= .....Page.

-(S.G.E.D.)= .....Société générale d'édition et de diffusion.

-T= .....Tome .

-Trad. =.....Traduit.

قال أحدهم:

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى * تخيّلته قد عاش حينا من الدّهر.**
وتحسبه قد عاش آخر عمره إلى * الحشر إن أبقى الجميل من الذكر.**
فقد عاش كل الدّهر من كان عالما كريما حليما، فاغتنم أطول العمر.
فكن عالما أخبار من عاش وانقضى * وكن ذا نوال، واغتنم أطول العمر.**

وقال سليمان خليل:

ليس بإنسان ولا عالم * من لم يع التّاريخ في صدره.**
ومن درى أخبار من قبله * أضاف أعمارا إلى عمره[1].**

وينسب إلى عقبة بن نافع[2](رضي الله عنه) قوله:

«...من لم يكن عنده شيئا من علوم الأخبار فقد نقص نصف علمه.» [3]

---

1) سليمان الخليل ،كتاب التّحفة السنّية في تاريخ القسطنطينية، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت 1887، ص1.

2) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، من قبيلة قريش. ولد قبل الهجرة بسنة ، و هو ابن خالة عمر بن العاص. ويلتقي مع الرسول (ص) في فهر. (انظر: عقبة بن نافع الفهري، فعاليات الملتقى الدولي ، الجمعية الخلدونية، بسكرة، دار الهدى ، عين مليلة، 2010،ص383.

3)العدواني، تاريخ العدواني، دار البصائر، الجزائر ، طبعة خاصة، 2007، ص 300.

المقدمة

مُقدِّمة:

لم تكن الحركات المناوئة للسّلطة العثمانية ظاهرة جديدة، أو وليدة القرن الـ(16م)؛ بل هي إحدى الظّواهر المكوّنة للتّاريخ العثماني، وهذا ما أشار إليه المؤرّخ "برنارد لويس"في كتابه: « إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية»، لما تعرّض إلى السلطان محمّد الثاني (الفاتح) حيث قال:« فكان عليه وعلى خلفائه أن يحموها (أي الدّولة العثمانية) من حركات العصيان المختلفة،التي استمرّت تندلع في مناطق مختلفة لبضع سنوات». ولهذا تُعدّ الحركات المناوئة للسلطة العثمانية إحدى حلقات الأحداث الهام المكوّنة للتاريخ العثماني. وإذا كانا لوضع السياسي غالبا ما يكون من أهم انشغالات معظم الباحثين،فإنّ الوضع الاجتماعي يُعتبر مرآة عاكسة له. وتعتبر الحركات المناوئة للسلطة أيضا – مع كل اختلافاتها في الزّمان والمكان وفي الأسباب والأهداف- إحدى مؤشرات الوضعين الاجتماعي والسيّاسي معا. فمن يطلع على الحركات المناوئة للسلطة العثمانية، يجدها كثيرة ومتنوعة، تنوع مكوّنات المجتمع العثماني. ورغم ذلك فإنه لم يتم تناولها بالدراسة – حسب اطّلاعنا- باستثناء ما ذكر عنها عرضا أو بعض التلميحات عنها هنا وهناك،في بطون بعض الكتب التي تناولت التاريخ العثماني، وهذا في تقديرنا يُعد نقصا من أحد حلقات التاريخ العثماني. ومن الشّواهد المدعّمة لتقديرنا ما ذكره "سهيل قاشا" في كتابه:"الموصل في مذكرات الرّحالة الأجانب خلال الحكم العثماني"، حيث قال في مقدّمة الكتاب: «..في دراستنا هذه أهملنا كثيرا من القضايا التي اعتبرناها من باب الإطالة والإسهاب كالكلام عن الفتن والاضطرابات الدّاخلية ،...».

كما أنّ التّاريخ العثماني يمثّل الوجه الآخر للتاريخ العربي، في إحدى أزمنته، وهذا ما يتقاطع مع نظرة الرّئيس الرّاحل "جمال عبد النّاصر"حيث قال في إحدى خطبه عام 1954م بالقاهرة: مهما يكن من الأمر بيننا وبين تركيا، ماضينا، وماضيها فصلان من كتاب واحد، في تاريخ العرب والإسلام، ونحن في ذلك أنسباء وأقرباء وأصهار، ففي كلّ دار من دور العرب على اتّساع بلادهم عربي يمتّ إلى الترك بخؤولة، وفي كل دار من دور التّرك برغم اعتزالهم في ديارهم تركي يمتّ إلى العرب بعمومة، فقد اختلطنا نسباً، وإن قامت بيننا الحدود والسّدود والأسلاك الشّائكة).[1]

❖ دوافع اختيار الموضوع:

1)أحمدإيبش، تاريخ الشّام في مطلع العهد العثماني (1520م/1544م)، من كتاب مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان، لابن طولون الصّالحي الدّمشقي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتّراث، دار الكتب الوطنية، 2009، ص 38.

إنّ لكل عمل مبرّراته، سواء كانت أسباب وعوامل أو كانت أهداف وغايات؛ وعلى أساس هذا المبدأ، تجمّعت لدينا جملة من الأسباب والدّوافع حملتنا على اختيار موضوعنا هذا، فآثرنا تناوله دون غيره بالدّراسة.

أوّلها: أنّ الموضوع اقترح عليّ من طرف أستاذنا "أبو القاسم سعد الله(رحمه الله) من ضمن البحوث التي كُلفت بها من طرفه، خلال حلقات البحث في السنة الأولى ماجستير، وكذلك من الأستاذ "بن يوسف تلمساني" لكن في بلاد البلقان، غير أنّ عدم تحكّمنا في اللّغات الأجنبية، أحجمنا عن تناوله، وملنا إلي تناوله بالمشرق العربي تحت طائلة اللّغة، فكانت تلكم هي بداية احتكاكنا بالموضوع، وبعد إنجازه تكوّنت لدينا صورة فكرية أوّلية عنه.

وثانيّا: خلال بحثنا عن المادّة العلمية للموضوع، لم نعثر علي مرجع واحد تناول الظّاهرة-موضوع البحث- بشكل مباشر وصريح، وهو ما أوحى لنا بعذرية الموضوع وأهليته للتّناول والبحث، وبالخصوص على مستوى كلية التاريخ.

ثالثا: إنّ المتصفح لكثير من الكتابات التّاريخية المشرقية، حول تواجد الدّولة العثمانية بالمشرق العربي، يجد في عمومها نظرة احتلالية من قبل بعض الكتاب، ومشجبا لتعليق أثواب التّخلف الحضاري، وكانت هذه التهمة التّاريخيّة، هي التي جذبتني أكثر إلى البحث في الموضوع والوقوف على حقيقته قدر الاستطاعة.

رابعا: إنّ كل معلوماتنا-وعلى قلّتها-حول الدّولة العثمانية لا تتعدّى المعلومات السطحية حول المجال العسكري والسيّاسي. أمّا الوضع الدّاخلي للدّولة فهو مجهول، وهذا ما يغري الباحث على طرق أحد أبوابه والولوج إلى مجاهيله الكثيرة ومنها : الحركات المناهضة للسلطة العثمانية، وبخاصّة في النّصف الأول من القرن السّادس عشر الميلادي.

خامسا: إن تاريخ الدولة العثمانية ما هو إلا أحد جوانب التاريخ العربي عموما بما فيها التاريخ الجزائري؛ وذلك لما بيننا من قواسم وروابط مشتركة؛ سياسية وعسكرية ودينية واجتماعية وحتى دموية. وعلى هذا الأساس فإنّ البحث فيه ما هو إلا بحثا في التاريخ الوطني، بوجه من وجوه البحوث التاريخية.

إشكالية البحث.

من المسلّمات التّاريخية أنّ حياة الدول كحياة الأفراد، تولد ثمّ تكبر، وتعيش وفق ظروف ما، وتحدث بها أحداث تأثّر فيها وتتأثّر بها. وانطلاقا من هذه المسلّمة، ثمّ من كون الدّولة العثمانية، التي بلغت مبلغا من القوة والتّطور خلال فترة الدّراسة (1512م-1566م)، وانطلاقا من أسباب ودواعي البحث التي ذكرناها آنفا، فإنّنا نتساءل:

-هل هناك حركات مناوئة للسلطة العثمانية خلال هذه الفترة؟ وهي ما هي عليه من القوة والمجد والعظمة ؟

-وإذا وجدت، فما هي الأسباب والعوامل الداعية إلى قيامها ؟ وهل من غايات قامت من أجل تحقيقها ؟ ثم من هم زعماؤها ؟ وكيف كان موقف الدولة (السلطة) العثمانية منها؟

هذا ما سنعمل على الإجابة عنه حسب الزمكنة المحددة في عنوان الموضوع، علما، بل يقينا منّا، أن كل حركة من الحركات المتناولة خلال هذه المرحلة تحتاج إلى بحث مستقل، لكن حسبنا أن عملنا هذا يُعدُّ خطوة أولى في هذا الميدان؛ وخطوات الباحثين تكاملية.

❖ **خطّة البحث:**

إنّ بحثنا هذا حول بعض الحركات المناوئة، وخلال الفترة المحددة (1512م-1566م) من التاريخ العثماني الطويل (1299م-1923م) جاء متوافقا مع ما تقدم، وبذلك نحسبه مساهمة جادة، قد تؤسس إلى بحوث أخرى أعمق، وأكثر شمولية.

ولقد آثرت استعراض أهم ما اطلعت عليه، من حركات مناوئة للسلطة العثمانية خلال الفترة المحددة أعلاه بالدراسة، مع الوقوف عند اختلافاتها، وأسبابها، وغاياتها، والمواقف المختلفة اتجاهها. ورغم ذلك، فإنني لا أجزم السبق في الموضوع، ولا الإحاطة الكافية به، ولا بلوغ الغاية الكاملة منه، وإنما قناعتي أنّني قد حاولت قدر استطاعتي البحث في أهم فترة من الفترات التّاريخية، والحاسمة للإمبراطورية العثمانية وأبرزها، والتي يتفق حولها معظم المؤرّخين على أنها فترة الأوج الحضاري، وقمّة الرقي لمعظم أوجه الحياة العثمانية خلالها، وفي عهد سلطانين من أعظم سلاطين الدولة العثمانية وهما: السلطان سليم الأول (1512م-1520م) والسلطان سليمان المشرّع(1520م-1566م).

للإجابة على الإشكالية المطروحة أعلاه حرصت، على إبراز الحركات المناوئة للسلطة العثمانية بالمشرق العربي خلال الفترة الزمنية (1512م-1566م)، من خلال هذا البحث ووفق الخطّة التالية :

-فصل تمهيدي: استهللت الموضوع بفصل تمهيدي واستعرضت فيه جملة من الجزئيّات ارتأيتها أساسية وضرورية للموضوع وهي:

- تحديد بعض المفاهيم والمصطلحات الأساسية وشرحها، فبتحديد الألفاظ تتّضح المعاني.
- تقديم لمحة موجزة عن الموقع والحدود الجغرافية لبلاد المشرق العربي، لحصر الحيز والفضاء الجغرافي للموضوع وذلك ما نراه مفيدا.
- لمحة تاريخية عن الحركات المناوئة،حتى ندرك أنّ الظّاهرة ليست جديدة في التّاريخ العثماني.
- موجز عن أهم مميّزات القرن 16م، وهذا من أجل تقديم صورة ولو وجيزة عن أبرز أحداث القرن .

-الفصْل الأول: بعنوان الأوضاع العامة في بلدان المشرق العربي قبيل التواجد العثماني وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث لمعرفة الأوضاع السائدة والمعيشة بها، متلمسا أوضاع المجتمع المختلفة من خلال ثلاثة مباحث وهي:

- الأوضاع العامة في بلاد الشام ومصر.

- الأوضاع العامة في بلاد الحجاز واليمن.

- الأوضاع العامة في العراق والخليج (الأحساء).

- **الفصل الثاني:** بعنوان التواجد العثماني في بلاد المشرق العربي، ومن خلاله تناولت كيفية التواجد العثماني به من حيث الأسباب والعلل، التي مهدت ودفعت بالعثمانيين إلى دخول بلدانه، سواء كانت تلك الأسباب والعلل عامة أو خاصة بكل بلد. وقد وزعت مادة هذا الفصل على ثلاثة مباحث هي:

- المبحث الأول: خصصته للتواجد العثماني ببلاد الشام ومصر (1516م-1517م) ثم النتائج التي ترتبت عليه مع التطرق إلى موضوع انتقال الخلافة.

- المبحث الثّاني: وفيه تناولت التواجد العثماني بالحجاز واليمن كنتيجة لإلحاق مصر بالباب العالي.

- المبحث الثّالث: وأوردت فيه التواجد العثماني المتأخر نسبيّا وأسباب ذلك في كل من العراق والخليج.

-الفصل الثالث: بعنوان الحركات المناوئة للسلطة العثمانية، وهو الفصل الذي يحمل في طيّاته الإجابة على الإشكالية المطروحة بالمقدمة؛ وتناولت فيه أبرز ما استطعت الوقوف عليه، من تلك الحركات المناوئة، التي

ظهرت بالمشرق العربي، مبرزا زعماءها ودوافع القيام بها وغاياتها وطرق التّصدّي لها، وذلك من خلال المباحث التالية:

- المبحث الأول: خاص بالحركات المناوئة، التي ظهرت بالشام ومصر.

-المبحث الثاني: وخصصته للحركات المناوئة، بالحجاز واليمن.

- المبحث الثالث: وفيه أبرزت الحركات المناوئة، التي ظهرت بالعراق والخليج.

-الفصل الرابع: وقد عنونته بعلاقات الدولة العثمانية الخارجية، وخلاله بحثت عن طبيعة العلاقة العثمانية مع الكيانات السّياسيّة، الشرقية والغربية. وفي هذا الفصل حاولت البحث عن ما مدى تأثير العلاقات الخارجية على الحركات الدّاخلية المناوئة لسلطة العثمانية، ووزّعت هذا الفصل على أربعة مباحث وهي:

- المبحث الأول: ويتعلق بالعلاقة العثمانية الصفوية.

- المبحث الثاني: ويتعلق بالعلاقة العثمانية المملوكية ثمّ العلاقة العثمانية الحجازيّة.

- المبحث الثالث: ويتعلق بعلاقة الدّول الأوروبية الأوربية عموما، بما فيها العلاقة العثمانية البابويّة.

- المبحث الرابع: وقد خصصته للعلاقة العثمانية الفرنسية، وذلك لم لها من خصوصية وتفرد عن غيرها من الدول الأوربية؛ فهي الدولة الأوربية الأولى والوحيدة، التي تحالفت مع الدّولة العثمانية. وختمت البحث بخاتمة جمعت فيها مجموعة من الاستنتاجات. وفي الأخير ذيّلت البحث بمجموعة من الملاحق، رأيتها مدعّمة وموضّحة له، ومفيدة للمطلع عليها.

الصّعوبات.

ولا يفوتني أن أسجّل ما صادفني من صعوبات: بدءا باختيار مصطلح المناوأة الذي ورد في العنوان، ثم بعض الصعوبات الأخرى منها: ضُعفِي اللّغوي للّغتين، العثمانية والتركية، وكذلك قلّة المصادر والمراجع التي تناولت الظاهرة بشكل صريح ومباشر، وذلك في حدود اطّلاعنا؛ لكن الصّعوبة الأكبر تلك التي ظهرت لي أثناء البحث، إذ كلما أحسست بالسيطرة على أطراف البحث والإلمام بالموضوع تراءت لي هيكلة جديدة وتصور آخر، وبالتّالي تعديل الخطّة مرّة أخرى، وهكذا إلى درجة القلق.

منهجية العمل.

أمّا عن المنهج المتبع في هذا البحث، فقد تعاملنا في علاجه مع جملة من المناهج، والمتمثّلة في: المنهج السّردي، والمنهج الوصفي، وكذلك المنهج ألاستنتاجي؛ ودون الولوج كثيرا في التفاصيل، أودّ أن أشير إلى استعمالي لبعض المصطلحات التّاريخيّة، للدّلالة على مفاهيم خاصّة منها: على سبيل المثال لا الحصر، مصطلح الدّولة العثمانية الذي أقصد به الكيان السيّاسي كمؤسّسة للحكم. أما مصطلح الإمبراطورية العثمانية، فأعني به الدّولة في أوج قوّتها وتوسّعها الجغرافي، وتنوّع رعاياها. في حين فضّلت استخدام مصطلح الباب العالي،للدّلالة على العاصمة وأحيانا على الحكومة، مثلما فضّلت استعمال مصطلح سليمان المشرّع بدل مصطلح القانوني خلافا لما هو شائع ومدوّن في كثير من الكتب، وهذا اعتمادا على قناعتي بأنّ النعت الأصح والوصف اللّائق به هو المشرع، وهذا ينطبق عليه لأنّ أغلب تشريعات الدّولة العثمانية صدرت في عهده. أمّا مصطلح الولايات العربية فأحسبه مصطلحا أنسب من المصطلحات الإدارية المختلفة من منطقة لأخرى.كذلك حرصت على التمييز بين مصطلحي: الأتراك والعثمانيين،فوظّفنا مصطلح العثمانيّين بدل الأتراك لكون المصطلح الأول واسع المفهوم ويدلّ على الدّولة والانتساب إليها، أي: أنّ كل الرّعايا عثمانيون سيّاسيّا، لكن ليسوا كلهم أتراكا؛ أمّا الثّاني: فهو مفهوم عرقي ضيق، ولا يخدم الموضوع.كما أنوّه بأن هذا البحث لا يمتاز بالشمولية، ولا الإحاطة بكل أوضاع الظّاهرة موضوع الدّراسة. وبما أن لكل دراسة مصادر ومراجع، فإننا سنقدم فيما يلي بعض مما اعتمدنا عليه.

المصادر والمراجع المعتمدة.

أوّلا: المصادر.

لقد حبّذنا أن نستقي المادة العلمية من مصادرها كالمخطوطات والسجلاّت، ولكن لما تعذّر علينا ذلك، حرصنا علي العمل بمقولة "ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه"؛ فجمعنا من المصادر وخاصّة المخطوطة المحقّقة ومنها:

كتاب:"الفضل المزيد بغية على المستفيد في أخبار زبيد "لابن الدّيبع الشّيباني الزّبيدي (866ه/944ه) (1461م/1537م) وأصل الكتاب مخطوط ألّفه صاحبه الذي عايش بدايات التّواجد

العثماني في المشرق العربي عموما، وطلائع الجيش العثماني باليمن، وكان مقرّبا من مركز السلطة واشتغاله بتاريخ الدّولة الطّاهرية ومدينة زبيد، مما يدعّم الاعتماد عليه.

كتاب: "حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران" لابن الحمصي الأنصاري (841 هـ/914 هـ)، كتاب محقق من 664 صفحة، ويتألف من ثلاثة أجزاء، يغطّي تقريبا الفترة الممتدّة من (1447م إلى1523م) وهي فترة انتقالية تربط ما بين نهاية مرحلة المماليك وبداية مرحلة العثمانيين بمصر والشام. وأهميّته تكمن في كون مؤلفه عايش المرحلة ، وبذلك يعتبر أحد المصادر الهامة لتاريخ المنطقة خلال بداية التواجد العثماني، على غرار ما ألفه، ابن طولون، وابن إياس وابن زنبل، كما أنّه كان قريبا من مصادر القرار بحكم وظيفته، فالجزءان الأول والثاني، خصّصهما للدّولة المملوكية، وأمّا الجزء الثالث فخصّصه للعثمانيين وهو سرد للحوادث المتعاقبة، وعرضها بكل أمانة، دون تدخل منه. أمّا استفادتنا من هذا الجزء فكانت كثيرة.

كتاب:"حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسّلاطين". لصاحبه: حمد بن عيسى بن كنان 1663م/1740م، تحقيق: عباس صبّاغ. هذا الكتاب: لم نعتمد عليه كثيرا، ولكن استأنسنا به لسببين: أولا لكونه يتناول فترة القهقرى العثمانية، والتي تلت مرحلة القوة والهيمنة الحضارية. وثانيا: أن ابن كنان كان معاصرا للأحداث، التي دونها؛ وبالتالي كانت الصورة صادقة عن السلاطين، وهم سنام السلطة، ورأس السياسة.حيث تناول فيه موضوع السلاطين، والحكام، وألقابهم، ثمّ انتقل إلى القصر السلطاني، وأعضاء الحكومة، وبعد ذلك تناول العاصمة العثماني (القسطنطينية) من حيث سكانها، وأحيائها، وعمائرها، والأنشطة الكائنة بها: الاقتصادية، والثقافية . وبعد ذلك تناول موضوع الدين والعلم، في الدولة العثمانية محاولا كشف السلبيات. ومهما يكن، فإنه كتاب يكشف عن حقائق ومعلومات مرتاب في صحتها.

كتاب:"بدائع الزهور في وقائع الدهور":لمحمد بن أحمد بن إياس (1488م-1524م) ، وهو كتاب من1284ص، ويشمل تاريخ مصر من بداية التاريخ إلى غاية 1522م وحسب: غيثاء أحمد نافع فإن هذا الكتاب ما هو إلّا نسخة لكتاب الظاهري، لكن أهمية هذا الكتاب تتمثل في كون الكاتب كان شاهد عيان على فترة سقوط دولة المماليك وبداية الحكم العثماني في مصر. ومثله مثل: ابن طولون في كتابه: "مفاكهة الخلان في حوادث الزمان" بالشام. وبذلك فهما متكاملين بالنسبة لنا.

كتاب:"الرحلة إلى مصر والسّودان والحبشة": للمؤرّخ والجغرافي"أوليا جلبي" و تعريب حسين مجيب المصري وآخرون، وهو كتاب مفيد، لأن صاحبه تميز في تدوين مشاهداته بدقّة عالية وإلمام كثير ، ففيه يصف كل المدن والقرى والعمائر التي مرّ بها وشاهدها، في كل من مصر، والسودان، والحبشة. وما استفدنا منه هو الجزء الأول المتكون من اثنين وخمسين (52) فصلا، وكلّها حول مصر.

كتاب سياحة نامه مصر: للرحالة أوليا جلبي، ترجمة محمّد علي عوني وتحقيق: عبد الوهاب عزّام وأحمد السعيد سليمان (660 ص)، تتكون من: سبعة وخمسين فصلا ويتناول مصر من القديم إلى عهد الطوفان ثمّ إلى العهد العثماني؛ مع التطرق إلى: الدول المعاصرة في عهد أوليا جلبي، وقد استفدنا منه فيما يتعلق بالدخول العثماني إلى كل من الشام ومصر.

كتاب شرف نامه من جزأين لصاحبه: شرف خان البدليسي (949هـ/1543م)،كتاب ألفه بالفارسيّة عام 1597م، وترجم أول مرة إلى الروسية عام 1860 م، ثم من الفارسية إلى العربية.

وتكمن أهميته في كون صاحبه عايش فترة من الوجود العثماني، وكان قريبا من مصادر التأليف المتعددة.كما تبوّأ مكانة اجتماعية معتبرة وهي الإمارة في بدليس في عهد السلطان سليمان المشرع. وكان صاحبه مطلعا على الأحداث وقريبا منها معتمدا على مصادر تاريخية قيمه منها:كتاب أسد الغاية. ومن كتبه: خردة نامه، وزبدة التواريخ، وظفر نامه، ومرآة الجنان، ونفحات، ونهاية الأرب و"هشت بهشت"(أي: الجنات الثمانية)، وزينة القلوب. فلهذه الأسباب وغيرها اعتمدنا عليه، في ما تعلق بموضوعنا؛ فهو كتاب ليس له نظير كما جاء في مقدمة وتمهيد الجزء الثاني عن ماضي وتاريخ منطقة الأكراد.

ثانيّا:المراجع.

لقد استعنّا في جمع مادّة هذا البحث، بمجموعة من المراجع المتنوعة، والتي نحسبها هامّة، وتجمع هذه المراجع بين المخطوطات المحقّقة، وكتب الرّحلات كمصادر، بالإضافة إلى عدّة مراجع أغلبها مأخوذة من مصادر، ونذكر بعضا منها:

كتاب:"تاريخ الدولة العلية العثمانية" لصاحبه: محمد فريد بك (المحامي)، تحقيق إحسان حقّي. كتاب هام اعتمدت عليه لشموليته لتاريخ الدولة العثمانية وغناه بالتعليقات والهوامش المفيدة. فهو يضم(830

صفحة) ويتناول كل سلاطين الدولة العثمانية وفتراتهم وما ميز كلّ فترة من أحداث هامة، كما قُدِّم له بمقدمة تاريخية في التاريخ الإسلامي ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين إلى غاية دولة المماليك ثم أعقبها باستعراض 35 سلطانا من السلاطين العثمانيين بطريقة كرونولوجية، وختمه بعدة ملاحق مفيدة .

كتاب:"الدولة العثمانية في المجال العربي": لفاضل مهدي بيات والذي استفدت منه كثيرا لكونه يتناول كيفية تعامل العثمانيين مع المشرق العربي، أرضا وسكانا، كما عبر صاحبه عن ذلك.

وكتاب:"دراسات في تاريخ العرب" في العهد العثماني ولكن الأهم من ذلك هو أن صاحبه اعتمد على مصادر عثمانية وأعلام في التّاريخ العثماني، مثل: المؤرّخ مصطفى نوري باشا صاحب كتاب:"نتائج وقوعات". بالإضافة إلى كونه متخصص في التاريخ الإسلامي، وباحث في التاريخ العثماني.

كتاب:"تاريخ الدولة العثمانية" لمؤلفه: الميرالآي"إسماعيل سرهنك"يقدم هذا الكتاب وصفا شاملا، وتفسيرات دقيقة للوقائع العسكرية، والقرارات السياسية.كما أنه أحد المصادر العثمانية التي كتبت بقلم من عايشوا بعض حلقات التاريخ العثماني، ومنهم المؤلف نفسه.

كتاب:"تاريخ المشرق العربي (1516م-1922م)"لصاحبه: عمر عبد العزيز عمر. فهو كتاب من 539 صفحة يتكون من قسمين وكل قسم يتكون من عدة فصول: ففي القسم الأول تناول الكاتب أحوال وتطورات الدولة العثمانية وسيطرتها على المشرق العربي، ثم عوامل ضعفها. أما القسم الثاني فاستعرض فيه أحوال المشرق العربي، وأثر الفكر الغربي على الدولة العثمانية، خاصة الحركة الصهيونية وعلاقة بريطانيا بالعرب. وقد استفدنا منه من فصله الثاني، خاصة وأن مصادره من وثائق متعدّدة، بعضها غير منشورة، ومن مصادر بعدة لغات.

كتاب:"الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير" ويضم 474 صفحة، مقسم إلى 17 فصل. وفيه جرد تاريخي للعثمانيين من النشوء إلى التوسع في أوربا والمشرق العربي وإفريقيا، ثم يتناول التنظيم الإداري للدولة وظهور المسألة الشرقية والإصلاحات، ثم يختتم بتقويم مسار الدولة العثمانية وحصر ما لها، وما عليها، مدعما ببعض الخرائط. وإجمالا يتناول الدولة العثمانية من كل جوانبها السياسية والعسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتها مع العرب.

كتاب:"استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية"للمستشرق"برنارد لويس"(1916م-...) تعريب سيّد رضوان علي. هذا الكتاب يحتوي على(235 صفحة)، و رغم حجمه المتوسط إلا أنه مفيد وهام لسببين أولهما: أن صاحبه مختص في الدراسات والتاريخ الإسلاميين، وبخاصة الدولة العثمانية في جامعة لندن، وقد ضمّ بين دفّتيه سبعة مواضيع وهي: فتح القسطنطينية، والفاتحون الذين وسّعوا من رقعة الدولة العثمانية باتجاه أوربا، والسلاطين، والحكام، والقصر والحكومة، والعاصمة، وأخيرا، الدين والعلم. إلا أنّ صاحبه متحامل على الحضارة الإسلامية، وله نظرة عنصريّة، واستعلائية، وذلك يبدو من خلال المغالطات، التي كشفها معرب الكتاب بالتعليق والنقد والإيضاح، حتّى صار الكتاب كتابين في كتاب واحد.

كتاب:"العلاقات العثمانية المملوكية (1464 م-1517 م)"، لصاحبه: غيثاء أحمد نافع يحتوي على 280 صفحة ويتألف من 03 أبواب، تضم 12 فصلا مع 04 ملاحق، وقد أفادنا هذا الكتاب في معرفة جذور الصراع المملوكي العثماني مما أتاح لنا معرفة أسباب تدهور العلاقات بين الدولتين، وهو كتاب ثمين لاعتماد صاحبه على ما كتبه: ابن الأثير وابن بطوطة وابن أجا وابن إياس وابن تغري بردي، وابن الجيعان، وابن الحمصي، وابن طولون، وابن زنبل، وابن كنان، و يلماز أوزتونا، ونيكولاي إيفا نوف، وسيّار الجميل، ومحمد فريد بك المحامي.

كتاب: "تاريخ الشعوب الإسلامية، العصر الحديث"، لصاحبه: عبد العزيز نوار. يتألف هذا الكتاب من 465 صفحة؛ تضم 4 كتب. وكل كتاب يضم مجموعة من الفصول؛ وقد اعتمدنا على الكتاب الأول المتعلق بالأتراك .

كتاب:"تاريخ الدولة العثمانية" للمستشرق روبير مانتران وآخرون،كتاب مترجم إلى العربية، يتكون من جزأين (660ص)، ويغطّي مسار الدولة العثمانية، من بداية نشوئها إلى غاية بداية القرن التّاسع عشر، ونموها مرورا بفتوحاتها، وصراعاتها مع القوى الأجنبية: البرتغالية الصفوية وغيرهما، وكذلك مرحلة الضعف والتّقهقر، وما فيها من أهم الأحداث والعمليات، وقد أفادنا بما تميز به من نقد وتحليل.

كتاب: "الدولة العثمانية المجهولة"،كتاب مترجم من التركية إلى العربية لأحمد آق كوندز وسعيد أوز تورك. هذا الكتاب يحتوي على 303 أسئلة، و303أجوبة. وهو كتاب عديم النظير – حسب علمنا - في طرحه وأسلوبه. وطريقة تقديمه تغري القارئ على الإطلاع عليه، وتزويده بالحقائق و تكشف له عن الكثير من

الالتباسات، ودقائق المعلومات، ويتقاطع إلى حدّ كبير مع كتاب الدّولة العثمانية المفترى عليها، للمؤرخ عبد العزيز محمد الشنّاوي.

كتاب:"الدّولة العثمانيّة دولة إسلاميّة مفترى عليها"للبحّاثة"عبد العزيز محمّد الشنّاوي."هذا الكتاب يتكوّن من أربعة أجزاء تضمّ ثلاثة و ستّين فصلا، وهو كتاب قيّم لسببين- حسب تقديرنا – وهما: الحياديّة النسبيّة ويتجلّى ذلك في استعراض محاسنها ومساوئها معا، وكذلك إماطة اللّثام عن الافتراءات الّتي أُلقيت مجّانا على الدّولة العثمانية.

-كتاب:"في أصول التّاريخ العثماني"لعبد الرحيم مصطفى، ويضمّ مجموعة من المواضيع المتفرقة من تاريخ الدّولة العثمانية.

كتاب:"العثمانيون في التّاريخ والحضارة"، لمحمّد حرب، يحتوي على عدة مواضيع متفرقة، لكنّه يركّز على الجوانب الحضارية. ويتقاطع مع كتاب "الدولة العثمانية تاريخ وحضارة" لأكمل الدّين إحسان أوغلي وآخرون، في إبراز الوجه الحضاري للعثمانيّين، في مختلف الميادين.

كتب التّراجم

كتاب:"سلاطين الدولة العثمانية": لصالح كولن" دار ترجمة "منى جمال الدين" وهو خاص بالسلاطين العثمانيين. ويضم بين دفتيه لمحة موجزة ومركزة عن كل سلطان من السلاطين الـــ 36 للدولة العثمانية؛ ابتداء من: عثمان غازي (1299م) إلى السلطان محمّد السّادس وحيد الدّين (1922م).كما يقدم هذا الكتاب مساهمات مختصرة للسلاطين العثمانيين، طوال مسار الدولة العثمانية، وبعض الحقائق حولهم، خاصة منهم الذين حكموا مددا طويلة. و عن أهم منجزاتهم. فهو كتاب من نوع السيّر المختصرة، ولكنه أكبر من ذلك وأفيد. وما زاد من أهميته، هو اعتماده على المصادر التركية والانجليزية .

-ثالثا:كتب باللغة الأجنبية.BIBLOGRAPHIE

1- Lodovico di Varthema; The itinerary of Lodovico di Varthema of Bologna from 1502 to 1508, translated from the original Italian.
2- Lavallée Théophile : Histoire de l'empire Ottoman depuis les temps anciens jusqu'à nos jours, Garnier, éditeurs, Paris, 1855, p222.
3- HAMMER –PURGSTALL Joseph Von, Histoire de L'empire ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours, T4 traduit de L'Allemand par:J .J . Heller, Paris, (sans date)et (éd).
4- Fernand Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen, à l'époque de Philippe II, T.2, 2éme éd, Librairie Arnaud Colin, Paris, 1966.

بالإضافة إلى بعض القواميس، والأطروحات، والمقالات ببعض الدّوريّات المحكّمة.

الفَصْلُ التَّمْهيدي:

- أوّلا: تحديد بعض المفاهيم والمصطلحات.

- ثانيّا: بين مصطلحات الاحتلال والفتح والتّواجد.

- ثالثا: كلمة موجزة عن الدّولة العثمانية.

- رابعا: موقع الّدولة العثمانية ومساحتها.

- خامسا:مميّزات وخصائص الدّولة العثمانية.

- سادسا: مميّزات القرن السّادس عشر(16م).

- سابعا: لمحة موجزة عن الحركات المناوئة خلال العصر الإسلامي.

-أوّلا: مفاهيم بعض المصطلحات.

إن إشكالية المصطلح تعتبر-في رأينا- موضوعا مفصليا، ونقطة هامة في موضوع بحثنا، وفي كل البحوث. ولذلك كان لزاما علينا التطرق إليها، وعرضها حتى تتضح أهمية تَناوُلِها خلال البحث.

فالحركات المناوئة للسلطة العثمانية، والمناهضة لها، قد تعرضت لها العديد من المصادر والمراجع، ولو بشكل عرضيّ، وبصيغ مختلفة. فتارة ذكرها المؤرخون والدارسون بصيغة ثورات وتارة أخرى بصيغة تمرّدات، وحينا آخر بصيغة عصيان، إلى غير ذلك من الاصطلاحات. لذلك آثرنا أن نتناول هذه المصطلحات بالدراسة، قبل الغوص في موضوع البحث، وهذا من أجل إجلاء الغموض وإثراء الموضوع؛ معتمدين في ذلك على بعض المعاجم والقواميس المتوفرة لدينا.

1- في المعاجم والقواميس القديمة :

إنّ لفظتي: تمرّد وعصيان من حقل دلالي واحد، حيث تتقارب دلالتهما إلى حد كبير، ففي لسان العرب نجد أن "التمرّد" من: مَرَدَ على الشّر وطغى، وتمرّد أي عتا، وتمرّد أيضا أي: جاوز حدّه.[1]

و المتمرد هو من أقدر وعتا، أو من بلغ الغاية، التي يخرج بها عن جملة ما عليه ذلك الصنف.[2]

والمتمرد كل من تمرد وعصى، ومرد على الشّر أي عتا وطغى.[3]

أما العصيان: فهو خلاف الطاعة، ومنه عصا العبد ربّه أي: خالف أمره، وعصى أي: استعصى عليه.[4]

وفي معنى العصيان نستشهد بالمثال التالي: **« إن الخوارج شقوا عصا المسلمين »**، أي شقوا اجتماعهم وائتلافهم، ويقال: **« انشقت العصا أي : وقع الخلاف »**[5]. وفلان شقّ عصا الطاعة، أي: خالف جماعة المسلمين.

كما يحدّد ابن منظور أكثر من معنى لمصطلح العصيان، ويربطه بحمل السيّف فيقول:

---

[1]) ابن منظور محمد بن مكرم (ت 711 هـــ)، لسان العرب، 18 جزءا، دار صادر بيروت.

[2]) الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسّسة الرسالة، بيروت ط6، س1998.

[3]) عبد الغفار علاء الدين، حركات التمرد في التاريخ الإسلامي، مصر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011 ص، 33 (نقلا عن ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر بيروت، (د.ت)).

[4]) ابن منظور، المصدر السابق.

[5])عبد الغفار، المرجع السابق، ص33.

« القول عصى أي: عصى بالسّيف يعصي إذا ضرب به، وعصى الرجل في القول بسيطة وعصاه فهو يعصي فيهم، إذا عاث فيهم عيثا ».[6]

ومن خلال معنى العصيان والأمثلة المذكورة، نستشف في بعض الوجوه معنى الرفض، والمعاكسة، والقيام بحركة سلبية مضادة وعنيفة، إلى حدّ استعمال العنف بالسيف مثلا.

2- في المعاجم والقواميس:

-تعريف التمرد: لقد جاء في لسان العرب: تمرّد فلان على القوم أي: عصيّ، عنيد، وتمرّد على الشيء أي: طغى[7].

أمّا قاموس المنجد في اللغة العربية المعاصرة، فقد أورد مصطلح الحركة وقال: « حركة كل من أتى بحركة فخرج عن سكونه ». وقسّم الحركة إلى حركة ثورية وقال عنها: « هي عمل جماعي يهدف إلى إحداث تغيير في الأفكار والآراء والتنظيم». ثم حركة فكرية وهي: « نشاط جماعي ذو مناهج وغايات ».[8]

أما مصطلح التمرّد فورد في نفس القاموس التمرّد هو: « الخروج على طاعة رئيس ومخالفة أمره »[9].

مثال: تمرّد الجند أي: خرجوا على السلطة بقوة السلاح وهي فتنة وعصيان وثورة (حركة تمردية)[10]. والتمرّد هو عصيان الأمراء، والعاصي المتمرّد هو من يعلن الثورة على سلطة قائمة، فهو عاص ومتمرّد[11]. وبناء على ما تقدم نستخلص أن التمرّد يتعدى الرّفض والإحجام إلى الثوران (الهيجان) والقيام بفعل ضد جهة وطرف آخر كرد فعل.

-معنى الثورة : إنّ مصطلح الثورة له دلالة ومفهوم سلبي في الآداب السياسية الإسلامية، فهي تعادل الفتنة، وهذه الأخيرة ممقوتة. حتّى قيل في ذمّها:"سلطان غشوم خير من فتنة تدوم"[12]. لأنّ الثورة تؤدي إلى الفوضى

---

[6]) ابن منظور، المصدر السابق.

[7]) عبد الغفار ، المرجع السابق، ص34. نقلا عن مجمع اللغة العربية.

[8]) المعجم الوسيط، ط3، 1985.

[9]) قاموس منجد اللغة العربية.

[10]) المنجد في اللغة العربية المعاصرة.

[11]) نفسه.

[12]) زيادة خالد، اكتشاف التقدم الأوربي، دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن 18 م دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981، ص98.

والتقاتل ونحن نرى أنه إذا كانت الفتنة غير مقبولة وخاصة الدائمة فإن السلطان الغشوم هو كذلك لا يصبر عليه.

أمّـــا"نقولا تورك" فقد كان له مفهوم آخر للثّورة، وعبّر عن الثورة الفرنسية بقوله: « بلبلة عظيمة »[13].

أما السّفير العثماني بباريس سيّد وحيد أفندي، فقال عنها بأنّها «احتلال».

- وعند الفرنسيين: الثورة هي التغيير، أما عند العثمانيين فقد صار مفهومها في نهاية القرن الثامن عشر "التغيير الإصلاحي"[14].

فمن خلال ما ذُكِر، فإنّ للثّورة مفاهيم كثيرة، فهيّ: فتنة، وبلبلة عظيمة، واختلال، وتغيّير إصلاحي.

3-الفرق بين الثـــــــورة والانقـــــلاب .

هناك تذبذب كبير لا يزال قائما بين مصطلحي الثورة والانقلاب وإلى غاية مطلع القرن العشرين، ومع ذلك فإن بعض العرب يفضّلون استعمال مصطلح الثورة بينما الأتراك يستخدمون كلمة انقلاب.[15]

أمّا الفرق بينها، فإن الانقلاب في اصطلاح المؤرخين هو تغيير مهم في حكومة الدولة وقيل في قوانينها وهو غير الثورة التي تعني العصيان والخروج عن الطاعة، والقيام على الحكومة المشروعة؛ فالفرق بين الانقلاب والثورة كبير.

أما الثورة فكثيرا ما تضر بمنافع الأمة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح، بخلاف الانقلاب فإنه مهما آلم الأمة و رضرضها فهو يخطو بها خطوة في نهج التقدم، ويصعد بها درجة في سلم النجاح. و الانقلاب السياسي من شأنه أن يحدث انقلابا في اللغة والأدب فضلا عن الانقلاب في الأخلاق والأفكار، ويستدل الكاتب الخالدي محمد روحي بك على ما يحدثه الانقلاب في اللغة والأدب وفي الأخلاق بما تفعله مفردات الصحف المنشورة والمستعملة من قبل الكتاب قبل الانقلاب وبعده.

لكن هناك من يرى أن الانقلاب ما هو إلّا ثورة، وهذا ما نلمسه في قول لويس السادس عشر*(1774م-1792 م) لما أخبر بهدم قلعة الباستيل (La Bastille)، وإطلاق سراح المسجونين منها:

---

[13]) نفسه، ص نفسها.

[14])زيادة خالد المرجع السّابق، الصفحة نفسها.

[15]) نفسه، ص نفسها.

*)لويس السادس عشر(16): اندلعت في عهده الثورة الفرنسية، تزوج ماري أنطوانيت النمساوية، وأعدم عام 1793 م.

« إذن هذه ثورة (Révolte) فأجابه المخبر: « عفوا يا مولاي بل هذا انقلاب (Révolution) ».

و يفهم من كلام الملك أن عمل وفعل الثائرين غير مشروع، ولا يستند إلى أي قاعدة قانونية مساندة، وبالتالي فلاحق لهم فيه ولا في خروجهم عن طاعته. أمّا جواب المخبر للملك فينافيه، ويدل على أن الانقلاب ليس كالثورة والعصيان وغيرهما.

-الانقلاب في اصطلاح المؤرخين: هو تغيير مهم في حكومة الدولة وقلب قوانينها، وهو في الثورة التي بمعنى العصيان والخروج عن الطاعة والقيام على الحكومة المشروعة.

-الفرق بين الانقلاب والثورة: الفرق بينهما كبير، إذ أنّ الثورة كثيرا ما تضر بمنافع الأمة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح، بخلاف الانقلاب، فإنه مهما آلم الأمّة وأضرّ بها فهو يخطو بها خطوة في نهج التقدم، ويصعد بها درجة في سلم النجاح.

وأكثر كتاب العربية لا يفرقون بين المصطلحين، فيطلقون اسم الثورة على الانقلاب، فيقولون الثورة الفرنسية مثلا بدل الانقلاب الفرنسي، واكتفوا بما روي عن لويس الـــ: (16) ملك فرنسا لما أخبر بهدم قلعة الباستيل(La Bastille) وإطلاق المسجونين منها إذا قال: «هذه ثورة (Révolte)» و لم يلتفتوا إلى جواب المخبر لّما ردّ على الملك الفرنسي بقوله: «عفوا يا مولاي بل هذا انقلاب (Révolution). فمراد الملك أن فعل الثائرين غير مشروع، ولاحق لهم في الخروج عن الطاعة، وجواب المخبر ينافيه، ويبين أن الانقلاب غير الثورة و العصيان[16].

العصيان: حسب عبد الغفار علاء الدين هو من فعل عصى وخالف الأوامر، وخرج عن الطاعة، فأعلن الرفض وثار وتمرّد على السلطة و عصى[17]. ثم لخّص العصيان فقال: « العصيان روح التمرد»[18]. وما يُفْهم منه أنّ العصيان مظهره التّمرّد وهو محرّكا له.

---

[16]) الخالدي محمّد روحي بك: أسباب الانقلاب العثماني و تركيا الفتاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010 ص ص 17،18.

[17]) عبد الغفار علاء الدين، مرجع سابق، ص 35 ، نقلا عن المنجد في اللغة العربية المعاصرة.

[18]) نفسه،ص35 .

- منظمة اليونسكو (للتربية والعلوم والثقافة بالأمم المتحدة): لقد أوردت هذه المنظمة العالمية التعريف التالي:"التمرد هو الدعوة لأساليب غير المشروعة، لتغيير نظام الحكم أو قلب الحكومة القائمة بالقوة، ويتضمن ذلك معنى العصيان، والخروج عن القانون ،كما يشكل التمرد جانبا من الجرائم ذات الطابع العسكري"[19].

- ومن المصطلحات الحديثة والقريبة من المعنى والدلالة لحركات التمرد والعصيان مصطلح الخارج من خرج خروجا أيبرز من مقره، والخارج هو الرجل الذي خرج على سلطان أو على رأي، كالخوارج الذين خرجوا على الإمام علي –رضي الله عنه- وخالفوا رأيه. وفي علم السياسة الخارجون هم المنشقون والمعارضون للأيديولوجية السائدة في الجماعة، أو الدولة، وهي التسمية الشائعة للمتمردين في القرن 16م[20].
- ومن المصطلحات الواردة أيضا مصطلح الفتنة التي هي من التحريض على العصيان[21].

وكذلك الانقلاب من فعل قلب وقلّبه، يقلّبه أي: حوّله عن وجهته، وهو التغيير المفاجئ يقوم به في العادة بعض رجال الجيش.[22]

لكن المصطلح الأقرب صلة لموضوع البحث هو مصطلح الثورة، فالثورة لغة من فعل ثار كقولنا ثار الغبار وأثاره أي غيّره ويقال ثوّر فلان الشر تثويرًا أي هيّجه وأظهره[23].

-والثورة اصطلاحا تُفسّر بأنها تغيير أساسي في الأوضاع السياسية والاجتماعية يقوم به الشعب في دولة ما[24].

-والفرق بين الثورة والانقلاب حسب معجم اليونسكو هو: « أنّ الانقلاب يرمي إلى مجرد قلب نظام الحكم وإحلال سلطة محل أخرى، أما الثورة الحقيقية فهي التي تنبعث من الشعب، وتعبر عن ميوله ورغباته وإن دبرها وقادها أشخاص معينون »[25].

-فالثورة هي: تغيير نوعي عميق في تطور ظاهرة ما في الطبيعة أو في المجتمع أو الفرقة، والثورة تمثل قفزة نوعية لا تتماشى مع التدرج[26].

---

[19]) نفسه، ص35.

[20]) نفسه، ص35 .نقلا عن المعجم الوسيط، ط3، 1985.

[21]) المنجد في اللغة العربية المعاصرة ، مرجع سابق .

[22]) المعجم الوسيط، مرجع سابق .

[23]) مرجع سابق، ص35. نقلا عن: مختار الصحاح، ص37.

[24]) الفيروز أبادي: مصدر سابق، ص، 459.

[25]) المرجع السابق، ص36.(نقلا عن :معجم العلوم الاجتماعية اليونسكو، ص205).

وبناء على ما تقدم من مصطلحات ومفاهيمها، فإنّنا على قناعة بأن كل هذه المصطلحات من: عصيان، وتمرد، وانقلاب، والثورة هي: كلها حركات مناوئة للسّلطة، حتّى وإن اختلفت فيما بينها، من حيث العمق والسرعة والعنف والوسيلة. والحال كذلك هنا بالنّسبة للدولة العثمانية، وما ظهر من حركات مناوئة هنا وهناك. كما يجب التنويه والإشارة إلى ما أوردته بعض المصادر التاريخية من مصطلحات التمرد والعصيان والثورة .

ففي مخطوط "تاريخ الخلفاء والملوك" ورد التعبير التالي: « فاضطر كثير من أهل الزرع والضرع إلى التمرد والعصيان». وأورد ابن الجوزي في قصة نوح -عليه السلام- فقال: « بُعث نوح في زمن الملك بيوراس (الضحاك) وإلى أهل مملكته الذين تمردوا فعصوا، وأنهم هلكوا بمخالفته ». كما نقرأ في قول نظام الملك الطُّوسي حول أحداث سنة 261 هـــ في تمرد يعقوب بن الليث على الخليفة المعتمد قوله: « فلما سمع عسكر يعقوب هذا الكلام، قال أمراء خراسان للخليفة:"أما وقد أظهر التمرد والعصيان الآن فنحن معك نحارب إلى جانبك حتى الرمق الأخير»[27]. ومما سلف ذكره، يتّضح بأنّ المصطلحين مألوفين.

إذا فكل هذه الحركات مضادة ومناوئة ومعاكسة، يقوم بها طرف سواء كان فردا، أو جماعة، أو مجتمعا، ضد طرف آخر يمثل سلطة ما سواء كان فردا أو نظاما. وسواء كانت الحركة عنيفة أو مسالمة؛ فالشيء الثابت هو أن مهما اختلفت المفردات والمصطلحات، فإنها تشترك وتلتقي كلها في فعل التغيير، وتهدف إلى تحقيقه، وإن اختلفت الوسائل والسبيل ، وبالتالي فهي كلها حركات مناهضة ومناوئة مع التسليم بأن كل مصطلح له ميزته وخاصيته عن غيره.

-ثانيّا: بين مصطلحات الفتح، و الاحتلال، والتّواجد.

كلما تصفحت كتابا يتناول تاريخ الدولة العثمانية في الحيّز الجغرافي للمشرق العربي إلى غاية الحرب العالمية الثانية، إلا ووجدت أحد المصطلحين التاليين وهما: "مصطلح الغزو العثماني" أو "الفتح العثماني". فما سرّ هذا الاختلاف؟ وأيّ المصطلحين أمثل وأصح ؟ إن هذا الاختلاف هو انعكاس لاختلاف قناعات الكُتاب وتضارب في الخلفيات الفكرية وتنوع زوايا الرؤى. والإجابة عليه تبدو بسيطة بساطة السؤال إلا أنها في حقيقة الأمر تحمل لغما إيديولوجيا وتصادما -في نظرنا- بين تيارين متعاكسين في الاتجاه ومتّحدين في الانطلاق. وبقدر أهمية السّؤال فإنّ الإجابة عليه تحتّم علينا الخروج من دائرة التاريخ وتقحمنا في دائرة فقه اللغة، وحتى لو

---

[26]) نفسّه ص36 (نقلا عن: المعجم الوسيط، ص379).

[27]) عبد الغفّار، مرجع سابق، ص37.

اكتفينا بالمفهوم اللغوي لكلا المصطلحين، ووقفنا على الفرق بينهما، فإن حبل السؤال لن ينقطع، إذ تواجهنا تساؤلات أخرى، وأولها: إن كان فتحا وليس غزوا، فهل هو فتح صلح أم فتح عنوة ؟

وهذا ما يجرنا إلى استقراء الأحداث والأسباب واختلاف الآراء، ومقابلتها والمقارعة بالدلائل إن اهتدينا إليها.

أمّا ثانيها: فإن كان غزوا وليس فتحا، فأي نوع من أنواع الغزو ؟ ونحن نرى أن شروط الغزو لم تتوفر في الغازي.

ومهما كان الاختلاف بين المصطلحين، فإن لكل منهما مؤيدوه وأنصاره وكل فريق له من الشواهد والدلائل ما يفند ادعاءات ورؤى الفريق الآخر.

فمن الكتّاب من تناول التاريخ العثماني وعلاقته بالبلاد العربية، وراح يوظف مصطلح "الفتح العثماني" حتى يشعرك وكأنك أما جيوش إسلامية تفتح أبوابا وتقتحم أسوارا لمدن غير إسلامية، على غرار الجيوش العربية الإسلامية التي تدفقت خارج شبه الجزيرة العربية وفتحت الأمصار،كبلاد فارس وبلاد الرّوم إيلى درجة أنك في لحظة من اللحظات تربط العهد الأموي بالعهد العثماني، ولنا أسماء كثيرة من هؤلاء الكتاب ومنهم:

- محمد عمر عبد العزيز عمر: أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر و محمد فريد بك المحامي صاحب كتاب الدولة العلية العثمانية. و إبراهيم بك حليم صاحب كتاب تاريخ الدولة العثمانية العلية، ومحمد سهيل طقّوش صاحب كتاب تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ووديع أبو زيدون صاحب كتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط.

ومن الكتّاب من يؤمن بفكرة الغزو ويفضّل مصطلح الاحتلال والسيطرة، ولا يلقي بالا إلى الأخطار الصليبية التي كانت محدقة بالمسلمين وبمقدساتهم وخاصة من الأسبان والبرتغاليين، ولا إلى الاتصالات والنداءات من قبل أهل الشام ومصر بالباب العالي، ولا إلى المد الشيعي الذي اكتسح قسما كبيرا من الأناضول وبغداد ويرنو إلى دمشق ثم القاهرة. وبذلك يتجاهل تلك الأسباب والعوامل الّتي فرضت نفسها في ذلك الوقت.

ومن هؤلاء الكتاب الذي يفضلون استخدام مصطلح الغزو والاحتلال بل وسوّوه مع الاحتلال والغزو الفرنسي والانجليزي نجد:

- محمود كامل المحامي صاحب كتاب الدولة العربية الكبرى، مطبع الحافظ في كتابه المحقق نوادر الانجازات والسماعات لابن طولون، ص 13، وبسبب هذا الاختلاف في نعت العثمانيين ووصف تواجدهم بالمشرق العربي، تفادينا مصطلحي الغزو، والفتح، وفضّلنا استعمال مصطلح التواجد. ومجمل القول إنّ صورة العثمانيّين

عند العرب المشارقة، هيّ صورة غازي محتل، وذلك ما عكسته معظم أدبيّاتهم، وكتبهم التـــّاريخية. وأمام هذا الاستشكال فقد حبّذنا استخدام مصطلح "التواجد" بدل مصطلحي الغزو والفتح ؛ ومرد توظيفنا لهذا المصطلح (التواجد)، وتفضيلنا إيّاه له سببان:

أولهما:كي لا ندخل في متاهات البحث عن تحديد المصطلح وعلاقاته المختلفة، أو نتهم بالانحياز لتيّار معين، أو نسأل عن المبرّرات، أو مرجعيتنا الثقافيّة والفكريّة.

ثانيهما: إن مصطلح التواجد هو واقع حقيقي وفعل ميداني لا جدال ولا مراء فيه، وحدث لا يختلف حوله اثنان من جهة، ومن جهة أخرى فإنّنا نرى أنّ توظيف كُلاً من المصطلحين يحتاج إلى كثير من التوضيح.

-ثالثا:كلمة مختصرة عن الدولة العثمانية:

تنتسب الدولة العثمانية إلى مؤسسها "عثمان بك بن (أرطغرل غازي) ." الذي أسسها بالجزء الغربي من هضبة الأناضول على شكل إمارة صغيرة،[28] وما فتئت أن تنامت وتوسّعت بتوفّر جملة من العوامل والأسباب لا يتسع المقام لتفصيلها، فبعد أن بدأت نواتها للوجود عام 1300م، بالأناضول تنامت، وتمددت نحو أوربا عام 1453م[29]، في عهد السلطان العثماني محمد الفاتح، الذي جعل من عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (القسطنطينية)* عاصمة لها بعد فتحها بتاريخ:29/مايو 1453م. وأصبحت وريثة الإمبراطوريتين الرومانية الشرقية والمماليك[30]، واستمرت في التوسع، خاصة نحو أوربا إلى غاية عام 1512م، حينها تولى العرش السلطان سليم الأول (1512-1520)م، الذي وجّه وجهة تمدد الإمبراطورية نحو الشرق والجنوب الشرقي ومن بعده واصل ابنه السلطان سليمان المشرع (1520م-1566)م، ولتبلغ أوج قوّتها

---

1) أحمد آق كوندز و سعيد أوزتور، الدّولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، إستانبول،(د.ط)، 2008، ص 48

[28]) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية. ج2، تر: نيكولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1986م، ص184.

*) القسطنطينية (Constantinople) كانت تسمى بيزنطة ، قبل فتحها في 29 مايو عام 1453م كان اسمها مأخوذ من اليونانية (Eisten Polin وحرف إلى إسلام بول ثم سمّيت الأستانة في العهد العثماني واستانبول بالتركية وهي عاصمة الدولة العثمانية منذ 1453م إلى إسقاط الخلافة الإسلامية 1924م. دومنيك سورديل وآخرون، معجم التاريخ الإسلامي، تر: أنطوان الحكيّم وآخرون، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، بيروت 2009، ص96 . وللمزيد عن أسمائها، (انظر كتاب: Osmanl'yi Yeniden Kesfetme:Ilber Ortayli) (إعادة اكتشاف العثمانيين) ، تر:بسّام شيحا، الدّار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، ط1، 2012، ص11. ومن أسمائها: ليغوس. (نظر:سليمان خليل، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، دار صادر، بيروت، ط2، 1999 ، ص1.

[30]) توينبي ، مرجع سابق، ص184.

وتطورها خلال عهديهما، وهو ما دعا ملك فرنسا "فرانسوا الأول" بعدما أطلق سراحه على إثر خسارته معركة بافيا عام 1525م أمام شارل الخامس، أن يقول لسفير البندقية: إنه أصبح يعتبر الدولة العثمانية القوة الوحيدة في العالم[31] وهناك شهادة أخرى ضمن رسالة بابا روما " بيوس الخامس" إلى فليب بن "شارلكان" 1570/3/8م،حيث جاء فيها:**« لا توجد دولة مسيحية في العالم تستطيع الوقوف وحدها بوجه الدولة العثمانية، وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتّحد لتكسّر الغرور التركي »**[32].

وهكذا استمرت الدولة العثمانية في الوجود والحياة إلى غاية عام 1924م لتبدأ مرحلة جديدة، ولتكون بذلك أكبر الإمبراطوريات تعميرا، و لأكثر من ستّة قرون من الوجود.

-رابعا: موقع الدولة العثمانية ومساحتها:

إن الحديث عن موقع الدولة العثمانية وعن مساحتها خلال تواجدها من النشوء إلى غاية التحول الذي طرأ عليها خلال بدايات القرن العشرين غير مستقرة، وذلك بسبب التحولات التي مرت بها عبر تاريخها الممتد من نهاية القرن الرابع عشر إل غاية الربع الأول من القرن العشرين. ففي خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة عرفت الدولة العثمانية تغيّرات كثيرة وبالتالي فإن الوقوف على موقعها ومساحتها يتطلب رصد كل التغيّرات التي حدثت وذلك لتحديد تلك المواقع والمساحات المتغيرة، امتدادا وانكماشا. وما دام موضوع بحثنا يخص القرن السادس عشر، وبصفة أخص يتعلق بعهدي السلطانين سليم الأول، وسليمان المشرّع، (1512م/1566م) فإنّنا سنتطرّق إلى تطور رقعة الدولة العثمانية،كيف كانت قبل هذه الفترة، وكيف أصبحت خلالها.

لقد تمتعت الدولة العثمانية بموقع مميّز على غرار بعض الدول، لكنها الوحيدة التي تتموقع على قارتين كجسر يربط بينهما عن طريق جزئيها: الآسيوي (شبه جزيرة الأناضول=L'Anatolie) أو ما يسمّى بآسيا الصغرى، والأوربي المتمثل في (الروم إيلّي=Roumélie) بالقارة الأوربية، وقد حافظت على هذا الموقع عبر مسارها التاريخي سواء في فترات التمدد والتوسع، أو حتى في فترات الانكماش والتقلص. وهذا منذ أن

31)خليل إنالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد.م. الأرناءوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2002، ص 57 .

32) محمّد السيّد الدغيم، أضواء على البحرية العثمانية الإسلامية الحضارة الإسلامية وعالم البحار، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1994م، ص 405.

صهلت خيول السلطان محمّد الفاتح سنة 1453م بالقسطنطينية إلى غاية زوال الخلافة العثمانية بتاريخ 27 رجب 1342هـ/ 3 مارس 1924م[33].

أمّا عن مساحتها فإنّ خلال المسار التاريخي للدولة العثمانية، ومنذ أن نشأت كإمارة بالغرب الأناضولي ابتداء من سنة 1299م إلى غاية إسقاط الخلافة أو (التخلّي عنها) بتاريخ 27 رجب 1342هـ/3 مارس 1924م، وهيّ تتغير زيّادة ونقصانا، حتّى صارت حدودها تمتد من بلاد القفقاس (القوقاز) وشمال البحر الأسود شمالا إلى مضيق باب المندب، وعدن جنوبا، ومن الحدود الغربية لجزائر الغرب (الجزائر) غربا إلى غاية أطراف العراق وكردستان والخليج العربي/ الفارسي شرقا.

إنّ هذا الامتداد جعلها تسيطر على دول وإمارات الشرق الأدنى (الجنوب الغربي من قارة آسيا)، وعلى ممالك دول شمال إفريقيا باستثناء الدولة السعدية، وعلى هضبة الأناضول وبلاد البلقان بأوروبا[34]. فخلال هذا القرن التّوسع) تغيرت مساحة الدولة العثمانية أربع(04) مرات، وبلغت خلاله أوج توسعها، (أنظر الملحق رقم 01 ص 170). ففي آخر عهد السلطان "بايزيد" بلغت 2375000 كم^2 بالقسم الأوربي (الرّوم إيلّي).* أمّا في عهد السلطان "سليم الأول" فبلغت حوالي 6557000 كم^2 منها 596000 كم^2 بالجزء الآسيوي والبقية 1777000 كم^{2}بالقسم الأوربي لتقفز إلى حوالي 14983000 كم ^{2}منها1702000 كم ^{2}،و1905000

كم^{2}بآسيا، و2950000كم^2 بإفريقيا في عهد السلطان سليمان المشرع[35]؛ وبذلك أمست تشرف على عدّة بحار: (الأبيض المتوسط والأحمر والأسود وبحر مرمرة)، بمساحة مائية تقدّر بحوالي: 3849500كم^2، من المياه.[36]

---

[33]) منصور عبد الحكيم، مصطفى كمال (أتاتورك) ذئب الطورانية الأغبر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، 2010، ص17.

[34]) كارابل زاكري، أهل الكتاب التاريخ المنسي لعلاقة الإسلام بالغرب، تر: أحمد أيبش، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ص،197.

*) في بعض المراجع الأخرى، فإن المساحة= 2373000 كم2.

[35]) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص 338.

[36])محمّد بيرم الـــخامس، صفوت الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار،مج3، تح:علي الطّاهر الشنّوفي وآخرون، بيت الحكمة ،تونس ،1999 ص 932،933.

وما يلفت الانتباه هنا هو هذا التوسع السريع والكبير. فخلال مدة لا تزيد عن سبعين سنة، بلغ توسّعها أضعاف ما تم خلال قرنين كاملين من 1299م إلى 1512م. (انظر الخريطة، الملحق رقم (1).

وقد شملت فترة التطور وبلوغ الأوج عهود كلا من: السلطان سليم الأول و السلطان سليمان المشرع و السلطان سليم الثالث و السلطان مراد الثالث و السلطان محمّد الثالث (أي من 1512 إلى 1603م).[37] إلاّ أنّ أفضلهم على الإطلاق هوّ عهدي السلطانين: سليم لأول وخليفته السلطان سليمان المشرّع (1512م-1566م).

-خامسا: مُميّزات وخصائص الدّولة العثمانيّة.

لقد اجتمعت عدة خصائص ومميزات في الدولة العثمانية تكاد تكون متناقضة وبذلك ميزتها عن مختلف الدول، و نقدمها بشكل مختصر، لكي نرسم بها صورة موجزة للدولة العثمانية ولسياستها. فالدولة العثمانية دولة عسكرية ودينية في ذات الوقت، ودولة منفتحة على العالم، وطبقية وإقطاعية وذات حكم مطلق ودولة ذات رعايا متعدّدي الأعراق والأجناس والدّيانات في آن واحد. وقد شهد على ذلك التنوع الرّحالة "جيرار دو نارفال"الذي زار استانبول خلال الـــقرن الـــ16م بقوله:

«La race ottomane est de: 11.700,000 âmes les Autres races peuple des divers parties de l'empire, Grecs, Slaves, Arabes, Arméniens, etc. comptent le nombre des sujets de tout l'empire, qui est 35350000 âmes». (voir: Gérard de Nerval, voyage en Orient, T3, société générale d'édition et de diffusion, Paris 1999).

- فهي دولة عسكرية بامتياز، فكيف لا وهي ابتداء ظهرت إلى الوجود كإمارة وتحت ظلال السّيوف، وما فتئت أن توسعت على حساب ما جاورها اعتمادًا على قوة محاربيها، واستمرت بعد ذلك في بناء جيش قوي* نمى وتطور مع نموها وتطورها، وهو ما شهد به ابن بطوطة عنها أيّام عهودا الأولى من خلال رحلته[1].

---

[37]) أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مج2 تر: صالح سعداوي، مركز الأبحاث التاريخ والفنون والثقافي الإسلامية، استانبول (IRCICA) 1999، ص 58، ص 219.

*) لقد أذهل الجيش العثماني السفير النمساوي"بوشبيك"(Busbecq) لما زار استانبول عام 1554م ومما قاله: «...الدولة العثمانية إمبراطورية عظيمة قوية...تحشد جيوشًا جرارة تسودها روح عسكرية عالية،

دولة دينيّة، ويتضح ذلك من خلال احترامها للدين الإسلامي وتطبيق الشريعة تطبيقا صارمًا، ويسندنا في هذه الميزة اهتمام الدولة بالحج. وتتجلى هذه الميزة في الاهتمام بالمساجد، بل وحتّى الكنائس، وبالشّعائر الدّينيّة.كما أنّ التصوف يعتبر -في نظرنا- أكبر دلالة على النزعة الدينية للدولة وهذا ما تعكسه الطرق الصوفية** المنتشرة خاصة في الأناضول. كما يتضح كذلك من تسمية القسطنطينية بإسلام بول (أي = مدينة الإسلام)، بالإضافة إلى الألقاب الدينية التي تلقّب بها السلاطين، وتسمّوا بها؛ مثل: الغازي، والفاتح، وخادم الحرمين[2].

دولة ذات طابع عالمي: أي أنها منذ نشوؤها كإمارة بالأناضول لم تتوقف عن التمدد التوسع في جميع الاتجاهات حتى بلغت قلب أوربا غربا وبلاد القرم (Crémé) شمالا ووصلت إلى أقصى شرق الشرق الأدنى شرقا وبلغت عدن (Aden) ومضيق هرمز جنوبا، وبهذا التوسع تربعت على ثلاثة قارات.

كما أن من خلال هذا التمدد الجغرافي ضمت سلالات وفصائل بشرية متنوعة، وأديان مختلفة ولغات شتّى وكأن العالم اختزل فيها. وبالتالي انطبق عليها: قول ألبير حوراني: **« الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية عالمية جامعية متماسكة...»**[3]. و من مميزاتها أيضا: الحكم المطلق وهو السائد آنذاك في معظم أرجاء العالم حتى أن أحد ملوك*أوربا قال: **"أنا الدولة" «L'Etat c'est moi»**، وإذا ما استعملنا المقارنة، فإننا نجد سلاطين الدولة العثمانية على الأقل تقيدوا بأحكام الشرع الإسلامي في سياساتهم[38].

وأفرادها مدربون على الحرب يتحلون= =بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ ». (انظر: عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، مكتبة الأنجلو مصرية ،(د.ط)،2013 ،ص 57، 63).

) عبد العزيز الشنّاوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 1 2013، ص 85.

**) من الطرق الصوفية المنتشرة: النقشبندية، المولوية، البكتاشية، الرفاعية، الخلوتية، الكازرونية (انظر:الشناوي، المرجع، نفسه،ص 62،63،67 وما بعدها

2) الشناوي، نفسه ص 52 وما بعدها.

3)الشناوي، نفسه ، ج1، ص 85. (وأنظر: A. Hourani, The Ottoman Background of the modern Middle East, 1970, P:90.

*)هو: الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (1643م-1715م).

[38]) الشناوي، المرجع السّابق ص 98.

-دولة طبقية: وتتمثل في مكونات المجتمع العثماني المتكون من عدة أخلاط، لكن ترتيبهم الاجتماعي ليس على مستوى واحد؛ إذ نجد طبقة العبيد (القولار) وهم بدورهم مقسمين إلى فئات، وطبقة الأحرار[39].

- **أما الميزة الأخيرة** وهي ميزة الإخضاع، بالرغم من أن نظام الإقطاع في هذه الفترة من الدراسة كان معلومًا ومنتشرًا وبخاصة بأوربا، إلاّ أن الدولة العثمانية قد مارسته بطريقة وأسلوب خاصين وهما:

حيث يمنح السلطان قطعة أرض للفارس Feudal Spahis"[**]".الإقطاع الحربي وهو خاص بفئة الفرسان عوضا" مرتب نقدي مقابل مساهمته في الحروب التي تخوضها الدولة، أما النوع الثاني من الإقطاع ويسمّى الالتزام (Lezma=obligation, Impôt payé par les populations sahariennes sur les palmiers, les Ksours, d'après la richesse en bestiaux et chameaux pour les tribus) [***].

وتتمثل في تسليم الدولة العثمانية إلى شخص أو أشخاص أمر جباية الضرائب من أصحاب الأراضي لمدة زمنية محددة، بعدما يدفع هذا الالتزام (المبلغ المقرر جبايته) إلى الدولة مسبّقًا[40].

-) سادسا: مميّزات القرن (16)م.

يعتبر القرن السادس عشر للميلاد عصرا ذهبيا بامتياز؛ وذلك نظرا لما بلغته الدولة العثمانية من تطور وقوة على جميع الأصعدة: الاقتصادية، والثقافية، ناهيك عن الميدان العسكري، والسياسي، وما تمتعت به من حضور ومكانة على المستوى الخارجي، حتّى أضحت سيدة العالم، وهذا ما يعكسه قول السلطان سليمان المشرع في أحد خطاباته: **« أنا عبد الله وسلطان هذا العالم، ورأس ملّة المسلمين...»**[41]وما شهد به بابا روما "بيوس الخامس"،

---

[39]) نفسه، ص 10.

[**])Spahis أي السباهية: و هي كلمة تركية من أصل فارسي ومعناها: الفارس وجمعها في اللغة التركية سباهيان.

[***]) لقد كان هذا النظام الضّريبي مطبّقا على عرش الخضران ببلدية عين النّاقة (مسقط رأسي) ويسمّى عند العامة "اللزمة" وقد حدّثني عنها جدّي لأبي(محمّد بلحاج)، (1898م-1995م) أنظر:

Annie Rey Goldzeiguer, Royaume arabe La politique algérienne de Napoléon III;(1861-1870), éd,(I.A.I.G.), Alger, 2008,p 786

[40]) الشناوي، المرجع السابق، ج1، ص، 115، ص 125.

[41]) إنالجيك مرجع سابق، ص، 57. نقلا عن: M.Guboglu, Paliographia si diplomatica, Turco-Oxmana, Bucarest, 1958, P 167, Facsimile, N° 7.

في رسالته إلى فليب ابن شال كان.كما تميز القرن السادس عشر الميلادي بعديد الأحداث الهامة والمؤثرة، مما جعله قرنا مميزا ومنعطفا في المسار التّاريخي للدّولة العثمانيّة، وحتّى للعالم عموما وهذا دون التّقليل من أهميّة الأحداث التي وقعت قبله أو بعده، ولكن على الأقل جعلته قرنا مفصليا في كثير من المسارات، وخاصة مسار تاريخ الدولة العثمانية. ومن بين بعض مميزاته نذكر:

-كونه أحد القرون الكلاسيكية وكذلك الفترة الواقعة بين بداية عهدة السلطان سليم الأول(1512م) ونهاية عهدة السلطان محمد الثالث (1603م) تعتبر فترة ذهبية في السياسة والأدب.

-عرف عقد أول اتفاقيات الامتياز بين الدولة العثمانية ومملكة فرنسا(1535م)

-بدأ النشاط الصفوي مع مطلعه المتمثّل في نشر المذهب الشّيعي بين الأتراك في آسيا الوسطى والأجزاء الشرقية من الدولة العثمانية بمنطقة الأناضول.

-خلال هذا القرن بلغت فيه الإمبراطورية أوج تطورها وقوتها؛ حتى أصبحت القوة الأولى في العالم الإسلامي، وبسطت نفوذها على بلاد المشرق العربي ومعظم مغربه.

-بلغ تأثير النسّاء*(الحريم) على بعض السّلاطين والتدخل في توجيه سياساتهم، إلى حد أن الإيطاليات والصقليات كن يعرضن أنفسهن للبيع، للدخول إلى حريم السلطان وإثارة الدسائس[42].

- الصراع المحتدم في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط بين القوات المسيحية والمسلمة[43].
- زوال الدولة المملوكية وإلحاق ممتلكاتها بدولة آل عثمان بعد معركة الريدانية بمصر عام 1517م.
- انتقال الخلافة الإسلامية جغرافيا من القاهرة إلى إستانبول وزمنّيا ابتداء من سنة 1517م من آخر الخلفاء العبّاسيّين (المتوكل) إلى السلطان العثماني سليم الأول وعلى إثر ذلك أصبحت الدولة العثمانية تشرف على الأماكن المقدسة **مكة** والمدينة والقدس -ظهور الحركة اللّوثرية بأوروبا كمذهب ديني جديد والتي كانت شرارة الصراع الديني بها عن طريق مارتن لوثر (1483-1546م وسببا في إضعافها أمام الدولة العثمانية بالإضافة إلى بروز مصلحين دينيين آخرين أمثال: زونجلي (1484م-1531م) وجون كالفن (1509م-1564م)[44].

---

*) ومن هنّ:"بافا" الإيطالية التي كانت تُدخل إلى الحريم بحجّة بيع الحلي و لكن لنقل الأخبار إلى سفير البندقية. (وللمزيد انظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2004 ص49)

42) نفسه، ص49.

43) يوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 2011، ص44.

44) نفسه ، ص ص 111، 112.

- تدفق كميات كبيرة من الفضة من العالم الجديد (أمريكا) على العالم القديم ومنه أوروبا والدولة العثمانية بالإضافة إلى تنوع العملة المتداولة بأرجاء الإمبراطورية مع اختلافها من إقليم لأخر[45].
- انتقال محاكم التفتيش من سلطة البابا لتظهر بإسبانيا وتحت إشرافها وما نتج عنها من أضرار لحقت بمسلمي ويهود الأندلس[46]، وهو ما ساهم في تأجيج الصراع العثماني الإسباني.
- بداية التفوق والبروز الفرنسي في قارة أوربا على غرار بعض الدول الأوربية الأخرى مثل بولندا[47].
- اشتداد الصراع العثماني الأوربي بزعامة إسبانيا على حوض البحر المتوسط.
- اكتشاف الطريق البحري الجديد عبر رأس الرجاء الصالح (رأس العواصف) من قبل البرتغاليين وصراعهم مع العثمانيين بالبحر الأحمر وشرق إفريقيا.
- تدفق اليهود على أراضي الدولة العثمانية وما تسببوا فيه من انهيار العملة العثمانية.

1- تميّز هذا القرن بأعظم سلطانين -حسب تقديرنا- وهما: السلطان سليم الأول والسلطان سليمان المشرع.

2- تحوّل بوصلة توسع العثمانيين من أوروبا غربا إلى المشرق العربي.

3- بناء أسطول بحري قوي وفرض السيّادة العثمانية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط و على البحر الأحمر والبحر الأسود.

4- اشتداد الصِّراع العثماني البرتغالي، وتجسّد ذلك في صدامات بين أسطوليهما.

5- انتقال الخلافة الإسلامية من المماليك إلى آل عثمان وانتقل معها مقرّها من القاهرة إلى القسطنطينية .

6- بلوغ الصّراع الإسباني الفرنسي ذروته إلى درجة استعانة فرنسا بالعثمانيّين ضد اسبانيا. والشّاهد في ذلك تدخُّل الأسطول الجزائري تحت قيادة خير الدّين بربروس.

7- عقد أول اتفاقية امتياز بين الدّولة العثمانية و مملكة فرنسا سنة 1535م.

-سابعا: لمحة عن الحركات المناوئة خلال العصر الإسلامي.

من الصعوبة بمكان أن نحيط بموضوع الحركات المناوئة عبر التاريخ، ولكن فقط أردنا أن نشير إلى أن هذا الموضوع مساير للإنسان وملازم له، فمنذ وجود هابيل وقابيل وجدت المناوأة بما يشبه التدافع بين البشر. ومهما اختلفت مصطلحات ومفاهيم وأسباب هذه الظاهرة، فإنها لازمت الأجيال المتعاقبة إلى اليوم؛ سواء على مستوى الجماعات الصغيرة أو الجماعات الكبيرة. وعلى غرار تاريخ الشعوب والأمم عرف التاريخ الإسلامي

45) إنالجيك، التاريخ الاقتصادي... مج2، مرجع سابق، ص 740.

46) يوجين، المرجع السابق ص118.

47) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، تعريب بشير السباعي، ج1 دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت) ص 233.

الحركات المناوئة وأولها الحركة التي قام بها عبهلة* بن كعب بن عوف العنسي المذحجي سنة 11هـ/632م ضد الرسول محمد (ص) بادّعائه النبوّة[48] ثم تلتها حركات عصيان أخرى وما أكثرها عبر أحقاب التاريخ الإسلامي المتتالية فخلال العهد الراشدي ظهرت حركة سجّاح بنت الحارث سويد التميمية بالجزيرة العربية في عهد أبي بكر الصدّيق (ض)، وعلى إثر مقتل عثمان بن عفان(ض)، قامت حركة معارضة ضد الخليفة الرّاشدي الرّابع "عليّ "كرّم اللّه وجهه، والتي اُصْطُلِح عليها بالفتنة الكبرى كما ظهرت في العهد الأموي (41ه/ـــ132هـــ) ثمانية حركات وأشهرها، وأشرسها حركة أنصار آل البيت (الشيعيّة). أما العصر العباسي (132ه/656ه) فقد عرف هو كذلك ظاهرة المناوأة، في الأرياف والمدن من قبل العوام، والصعاليك، و المهمّشين. أما العصر الأيوبي فما إن تم عهد صلاح الدين الأيوبي حتّى انبرى المعارضون لخلفائه من بعده، بحجة ترهُّل السلطة في التّصدّي للوجود الصليبي بالشّام. وهكذا استمرت الحركات المناوئة في الوجود والظهور إلى غاية العصر المملوكي، الذي عرف هو بدوره حركة مناوئة، قادها الأعراب بالتعاون مع العوام ضد سلاطين المماليك. وقد عرف تنظيمهم ببلاد الشام باسم "تنظيم الزُعّار". وقد أفاض في هذا الموضوع محمود إسماعيل في كتابه " المهمّشون في التّاريخ الإسلامي".

وبعد حلول العهد العثماني، برزت العديد من الحركات المناوئة والمعارضة، سواء بالمناطق التي انضوت تحت لواء الدّولة العثمانية، خاصة بالمشرق العربي، أو حتّى بالأناضول مثل: ثورة "بابا إسحاق" والمعروف بـــــــ"بابا رسول الله" التي ظهرت خلال القرن 13م، و ثورة الشيخ بدر الدين، والتي أخمدت عام 1416م[49]. وما دامت حدود البحث محددة زمانا ومكانا، فإنّنا سنلتزم بتلك الحدود الزّمنية (1512م/1566م) والمكانية المتمثلة في بلاد المشرق العربي، وهذا ما سنتناوله بالدراسة من خلال الفصول اللاّحقة، لكن قبل ذلك كلّه حسبُنا أنّنا قدّمنا ومضة ولو وجيزة عن ظاهرة الحركات المناوئة خلال العصر الإسلامي.

*) عبهلة: كاهن كان ينظّم أسجاعا يسبي بها قلوب من حوله وقد آزرته قبيلته الصنعانية باليمن وأخرجوا عامل الرسول (ص) منها (أنظر عبد الغفار مرجع سابق، ص ص 38، 39).

48) عبد الغفار علاء الدين، مرجع سابق، ص 38.

49عبد الغفار، مرجع سّابق.

الفصل الأوّل

الوضع العام في بلاد المشرق، قبيل التّواجد العثماني.

- تمهيد:

- المبحث الأول: الأوضاع في بلاد الشام ومصر.

- المبحث الثّاني: الأوضاع في الحجاز واليمن.

- المبحث الثّالث: الأوضاع في العراق والخليج (الأحساء).

تمهيد:

قبل التطرق إلى الوضع العام في منطقة المشرق العربي لابد من تقديم مختصرا عن مصطلح الشّرق وتحديده.

فمصطلح الشرق من حيث تاريخ استعماله بدأ يستعمل من طرف الغزاة الغربيين (التجار) من فرنسيين وهولنديين وأسبان وبرتغاليين وانجليز...حيث بدؤوا يطلقون هذا اللفظ في أواخر القرن الـــ 15م لما كانوا يبحثون عن المواد الأولية وعن الأسواق الخارجية لمنتجاتهم، وقد صادف ذلك وقوع البلاد العربية في نطاق هذا التحديد الجغرافي المفهوم من مصطلح الشرق (L'Orient). وقد قسّموا الشرق كله إلى شرق أقصى وشرق أوسط وشرق أدنى (Proche-Orient) وهذا الأخير يضّم الدول العربية الواقعة في الجزء الآسيوي تضاف إليه مصر والسودان الواقعتان بإفريقيا.

أما عن الصلات بين الشرق والغرب فإنها لم تنقطع منذ نشأة الحضارات القديمة سواء سلما أو حربا حيث كان هناك تبادل ثقافي وتجاري بين الفينيقيين وسكان حوض البحر الأبيض المتوسط وبين الصّينيين واليونانيين.كما كان لمحاولات الهيمنة والاجتياح دورا كبيرا في التواصل بين الغرب والشرق ومنها: اجتياح "اسكندر المقدوني" بلاد الشام والعراق وحتى بلاد فارس واجتياح الرومان شمال إفريقيا، هذا عن الاتجاه من الغرب إلى الشرق. والعكس كذلك الذي يتمثل في التوسع العثماني من آسيا الصغرى باتجاه الغرب (بالجنوب الشرقي لأوروبا)[1]، وقبله انتشار الإسلام من شبه جزيرة العرب نحو بلاد الشّام وشمال إفريقيا، ثمّ إلى شبه جزيرة الأندلس عام (711م) وبعدها نحو جنوب إيطاليا.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن بلاد العرب مشرقا ومغربا خلال القرن الخامس عشر كانت تعيش وضعا متميزا بالضعف والفتور والقهقرى، بل وحتّى الفوضى؛ نتيجة الصراعات والاعتداءات الخارجية.

وكان العرب عموما وعرب بلاد المشرق على وجه الخصوص يعيشون ذكريات هزائمهم السابقة، أمام المغول والتتار، وسقوط عواصمهم الواحدة تلو الأخرى (دمشق، وبغداد وحلب)*، ويشاهدون الأوربيين

---

[1]) محمود المقداد، «تاريخ الدراسات في فرنسا»، مجلة عالم المعرفة عدد ،167 نوفمبر 1992، ص 22 .

*) دمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة العباسيين وحلب عاصمة الحمدانيين. (أنظر حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزّهراء للإعلام، بيروت، 1989م.

يسيطرون على الطرق التجارية ويغلقون المنافذ البحرية الخارجية، وأمام هذه الأوضاع أصبحوا ضعافا لا حول ولا قوة لهم، وقد تكشّف ضعفهم أمام السفن البرتغالية الحربية بالمشرق، والسفن الإسبانية بالمغرب ، وبات المسلمون من نكسة إلى أخرى باستثناء ما حقّقه محمد الفاتح سنة 1453م.*

خلال هذا القرن (15م) تشضّى عرب المشرق بتشضّي رقعتهم الجغرافية، ووهنت قيّاداتهم. فاليمن وعدن وحضرموت وباقي المشيخات كمسقط والبحرين وعمان تفتقر إلى تنظيم سياسي يوحّدها ويجمع قواها ويلملم شتاتها. أمّا مصر المماليك وبشامها التي كانت آنذاك تعتبر الدولة العربية الأقوى بين العرب وبالخصوص عسكريا، فإنّها أمست أقرب ما تكون للأفول، وأمّا العراق فحينها كان يعيش بين مد التشيّع وجزر التّسنّن حتى عمّه الوهن. وبدأت الشعوب تحسّ بذلك الضعف، وتستشعر الأخطار الخارجية؛ مما حدا بها إلى الاستنجاد بالقوّة العثمانية الناشئة[2] وقتئذ .

لقد انعكست الأوضاع السياسية المضطربة بالمشرق العربي على الأحوال الاقتصادية فتدهورت الزراعة، وقل الإنتاج وساءت أحوال الفلاحين لانعدام الأمن والاستقرار وانتشرت الأمراض بين الفلاحين، وتميز الإنتاج بالتذبذب لاعتماد الزراعة على الأمطار. أما الحكّام فانصب اهتمامهم على الملكية العقارية الزراعية، لضمان تموين ثابت للجنود، حتى أمسى النظام الاقتصادي نظاما إقطاعيا .

أما الصناعة فقد كانت بسيطة بساطة أهلها- ووفق عصرها - وهي يدوية استهلاكية يُعتمد في توزيعها بدرجة كبيرة على الأسواق المحلية في تسويق منتجاتها، فخلال تلك الفترة عرفت المنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية والكتانية واستخراج الزيوت النباتية وصناعة الأواني النحاسية والطينية والحلي، بالإضافة إلى صناعة الورق والسكر وغيرها نشاطا كبيرا .

أما التجارة، فكانت نشيطة أيام المماليك، إلاّ أن اكتشاف رأس الرجاء الصّالح عام (1497م) قلّل من حيويتها، ومع ذلك فقد استمرت ولو على استحياء، إلى نهاية القرن الخامس عشرٍ، إذ كان المماليك وسطاء تجاريّين بين شرق أوروبا و جنوب شرق آسيا . كما شيدوا الفنادق والمؤسسات التجارية لتوفير الراحة

---

*) ويعني به فتح القسطنطينية الذي بشّر به الرسول محمد (ص) بقوله:" **لَتُفتحنّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**" (حديث، شريف) انظر مجلة "حراء" مجلة علمية فكرية ثقافية، مجلة دورية عالمية استانبول.

[2]) أحمد عزّت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت (د.ط)، (د.ت) ص 20 ، ص 23.

والأمان للتجار[3]. لكن بعد هذا الاكتشاف تحولت التجارة العالمية عن المشرق العربي كوسيط بين أوربا والهند، وأصبح البرتغاليون هم الوسطاء والعملاء بدل عرب المشرق، وبذلك ركد الاقتصاد بالمنطقة وكسدت التجارة بها[4]، وقلّت الحركة التّجاريّة عبر سبلها الكبرى المعلومة وهي:

- الطريق البرّي العابر من الصين إلى بيزنطة عبر العراق والشام، والمعروفة بطريق الحرير.
- الطريق البحري الذي يُمُّر عبر المحيط الهندي، فالخليج العربي/الفارسي، ثم البصرة وبغداد فالشّام ثم البحر المتوسط.[5]
- الطريق البحري من المحيط الهندي والبحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط عبر مرفأ السويس بالبحر الأحمر والإسكندرية بالبحر الأبيض المتوسط عبر القاهرة. وهكذا كانت التجارة تمر عبر على المشرق العربي، انطلاقا من أقصى الشرق إلى أوروبا والعكس كذالك، وبذلك تدر على البلاد العربية أرباحا كبيرة، إلى أن صار الدينار العربي، أساسا للتعامل التجاري العالمي. ومن أهم المدن والموانئ العربية التي كان لها باعا في التجارة نذكر: حلب، ودمشق وبغداد والقاهرة.كما نذكر بعض الموانئ منها: ميناء الإسكندرية، وميناء السويس.كما أنّ عائدات الضرائب على البضائع العابرة، وما أحدثته من انتعاش وبحبوحة مالية، مكّنت العرب من الإنفاق على الإدارة والجيش والعلماء، فكان ذلك ملفتا لانتباه الأوربيين.
- لما شعر الأوربيون بأهمية المشرق العربي في ميدان التجارة ومدنه التجارية، تحرّكت لديهم غريزة السيطرة والاعتداء. فقام الأسبان والبرتغاليون بمحاولات عديدة بمحاصرته للسيطرة عليه، ومن ثمة الوصول إلى مصادر السلع الشرقية: كتوابل وبهارات الصين والهند عن طريق مسالك أخرى، وتجنب عبور البلاد العربية[6] .

أمّا من النّاحيّة الاجتماعيّة، فإنّ المجتمع كان خليطا -ولا يزال-من العرب والأتراك والأكراد والأقباط، وغيرهم، وهذا ما أشرنا إليه في الفصل التّمهيدي. غير أن الأحوال الاجتماعية ساءت، بما فيها الحالة

---

[3]) المرجع نفسه، ص13.

[4]) فيليب حتّي وآخرون، تاريخ العرب، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط13، 2009، ص 825.

[5]) أحمد عزت ،مرجع سابق، ص 13.

[6]) عود محمد عبد الله وإبراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان (د،ط)، 1989م، ص13.

الصحّيّة، والحال كذلك بالنسبة للأحوال الاقتصاديّة، ناهيك عن الوضع الثّقافي الذي عرف تراجعا ملفتا للنظر؛ خاصّة بعد كارثة حرق مكتبة بغداد. أمّا ساسة المجتمع وقادته فقد ركنوا إلى اللذّات والملذّات داخل القصور. كما برز الصراع الطائفي (السنّي-الشيعي)، بين فئات المجتمع. وصار المجتمع يتخبط في الفوضى وسوء الأخلاق والبدع؛ ورغم ذلك فلابد من القول بأنّه كان للعلماء مكانة محترمة، كما كانوا محافظين على قداسة العلم.[7]

المبحث الأول: أوضاع بلاد الشام ومصر قبيل التواجد العثماني.

أولاً: في الشّام:

لم تكن الأوضاع خلال الفترة التي سبقت التواجد العثماني بالشام مستقرة، ولا هادئة. فقد تميزت بالاضطرابات الداخلية، وقد ارتأينا التعرض لتلك الأوضاع ولو بشكل مقتضب محاولين الوقوف على مختلف الأوضاع في حدود ما يسمح به موضوع البحث. وقبل البدء في استعراض أوضاع بلاد الشام السائدة قبيل التواجد العثماني، ارتأينا أن نحدد ونبيّن موقعها وهذا نظرا لوجود لبس لدى البعض في مدلول المصطلح الجغرافي لبلاد الشام.

فالشام جغرافيا هو المنطقة المحصورة بين جبال الأناضول شمالا وشمال صحراء نجد جنوبا، و بين البحر الأبيض المتوسط غربا ونهر الفرات وجزيرة ابن عمر شرقا. أما سياسيا فهي المنطقة التي تضم كلا من:سوريا ولبنان وفلسطين والأردن (حاليا). كما يطلق مصطلح الشام على مدينة دمشق كناية على المناطق المجاورة لها؛ بينما عرفها التجار الأوربيون باسم: ليفانت (Levant)[8].

1- وصف الشام .

إنّ إعطاء وصف كاف وشامل عن حالة بلاد الشام، قبل التواجد العثماني، يحتاج إلى دراسة متخصّصة، وإلى مساحة كبيرة من هذا البحث، لكن من خلال ما سنذكره عن أوضاع الشام وأوصاف بعض المدن الرئيسية نكون قد قربنا الصورة إلى المخيّلة ولو جزئيا.

---

[7]) عودة محمد ، المرجع نفسه، ص 41 .

[8]) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (1516م-1566م)، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط1، 2008، ص 16.

و إن أقرب وصف يقترب من الواقع-في رأينا-هو ما نقله المعاصرون لفترة الدّراسة، خاصّة الرّحّالة الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها. ومن الذين كتبوا عن بلاد الشام و وصفوها و سجلوا لنا ملاحظاتهم وما شاهدوه في بعض المدن التي زاروها، الرّحاله:"لودوفيكو دي فارتيما"(Lodovico di Varthema) الذي زار المشرق العربي عام 1503م، وإننا لنرى في تقديم شيء من أوصاف بعض المدن، إنما هو استحضار لمشاهدات هذا الرحالة الذي عاش بالمنطقة وعايش أهلها خلال مطلع القرن السادس عشر. فلقد وصف مدينة بيروت وقال عنها: « ... مدينة مزدحمة جدا بالمسلمين، وتزخر بالبضائع المختلفة ». ووصف مدينة حماة وقال عنها: « أهلها يزرعون القطن والفواكه »[9]. أما مدينة حلب فقال عنها: « وجدتها مدينة جميلة وتخضع لسلطان القاهرة المملوكية أيضا وسكانها مسلمون، وهي سوق لبضائع تركيا وسوريا معا، وهي ممر عظيم للبضائع الفارسية خاصة ».كما ذكر مدينة دمشق، والتي أقام فيها بضعة أشهر لتعلم اللغة العربية، فقال عنها: « ليس من الممكن وصف جمال دمشق وتميزها، فهي مدينة تابعة لسلطان القاهرة، وهي عامرة بالسكان وثرية، فيها وفرة هائلة في الغلال واللحوم، والمنطقة كلها زاخرة بالفاكهة، التي لم أر لها مثيلا من قبل... »[10].

فمن خلال ملاحظات هذا الرحالة، يمكننا تخيل الحالة التي كانت عليها مدن بلاد الشام، من حيث النشاط الاقتصادي، وأنواع البضائع، والمعاملات التجارية، مع الشعوب المجاورة مع بلاد فارس وبلاد الروم، كما يمكننا تصور رخاء العيش الذي تدل عليه وفرة الغلال.

2- الواقع الاجتماعي:

حتى لا نغوص كثيرا في الوضع الاجتماعي، خلال العهد المملوكي الطويل(1250ه/1517م)، وحسبنا الاكتفاء بالفترة القريبة من العهد العثماني بالشام أي: أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، لنبرز المظهر الاجتماعي السائد آنئذٍ، لنقول: حسب رأي العديد من المؤرّخين أمثال: ابن إياس المعاصر وأبو المحاسن بن تغري بردي (1410م -1470م)؛ بأنّ الوضع الاجتماعي تميّز بالانحلال الأخلاقي، وانتشار الفساد، وسوء المعاملات، والظلم، وغياب العدالة، وانتشار الرشوة، وانخفاض الهمم، ومال الناس إلى الاحتيال، والتزلف، وتحليل المحرمات، ونهب أموال الخزينة، والاعتداء على الأوقاف وتعاطي الخمور والحشيش

[9]) حجر محمود جمال، الرحالة الغربيون في المشرق الإسلامي في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2012، ص 21.

[10]) حجر محمود، مرجع سابق، ص 22.

في كل مكان، ومما زاد الأمر تدهورا هو تخلف الحكام عن أدوارهم، وفقدان سلطتهم وضياع نفوذهم الاجتماعي، وهيبتهم وتأثيرهم على المجتمع؛ وهو ما أدّى إلى كرههم من قبل الشعب. وأصبح المسلمون مشرقا ومغربا يشعرون بانطواء الإسلام، وضياعهم، وكأنّهم بلا خليفة، أو حكّام. أما المتواجدون بمصر فهم أسماء بلا مسميات، على حدّ تعبير أرنولد توينبي."

كما انقسم المجتمع المصري إلى: أعيان المماليك يعيشون البذخ والأبهة الصارخَيْن، وغالبية الشعب من الفقراء المتسولين والمقعدين ومتعاطي المخدرات و الكسحاء والبغايا. وقد وصف حسن الوزان (صاحب كتاب؛ وصف إفريقية) الوضع الاجتماعي في مصر بقوله: «كان الناس الذي يتمتعون بسمعة طيبة ومترلة محترمة يخجلون من طلب العمل في بلاط الحكام، بل يرفضون تزويج بناتهم لأهل البلاط»[1]. وقد بلغت درجة الاستياء الشعبي عمّت بلاد الشام آنذاك حدا كبيرا من أولئك الحكام الفاسدين فتفجرت مشاعر الحنين إلى خليفة إسلامي حقيقي يقيم دولة العدل وفي ظروف هذا الانحطاط العام أصبحت التربة صالحة لانتشار التصوف الذي أصبح إيمانا ساذجا والإيمان بالمعجزات. وهنا بدأت أنظار المسلمين تتجه تدريجيا نحو العثمانيين ودولتهم والإعجاب بهم، حيث بلغت سمعتهم أوجها مع مطلع القرن السادس عشر، وأصبحوا أمل المشارقة والمغاربة على حد سواء، في الخلاص من الضّيم المحلّي والخطر الخارجي، بل حتى الغرب (الأوربيين) على حد تعبير "أغاتا تغيل كريمسكي" حيث أصبح بعضهم لا يخش الفتوحات العثمانية.

3- الواقع السياسي والأمني:

لم تكن الفترة التي سبقت التواجد العثماني في الشام*. ومصر فترة هادئة ومستقرة، فقد كانت المنطقة تعيش حراكا واضطرابا داخليين، ظهرا على جميع الأصعدة المختلفة، وقد ارتأينا التعرض إلى تلك الأوضاع ولو بشكل مقتضب، وذلك لما له من صلة بشكل أو بآخر مع التواجد العثماني بالمنطقة.

لقد عاشت الشام قبيل التواجد العثماني مع مطلع السادس عشر أوضاعا غير مستقرة وذلك نظرا لجملة من الظروف المؤثرة، فمع بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي وقعت فتنة وصراع كبيران

---

1) الحسن بن محمّد الوزّان الفاسي الشّهير بـــ"ليون الإفريقي"، وصف إفريقيا، ج 2، تر، محمّد حجّي و محمّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

بالشام، بين نائب السلطان "قانصوه البرج وهو نائب جديد وسكان دمشق وذلك بسبب ما اتخذه من قرار** يقضي بتحصيل الضرائب من الطرفين، وبعد تدخل العقلاء من أهل الشام وقدوم رسول من قبل السلطان المملوكي تم إبطال ما قرّره النائب قانصوه البرج من ضرائب على سكان دمشق. غير أن السلطان المملوكي بعدما عرف حقيقة الموضوع اقترح تخفيض المبلغ من مائة ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار، فرفض السكان، فخفّضه إلى عشرين ألف دينار، فوافق الأكابر على ذلك، وفق الجميع على أن تكون كالتالي[11]: ثمانية آلاف على الحارات وعلى داخل المدينة كذلك، وأربعة آلاف على أهل الذمة.*ولم توافق العامة على ذلك، ولذلك لم يساهم السكان بأي مبلغ[12]. وهكذا باتت الكراهية والتذمر يميزان مشاعر السكان الشاميين تجاه السلطة المحلية الممثلة لسلطة الباب العالي.

وعموما فإن الوضع في ظل المماليك ببلاد الشام كان مترديا، وذلك بما تميز به من سياسة المصادرات، وفرض الضرائب غير الشرعية، وغلاء الأسعار، وغش النقود، والصراعات الداخلية، مع سطوة المماليك وبالخصوص منهم مماليك الجلبان**، وزاد على ذلك انتشار الأوبئة والأمراض والكوارث الأخرى:كالحرائق، و الطواعين (جمع طاعون) التي أفنت العديد من السكان[13]. فإذا كان هذا ما ذكره "أنطوان خليل ضومط" نقلا عن "يوسف ابن تغري بردي" فإنّ ذلك لا يعني خلو العهد المملوكي عموما وما قبيل التواجد العثماني خصوصا من المحاسن .

**) يتمثل القرار في فرض الأموال على الحارات وسماها ضيافة له، ولما رفضها السكان، صادر النائب أسلحتهم وفرض على أهل دمشق جمع مبلغ (30 ألف دينار) مع النهب والتدمير.

[11]) ابن الحمصي أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، ج2، تحقيق: عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، ط1، 2000، ص 411.

*) أهل الذمة هم أهل الكتاب من النصارى واليهود. الذين يعيشون تحت لواء الدّولة الإسلامية وحمايتها (للاستزادة أنظر الشهرستاني، الملل والنحل،ج2، تح، عبد القادر الفاضلي، ص 173.

[12]) ابن الحمصي، المرجع السابق، ص145.

**) مماليك الجلبان هم: فئة من المماليك السلطانية المعروفين بالجلبان لأن القحة بلغت بهم نهب البيوت بما فيها بيوت الوزير ونظار الجيش، إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة، وقد غض السلاطين الطرف عنهم، خوفا منهم (انظر: أنطوان خليل ضومط، التأريخ في العصور الإسلامية الوسطى، دار الحداثة، بيروت، ط1، 2005، ص 240).

[13]) أنطوان خليل ضومط، التأريخ في العصور الإسلامية الوسطى، دار الحداثة، بيروت، ط1، 2005،ص ص 243، 245، 248، 249.

ولقد ترجم السكان المحليون حقدهم، وكراهيتهم تجاه المماليك حيث عمد الفلاحون وبطريقة ظاهرة ومباشرة على إبراز ذلك، وخرجت مناطق كثيرة بقراها عن طاعة السلطة، إلى درجة الحديث السلطان العثماني جهارا نهارا، بل ممارسة الولاء للدولة العثمانية علانية؛ وهو ما دعا الأمراء المحليون إلى التشكّي إلى السلطان "قانصُوه الغوري" وإبلاغه عن الأوضاع السائدة و بخطورة الوضع. وهذا ما جاء في نص الرسالة التي أبلغوه بها عن الوضع المعيشي: **« أيها السلطان أرض حلب أفلتت من أيدينا وانتقلت إلى أيدي ابن عثمان (المقصود به سليم الأول) فاسمه يذكر هنا في خطبة (خطبتي) الجمعة وينقش على النقود »**[14].

إنّ الأمر لم يقتصر على الوسط السكاني فحسب، بل انتقل إلى صفوف الجيش، إلى درجة تراجع الانضباط وقل الحماس العسكري بين صفوف أفراده، وبصورة مخيفة، فتعالت الأصوات مطالبة بالأموال والمكافآت، على غرار ما طالب به مماليك القاهرة، وازداد هيجناهم، حتى خرجوا إلى الشوارع، وعاثوا فيها فسادا وانتقاما، بل واستهتارا. ويبدو أن السكان، وكذلك الجنود، قد لاحظوا تغيّرا في السياسة المملوكية، وبالتالي تغيرا في أوضاعهم، وهو ما جعلهم يخاطبون السلطان المملوكي قبل "معركة مرج دابق" بقولهم: « ليش ما تمشي تقل؟أي: لماذا لا تسير على طريقة الملوك السالفة (أي تقلّل من هذا الظلم)».كما ازدادت المشاكل انتشارا داخليا في أوساط المماليك، إلى درجة أن أصبحت المؤامرات الناجحة علامة من علامات البطولة، خاصة وأنهم هجروا الحروب منذ مدة، كما تميز المجتمع المملوكي بالتكتلات والتنافس، حتى أصبح السلطان يعتمد المماليك الجدد وإحداث التصادم بين التكتلات المملوكية لإضعافها.[15] إن هذه الحالة ستساهم في تسهيل التواجد العثماني بالمنطقة.

4-الواقع الاجتماعي:

لقد سجل الكثير من المؤرخين وقائع وأحداث بمنطقة الشام خلال بدايات القرن السادس عشر، وممّا دونوه في المجال الاجتماعي هو ظهور مرض الطاعون سنة 919هـ/1513م الذي ظهر خلال شهر رمضان، وتزايد بمدينة دمشق (Damascus=Damas) وكانت انطلاقته من بلاد الروم، ثم وصل الإسكندرية ثم

[14]) أسامة أبو نحل«جان بردي الغزالي المملوكي والدولة العثمانية، رؤية تاريخية جديدة»، **مجلة** الفسطاط التاريخية جامعة الأزهر، غزة، 2002.

[15]) المرجع السابق.

القاهرة ثم غزة والرملة* وبيت المقدس، ومنها إلى دمشق. ومن نتائجه وفاة الكثير من الأطفال وحتى من الأعيان، وقد قدر ما هلك به بحوالي خمسة وسبعون ألفا، وهذا غير الذين توفوا من العبيد، ومماليك نائب مصر والأمراء ومن الضواحي، فمن الصالحية وحدها توفي حوالي ثلاثة آلاف شخص[16]، وإنّ ما نستخلصه ممّا تقدم نتيجتان:

-الأولى: أن الأمراض المتنقلة كانت منذ القديم، وتنتشر بسبب تنقل الأشخاص والحالة التي ذكرها المؤرخ ابن الحمصي تدل على ذلك، كما تشير إلى وجود حركة تواصل وتبادل بين دولة المماليك وبلاد الرّوم على المستوى الاجتماعي.

-الثانية: إن انتشار الأمراض مثل الحب الفرنجي الصّعب مثلما يؤكّد ابن إيّاس يدل على عدم اكتراث السلطات المملوكية التي لم تقم بعملية الحجر الصحّي حماية للسكان و لم يقتصر الأمر على تدهور الأوضاع الداخلية فحسب، بل حتى الأوضاع الخارجية عرفت اضطرابات وتهديدات من قبل القوى الخارجية وخاصة من قبل الشاه إسماعيل الصوفي الذي هدّد المماليك بالزحف على مدينة حلب وقد تسبّب ذلك التهديد في فتنة كبيرة وهلع بين الناس لكنه تراجع بعساكره عن تهديده فهدأت النفوس[17].

إنّ اللّا أمن وكثرة الاضطرابات نتج عنهما انتشار الخوف، خاصة ما كان بسبب عربان الشام، ومن بينهم بني لام؛ إلى درجة توقف الحج الشامي مدة سبع سنوات كاملة !وحرم بذلك خلق كثير من أداء هذه الفريضة، وهذا الركن الخامس، من أركان الإسلام. و لم يستأنف الحج إلاّ بعد ما حضر أمراء العربان عند السلطان والأمير محمد بن ساعد والتزموا بأمن الحجاج وقافلتهم ذهابا وإيابا، وقد كُلِّفَ بذلك الأمير أصلان[18].

---

*) الرملة= تقع على بعد 40 كم شمال غربي القدس، بناها الأمويون في أواخر القرن الأول الهجري، سماها الخليفة الأموي سليمان بالرملة لكونها منشأة على منطقة رملية، أعيد بناؤها بعد زلزال عام 1033هـ ، جعلها "نابليون بونابرت" مركزا لقيادته سنة 1799.

[16])ابن الحمصي، مرجع سابق، ج3، ص 496.

[17]) محمّد بن أحمد بن إياس ،المختار من بدائع الزهور في وقائع الدّهور، (نسخة مصوّرة)، (د،ط)، (د،ت) ص 663.

[18]) ابن الحمصي، مرجع سابق، ج3 ، ص 486.

لقد اكتفى المؤرخ ابن الحمصي بسرد ما وقع، لكنه لم ينقل لنا كيف توصل الطرفان إلى الاتفاق، على استمرار الذهاب إلى الحج، وما هو المقابل لأمن قوافل الحجيج؟ لكن المؤكد أن عربان الشام كانوا من القوة الكافية ما يجعلهم يتفاوضون من مركز قوّة، مع السلطان المملوكي، ويسرحون عملية الحج بعد سبع سنوات كاملة !وهذا ما يدل على تدهور الوضع الأمني، وضعف السلطة السياسية.

5-الواقع الاقتصادي:

إذا كان الوضع السياسي والأمني قد عرفناه بالحالة التي ذكرناها، فإن الوضع الاقتصادي لم يكن بمنآ عن التدهور العام وأسبابه الداخلية والخارجية ،حيث عرفت بلاد الشام قبل التواجد العثماني بها ومع مطلع القرن الـــ 16م، تدهورا كبيرا في الزراعة فقل الإنتاج ، ومن أسباب ذلك: الاعتماد على السقي بمياه الأمطار القليلة وتدخل الدولة في الملكية العقارية الزراعية ، وذلك لضمان المحصول الأساسي والكافي لتموين الجنود، حتّى أصبح النظام إقطاعيا شكلا وطبيعة وتكوينا. فأمّا الحرف فهي يدوية ولكنها نشيطة محليا، وإن كانت متفاوتة في النشاط بين منطقة وأخرى، ورغم ذلك فإن الوضع الاقتصادي في بلاد الشام يتسم على العموم بالتدهور وذلك مرده إلى عاملين هامين وهما:

- **العامل الأول**: ويتمثل في الحروب البينية ومع القوى الأوربية المتنامية (اسبانيا والبرتغال)، وما ترتب عنها من خسائر وتعطيل للحركة الاقتصادية.
- العامل الثاني: ويتمثل في اكتشاف رأس الرجاء الصّالح من قبل البحّار البرتغالي فاسكو دا غاما (Vasco da Gama) سنة (903هـــ/1498م) الذي حوّل مرور السلع عن منطقة المشرق العربي وبالتالي حرمانها من نشاط تجاري عالمي كان بالأمس القريب مصدر ثروة وعمل ورخاء حينما كانت دولة المماليك وبلاد المشرق عموما وسيطا تجاريا ومعبرا للسلع بين أوربا وآسيا، وصار المشرق العربي منطقة عبور و ممرا عالميا، وذلك باحتوائه على ثلاثة طرق تجارية عالمية آنذاك وهي:
  - الطريق البري الرابط بين الصين وبيزنطة عبر بغداد والشام (طريق الحرير).
  - الطريق البحري الذي يمر عبر المحيط الهندي والخليج العربي ثم البصرة وبغداد، ودمشق وحلب فالبحر الأبيض المتوسط.
  - الطريق البحري الآخر عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر ،ثم البحر الأبيض المتوسط عبر القاهرة والإسكندرية وقد استفاد العرب من هذه الطّريق أيّما استفادة إلى أن تفطن الأوربيون إلى أهميتها

ومدى تأثيرها على اقتصادهم[19].كما سجّل المؤرّخون ومنهم ابن الحمصي تردّي الأوضاع الاقتصادية ومنها ارتفاع الأسعار خاصّة عام921ه\1515م فسجّل التّالي:

« -غرارة * القمح بدمشق بستّة وعشرين أشرفيّا ، وكَيْل الشعير بسبعين درهما، وكيل الحمص بتسعين درهما، ورطل الدقيق بلغ نحو ستة دراهم ورطل الأرز ثمانية دراهم ورطل السمن بلغ ثلاثين درهما والزيت باثنتي عشر درهم والجبن بخمسة عشر درهم وهكذا فقد غلت الأسعار بالبلاد عدا بلاد مصر»[20]. ومما زاد في تعميق ذلك التردي ما وقع من إتلاف المحاصيل الزراعية وخاصة الفساد الذي أحدثته كثرة الفئران.

وفي عام 918ه_1513 م كثر موت البقر وانتشر بالشام في كل من دمشق وحلب مما أدى إلى تفشي طاعون البقر، حتى أن من كثرة موته عجز النّاس على إيجاد ما يحرثون به[21]. ومما زاد في تدهور الأوضاع هو تحول المسار التجاري من قبل البرتغاليين عبر رأس الرجاء الصالح منذ عام 1497م حيث حُرمت بلاد الشام ومصر من عبور السلع بين الهند وأوروبا فكسدت التجارة وقلّ النشاط وأصاب بعض المدن كالإسكندرية وحلب وبيروت ودمشق ركودا اقتصاديّا كبيرا[22].

غير أننا نتساءل عن استثناء مصر من الغلاء الذي عم المنطقة ونحن نعلم أن مصر والشام تحت سلطة المماليك وأن التأثير الذي أحدثه تحول الطريق التجارية العالمية بين أوربا والهند والمتمثل في اكتشاف رأس الرجاء الصّالح (The good Hope)- وفي بعض المراجع ورد باسم "رأس العواصف" – حسب تسميّة البحّار "بارتملي دياز" والذي كان لاكتشافه تأثيرا اقتصاديا عامّا ولا يقتصر على بلاد الشام وحدها .

ويلخص لنا المؤرخ محمد كرد على الوضع العام بالشام في جملة من النقاط والتي يرى من خلالها أن بلاد الشام لم تسعد و لم تستقر منذ فتنة تيمور لنك (تيمور الأعرج)، إذ تميزت هذه المرحلة بكثرة التجاريد

---

[19]) عودة محمد عبد الله والخطيب إبراهيم يس: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان (د.ط)، 1989، ص 13 .

*) غرارة: هي وحدة كيل للحبوب بدمشق في العهد المملوكي تسع 12 كيلا أو 72 مدّا دمشقيّا ووزنها حوالي 204 كغ قمح وتصنع من صوف أو من شعر. أنظر ابن طولون: مفاكهة الخلان. ونحن نقول تصنع منهما الاثنين معا وهي معروفة كأداة حفظ الحبوب عند عرش الخضران بعين الناقة ضواحي بسكرة و (انظر: محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق بيروت، ط1، 1993، ص 405)

[20]) ابن الحمصي:مرجع سابق، ج 3 ، ص 516.

[21]) المرجع نفسه، ص477.

[22]) فليب حتي وآخرون: مرجع سابق، ص790.

خاصة على حسن أوزون (حسن الطويل) وشاه سوار وابن عثمان (يقصد به السلطان العثماني) بشمال المملكة وشرقها، كما انتشرت المجاعات والأوبئة وحتى الزلازل انتشرت الفوضى في مختلف أرجائها وساءت حالتها الاقتصادية والاجتماعية حتى أحس أكثر الناس بما اعترض الدولة من الضعف، وهذا ما دفع بهم إلى الاندفاع والتطلع إلى الدولة العثمانية؛ التي كانت في شبابها وقوتها[23].

وإذا كان هناك شيء ما يستنتج مما تقدم، فإن هذه الأوضاع هي التي ستكون مشجعة ومحركة لأولئك الذين رحبوا بالسلطان العثماني لما قدم إلى الشام وفتحوا له عقولهم وقلوبهم قبل أن يفتح بلادهم بسيفه.[24]

ثانياً: في مصر.

1- موقع مصر وأوضاعها:

قبل التطرق إلى الأوضاع العامة في مصر، نحرص على ذكر موقعها، وذلك نظرا لما له من أهمّية و منتأثر، فهي تقع بين قارتي آسيا وإفريقيا وتربط بين الشرق والغرب عبر البر وعبر البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، وتربط بين المشرق والمغرب العربيين، وأنها محطة قوافل الحجيج المغربية وأنها هبة النيل ومهد الحضارات وحلقة الوصل بين الشرق والعرب. هذا ما يمكن أن يقال عن مصر استراتيجيّا. ويكفي أن نذكّر بما أشار إليه ابن إياس عن مصر بأن أقل ما يقال عنها أنها بلد المحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد.[25] أمّا جغرافيا فيحددها ابن إياس نقلا عن أبي الصلت الأندلسي بقوله: « إن حد أرض مصر في الطّول مدينة برقة إلى عقبة إيله (من الغرب إلى الشرق) ومن مدينة أسوان من أعمال الصعيد إلى العريش[26] (من الجنوب إلى الشمال). أما سياسيا فمصر في العهد المملوكي هي الرقعة التي تشمل بلاد الشام والحجاز، ناهيك عن بلاد النيل والتي آل حكمها إلى مماليك[27] توران شاه بعد مقتله حيث تصدوا للمغول في واقعة "عين جالوت

---

[23] محمد كرد علي: خطط الشام، ج2، (د.ط)، (د.ت)، ص215.و(ابن إياس بدائع الزّهور في وقائع الدهور،ص 663).

[24] انظر الملحق (12 رسالة ابن علوان(ت.936هـ/1530م) إلى السلطان سليم الأول ص 180).

[25] ابن إياس محمد بن أحمد الحنفي المصري: المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، مكتبة الإسكندرية العامة (د.ط)، 1960 ، ص 50.

[26] ابن إياس المرجع نفسه، ص 5 وما بعدها.

[27] الاسكندري عمر وآخرون: تاريخ مصر إلى الفتح العثماني مع نبذة في أخبار الأمم التي اتصلت بمصر إلى ذلك العهد، مطبعة المعارف، مصر، (د.ط) 1920، ص ص 11، 230.

"(1260م) وظهور الشام من الصليبيين عام 1291م (موقعتي: حطين والمنصور)* وأعادوا الخلافة العباسية ورسخوا المذهب السني»**

ولقد عاشت مصر خلال آخر أيام الدولة المملوكية ومع بدايات القرن السادس عشر أوضاعا سياسية واجتماعية واقتصادية وحتى أخلاقية[28] غير مستقرة، فقد جاء وصفها في مقدمة قانون نامه مصر*** ما يلي:

((**وبينما كانت مداين وبلدان العرب أراضيها فائضة المراضي ومهبط الأنوار القلبية لله سبحانه، صارت وهي منبع عين حياة الإيمان، بيضاء جامدة بالكدر والغم، وفي شتات ظلمات ظلم وعدوان طائفة الجراكسة التي هي في شيطنة الأبالسة وتعرّي رعايا حمى المملكة من لباس العافية، وخلت مذارة معيشتهم من استراحة حبة حصاد معتبرة، وصار جميع وجود كل فلاح مهجور الفلاح، إصبعا سوداء بلهيب نار شعلة الجور، وتعالى دخان آهاته فجأة إلى عنان السماء، وتبدل العيش الهنيء لأهل كل قصبة إلى ضيق وغم، وتفتحت أرواحهم، وارتوت زهورهم العطشى بشربة الأجل وبظلمهم صار أعزة الناس أذلة بقيد المذلة، وملكهم [أي طائفة ملوك الجراكسة] الزهو بأنفسهم في مرآة العجب بالنفس. وأسرفوا في شرب خمر الغرور والأنانية، وثملوا بالكبر والاغترار، وغرهم نفحة أو نفحتين من ريح [الصبا] وتوالي الليل والنهار، ودوران الفلك الغدار، والزهو والظهور على لعبة مراياهم المزخرفة**))[29].

ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي تسلطن على مصر السلطان "الملك العادل" طومان باي الذي جلس على العرش بعد خلع الأشرف 'جان بلاط' غير أن هذا الأخير لم يستسلم للأمر وقام بتحريض الناس على قتال الملك العادل، لكن في الأخير كانت الغلبة للملك العادل طومان باي وألقي القبض على الأشرف

*) مابين قوسين إضافة من صاحب البحث.

**) المماليك: سلاطين أصلهم رقيقا حكموا مصر (1250-1517) والشام (1260-1516) وهما نوعان المماليك البرجية و المماليك البحرية (انظر: معجم الإسلام التاريخي).

[28]) للمزيد أنظر: القانون الإداري لولاية مصر في العهد العثماني في ضوء التشريع الإسلامي: ماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية القاهرة، ط1، 2008، ص 44.

***) قانون نامه مصر: هو قانون خاص بمصر يتكون من مائتين وسبع وأربعين مادة سنّه الصدر الأعظم إبراهيم باشا في عهد السلطان سليمان المشرع، خلال زيّارته مصر وذلك من أجل معالجة الأوضاع المتدهورة في مصر وضبطها. (أنظر: ماجدة مخلوف، القانون الإداري ... مرجع سّابق).

[29]) ماجدة مخلوف: القانون الإداري لولاية مصر في العهد العثماني في ضوء التشريع الإسلامي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2008، ص 72.

"جان بلاط"*، واستقر الحكم في الأخير للملك العادل، لكن الأمر تغير حيث قام بعض الأمراء بمحاربة الملك العادل وعلى رأسهم الأمير "قانصوه الغوري" الدودار الكبير، وما كان للملك العادل**. إلا الهروب ليتولى قانصوه الغوري*** عرش السلطنة عام 906هـ/1501م إلى غاية لقائه بالسلطان سليم الأول وموته في معركة مرج دابق**** بالشام[30].

فإذا كان السلطان "قانصوه الغوري" قد استقر على عرش السلطنة، فإن ذلك لا يعني الهدوء المطلق، حيث يذكر إبن الحمصي في كتابه "حوادث الزمان" بأن بعض العربان ومنهم عرب غزالي[31]، وعرب الجويلي، وقد بلغ عددهم حوالي سبعة عشر ألف قاموا بالعصيان في وجه السلطان الذي عين لهم أميرا كبيرا ليتصدى لهم ومعه أربع مقدمين وألفين مملوك. فلما بلغ الخبر إلى علم العربان وعرفوا نية السلطان، آثروا الطاعة على العصيان، فعدل الأمير عن حملته إليهم. ويذكر محقق المخطوط عبد العزيز فياض حرفوش معلقا على عصيان العربان في الهامش الثاني قوله: « أن العداوة بين العربان من خلال مشايخ قبائلهم والدولة جد مستحكمة منذ زمن بعيد، وذلك رغم الإقطاعات والامتيازات التي منحتها الدولة المملوكية لهم، فكانت كلما ثاروا تقوم ببطشهم وهم بدورهم يزدادوا عداء وحقدا، وقد استمر الحقد والوضع إلى غاية مساهمتهم في إسقاط الدولة المملوكية على يد السلطان سليم الأول العثماني بامتناعهم عن مساندة السلطان "طومان باي"، بل المساهمة في

*) جان بلاط: هو السلطان الأشرف أبا النّصر بن يشبك الأشرفي فبعد سجنه أُعدم خنقا بتاريخ 4 شعبان 906هـ/ 1500م (أنظر ابن إياس ص 663).

**) الملك العادل طومان باي: بعد فراره ألقي عليه القبض وقتل ثم قطع جسده قطعا قطعا، وبعدها غسل وكفن ثم دفن في مقره الذي بناه قبل مقتله بالقاهرة.

***) قانصوه الغوري (أبو النصر): 1440-1516 سلطان من المماليك البرجية في مصر ابتداء من 1501 إلى 1516.

****) معركة مرج دابق: رجب 922 هـ أغسطس 1516 انتصار العثمانيين على المماليك بشمال سوريا قرب مدينة حلب، وبهامات الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (99هـ / 717 م)

[30]) ابن الحمصي، مرجع سابق ج/2، ص ص 385، 401. و(انظر: التونجي محمد: بلاد الشام أيام العهد العثماني، دار المعرفة بيروت، ط1، 2004، ص ص 33، 34).

[31]) ابن إياس: جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، تحقيق: محمّد زينهم، الدار الثقافية للنشر، 2006.

نهايته وقتله »[32]. وبذلك طبقوا مقولة: "عدو عدوي صديقي"، والتي استفاد منها السلطان العثماني سليم الأول، وخدمته في تواجده بالمشرق العربي عموما وبلاد الشّام ومصر خاصّة.

2- الواقع السياسي:

إن المتفحص لرجال الحكم خلال العهد المملوكي يجد فئتين تتربعان على سدّة السلطة، ولو أن إحداهما أكثر قوة وتأثير من الأخرى، وهاتان الفئتان هما: فئة أرباب السيف "المماليك" وفئة أهل القلم "أصحاب العمائم" على حد تعبير "ابن كنان"؛ صاحب كتاب: "حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين".

ففئة أهل السيف مهمتهم حماية الدولة والدفاع عنها عسكريّا، أما فئة أهل العلم والقلم فهم القضاة ورجال الإفتاء والحسبة والإمامة أو ما يصطلح عليه في وقتنا الحالي بالأعمال المدنية.

أما الجيش* فكان يتألف من مماليك السلطان والأمراء والجند[33]. وما تقدم ذكره يوضح و بشكل جلي أن الدولة المملوكية كانت تجمع بين النظام العسكري والمتمثل في السلطان باعتباره قائد الجيوش والقادة العسكريين والنظام غير العسكري والمتمثل في رجال القلم "المعممين".

أما دبلوماسيا فكانت لدبلوماسية مصر مكانة رفيعة خاصة في العالم الإسلامي، حتى باتت مقصد ومحج الوفود الإسلامية من شتّى الأمصار، وتدليلا على ذلك ما اقتبسه محقّق كتاب: "جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك" نصّا من حوليات ابن إياس إذ يصور مكانة الدولة المملوكية في عصر ابن إياس وهي الفترة التي سبقت التواجد العثماني وبدايته فيقول عن أحداث عام 917هـ:

((ومن العجائب أنه في هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو أربعة عشر قاصدا (أي رسولا) وهم: قاصد الشاه إسماعيل الصفوي، وقاصد ملك الكريج، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان، وقاصد ابن عثمان

---

[32]) إبن إياس، المرجع نفسه، ص 417 .

*) كان الجيش يتكون على النحو التالي: مقدم الألف هو من ينوب عن السلطان في المراكز والولايات أو في الحرب يكون من الأمراء، أمير السلخانة وهو أمير يرأس أربعين فارسا، وأمير عشرة: وهو من يرأس عشرة فرسان، وأمير خمسة وهو من يرأس خمسة فرسان.

[33]) ابن كنّان محمد بن عيسى: حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق: عبّاس صبّاغ، دار النفائس، بيروت ط1، 1991، ص 242

(سليم الأول)، وقاصد يوسف الصوفي، وقاصد صاحب تونس، وقاصد من مكة، وقاصد الملك محمود، وقاصد ابن درغل أمير التركمان، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة، وقاصد البنادقة))[34].

3-الواقع الاقتصادي:

إن الوضع الاقتصادي السائد قبيل وخلال مطلع القرن السادس عشر وفي ظل الأوضاع السياسية التي عاشتها المماليك لا ولن تكون بمنآ عن التأثير السلبي عليها، فكلما زادت الاضطرابات عمت الفوضى، قل الأمن وبالتالي فالأمن هو معرقل لجميع الأنشطة الاقتصادية وعليه فإن الأوضاع الاقتصادية خلال هذه الفترة الصعبة كانت متدهورة، وذلك لجملة من الأسباب والتي يصنفها "ديفيد إيالون" إلى صنفين، إذ يقول: أن تدهور مصر الاقتصادي قبيل التواجد العثماني يرتبط بعوامل داخلية، كالقحط الناتج عن انخفاض النيل إلى الدرجة أن سنة 1508م وقع موت كثير في الدجاج حتى شح وقل لدى الفلاحين[35]،كما انتشرت الأوبئة، وازدادت الضرائب وتفشت النزاعات على السلطة .أما العوامل الخارجية فإن "ديفيد أيالون" يقلّل من أهميتها وينسبها إلى اكتشاف الطريق البحري الجديد المتمثل في رأس الرجاء الصّالح، الذي أدى إلى تحول تجارة الهند والشرق الأقصى عن طريق التجارة المارة بأملاك مصر،[36] كما ارتفعت الأسعار خاصة أسعار القمح وحتى التين عز وجوده، ولجأت الدولة إلى الصادرات من اقطاعات وأموال الناس[37].

إنّ هذا الوضع الاقتصادي المتدهور يؤكّده "جون ماري كاريه" بقوله: **« ففي القرن السادس عشر كان حالالتجارة قد ساء نتيجة تنافس فرنسا الشديد مع تجار البندقية ».**[38] فبالإضافة إلى ما تقدم فإن ما تميز به الوضع الاقتصادي هو تطبيق المجامعة والمشاهرة* التي فرضت على السوق بالدكاكين وعلى مختلف

---

[34]) ابن إياس: جواهر السلوك.... ، مرجع سابق، ص 11.

[35]) ابن إياس محمد: المختار ..... مرجع سابق، ص: 778.

[36]) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، القاهرة، ط4،1، 2010، ص: 82 هـا: (1) (أنظر كذلك ابن الحمصي في حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، ص ص: 404، 405)

[37]) ابن إياس: مرجع سابق، ص778.

[38]) Jean – Marie Carré : voyageurs et écrivains francais en Egypte, T 2 du début à la fin de la domination Turque (1517-1840), I. I. F.A.O, Le Caire, 1956, PP : 51-52.

*)المشاهرة هي ما يجمعه المحتسب من المال كل شهر لفائدة الملك من عند التجار، والمجامعة نفس العملية كذلك.

البضائع، وهو ما أضر بالتجارة والتجار وانعكس على العامة مما أدّى إلى صراخ المماليك بقولهم: **« نحن ما نطلب منه (السلطان) نفقة وإنما نطلب أن يبطل المجامعة والمشاهرة »**[39].

إن ما نود لفت الانتباه إليه فيما ذكره المؤرخ "ابن الحمصي" في كتابه "حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران" وفي الجزء الثاني منه وعند ذكره لبعض حوادث سنة 915هـ/1509م، نلاحظ بعض التناقض في ما ذكره عن أحوال مصر، حيث اجتمع الرخاء والغلاء في نفس الوقت بمصر فيقول: **«...ذو القعدة 915هـ/1509م، قلّ نزول المطر بعد عام 914هـ/1508م، وعمّ الرخاء وكان اللبن يباع بستة دراهم، وكان الغلاء موجودا ».**[40]

لكن عموم ما نستخلصه عن الأوضاع الاقتصادية، أنها كانت مهتزّة ومتذبذبة، وهذا ما يَنْضَحُ من حوليات ابن الحمصي، حيث نرى تعاقب الرخاء والغلاء، وكل عام بمميزاته .

أما عن أسباب ذلك الغلاء والتدهور الاقتصادي فمردّه إلى جملة من العوامل منها الطبيعية كالقحط وحالة النيل، والسياسة الاقتصادية المطبقة وعدم استقرار العملة كفرض الضرائب المفرطة من قبل السلاطين لسد النفقات الكثيرة ومنها مرتبات الجند ومنها الاقتصادية والمتمثلة في عدم استقرار العملة خاصة بعد إخراج المسلمين واليهود من الأندلس حيث أغرق اليهود الأسواق بما حملوه من فضة. وكذلك اضطراب الأسواق الداخلية بسبب تغير الطريق التجاري العالمي نحو رأس الرجاء الصالح.**

4-الواقع الاجتماعي:

إذا كان الوضع الأمني قد تميّز بالفتن والفوضى عموما وبالصراع بين المماليك والسلطان نفسه، فإن ذلك الصراع قد تعدى لينتشر بين أوساط المجتمع. وإذا كانت أسباب ذلك يعود بعضها إلى سياسة السلطان مثل ما فعله السلطان قانصوه الغوري لما ضرب نقودا جديدة باسمه مما أدّى إلى تضرّر العامة اقتصاديا بسبب

---

[39]) ابن إياس : المختار ....مرجع سابق، ص 987.

[40]) ابن الحمصي: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ج2، تحقيق: عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، ط1، 2000، ص 447. للمزيد أنظر: حسين عاصي: ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993 ص25. (نقلا عن ابن إياس: بدائع الزهور، مرجع سابق).

**) هو الطرف الأقصى الجنوبي من القارة الإفريقية سماه الملك البرتغالي (Cape of good Hope أي:رأس الرجاء الصالح) لما شعر بأمل في تطويق المسلمين بعدما سماه البحّار "بارتملي دياز" رأس العواصف.

خلط النقود القديمة بالنقود الجديدة[41]، فإن بعض الأسباب الأخرى تعود إلى العلاقات غير الودية بين القبائل وإلى زمن بعيد وذلك رغم الامتيازات الكبيرة و الاقطاعات الكثيرة الممنوحة لهم. لكن قبل معالجة الموضوع نرى أنه من الأحسن والأفيد إبراز تركيبة المجتمع وقتئذ. من بين القبائل التي كانت تعيش عداءات مستمرة فيما بينها ونذكر منها عرب غزالي، وعرب الجويلي والذين يقدر عددهم بحوالي تسعة عشر ألف نسمة [42]. ومما زاد في تأزم الوضع بينهم وبين المماليك هو نوع العلاقة بينهما والتي لم تكن متينة ولا ودية و لم تتعد جمع الإتاوات والشكاوي وفض الخصومات وحضور الاحتفالات[43].

لقد تمادى الطرفان، في سياستيهما، فالسلطات تبطش لإخماد ثوراتهم، والعربان يزدادون عنادا وعنفا، ومن مثل الصدامات بينهما: ما وقع في شهر شوال 908هـ/1502م، حيث قام السلطان بتعيين فرقة عسكرية باتجاه الشرقية والغربية والبحيرة لتأديب القبائل المشاغبة[44] ، إلى أن بلغ الأمر بهم عدم مساندة السلطان "طومان باي" في وقعة الريدانية، والوقوف إلى جانب السلطان العثماني" سليم الأول "وإسقاط النظام المملوكي عام 1517م كما أشرنا إلى ذلك في هذا البحث.

ومما سبق فإننا نستنتج أن الوضع الاجتماعي والأمني كانا مضطربين، وسبب ذلك يعود إلى العلاقات اللاّوديّة بين مختلف فئات المجتمع، فالأمر لا يقتصر فقط بينهم جميعا، بل حتى فيما بين قبائل العربان أنفسهم، وأسباب ذلك كثيرة وأهمها ما ذكرناه في الوضع الاقتصادي. بالإضافة إلى ما تقدم، فقد انتشرت بعض الظواهر السلبية مثل: مصادرة الأموال الخاصة بالتركات واليتامى من قبل السلطة وكذلك انتشار الرشوة، وبيع الوظائف وغش السكّة كما تقدم ذكره.[45] وكان المجتمع يتكون من سلطة يمثلها السلطان وهو على رأسها ويساعده أعوان (مساعدون) وهم بطانته على مستوى القاهرة أما على مستوى الولايات فيساعده ولاّة من فئة المماليك والعربان يعملون على الحفاظ على الأمن وجمع الضرائب من الرعية ولهم في ذلك اليد الطولى .

---

[41]) ابن الحمصي: مرجع سابق، ص 41.

[42]) المرجع نفسه، ص 417 ها (2)

[43]) المرجع نفسه، ص 425. وحول عدم التواصل بين السلطان قانصوه الغوري والرعية، فإن السلطان لم ينزل من القلعة من حين ولايته إلا بعد مضي مدة سنة وأربعة أيام وذلك بمناسبة وفاة الأمير جان بلاط بتاريخ 04 شعبان 906 هـ/1500م. وانظر (إبن إياس مرجع سابق ص 663).

[44]) ابن الحمصي، المرجع السابق، ج2، ص 438 ها (4).

[45]) محمد التونجي: بلاد الشام أيام العهد العثماني ، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2004، ص34.

وبصفة إجمالية فإن تركيبة المجتمع المصري في أيام المماليك كانت على شكل هرمي وهذا ما عبر عنه المؤرخ ابن كنان: فهو (المجتمع) على شكل هرمي و على رأسه السلطان المملوكي. وهو الآمر والناهي اجتماعيا وعسكريا، ومن دونه الخليفة العباسي، ذو المقام الأعلى والأسمى، إلّا أنّ هذا الأخير دوره شكلي، إذ يقتصر على الموافقة الإجبارية (الحتمية) بالعهد للسلطان في الحكم والتسيير والتصرف. والفئة الثانية من حيث المرتبة فهم الأمراء ونواب الولايات وقادة المجموعات العسكرية، في حين نجد الفئة الثالثة من حيث المرتبة تتكون من كتاب الدواوين والقضاة والمفتون والمدرسون والأئمة. وأخيرا نجد الفئة الأخيرة وهي فئة العامة (عامة الناس) وعلى رأس هذه الفئة نجد التجار والحرفيين والزراع.[46]

وعلى العموم فإن المجتمع المصري خلال العهد المملوكي كان يتألف من طبقتين هما: العسكريون،*والرعايا.[47] كما أن الوضع الصحي هو الآخر عرف اضطرابات وتدهورا؛ وما انتشار الوباء بين السكان عام 1492م إلاّ انعكاسا للوضع الصحي المتدهور، إلى درجة سقوط ضحايا بالآلاف يوميا إضافة إلى القحط، والطاعون مما أدّى إلى ندرة الأقوات.[48]

5- الواقع الأمني:

ليس الأمن أقل شأنا من الاقتصاد والسياسة إن لم يكن أكثرهما بل هو أساس كل نشاط إلى درجة أن الله عز وجل قد ذكره من بين ما تكرم به على عباده لما خاطبهم بأمره في سورة "قريش" حيث قال:«..فليعبدوا ربّ هذا البت الذي أطعمهم من جوع* وآمنهم من خوف*».[49] (سورة قريش، الآيتان: 3،4).

فالأمن أساس الحضارات وهو ما افتقدته دولة المماليك في آخر أيامها في معظم الأوقات، حيث كثرت الفتن وانتشر الشغب، ففي عام 917هـ/1511م وقع غِبٌّ بين المماليك، ونهبوا كميات كثيرة من

---

[46]) إبن كنان: مرجع سابق، ص ص 242، 244.

*) العسكريون: هم فئة تتكون من أفراد الجيش والموظفين العموميين والقائمين على خدمتهم، وكانوا معفيين من الضرائب، ويتلقون النفقات السلطانية.

[47])أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط4، 2010، ص 113.

[48]) حسين عاصي: ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1993، ص ص 22، 25.

[49]) القرآن الكريم سورة قريش الآيتان 3، 4.

الشعير، وكثرت الإشاعات حول ذلك، حتى أغلقت الأسواق من جرائه، مما اضطر السلطان إلى اتخاذ قرار بعدم دفع النفقة للمماليك[50].

كما وقع شغب وفتنة في السنة السابعة (915هـ/1509م) حيث وقعت فتنة بين العبيد إلى درجة الاقتتال ومن شدتها عجز الوالي عن إخمادها[51]. كما امتدت الفتنة حتى إلى منطقة الصعيد؛ حيث وقعت بين القبائل المحلية ومنها: قبيلتي بني كلب وبني عدي، حيث كادت تلك الفتنة أن تتسبب في خراب المنطقة[52].

فإذا كانت السنوات السابقة قد عرفت شيئا من الشغب والفتنة مما أدى إلى استشراء ها وأحرقت نارها كل الفئات، فإن ابن إياس سجّل لنا فترة هدوء واستقرار خلال سنة 918هـ/1512م حيث يقول عنها: **« فكانت سنة هناء هادئة من دون فتن والشرور، كما لم يظهر فيها أي مرض كالطّاعون ماعدا في الإسكندرية ورشيد وبعض السواحل، ولم يدخل منه إلى مصر شيء »**[53]. ويضيف استمر التوتر و اللاّ أمن غربا وشرقا بسبب فساد العربان وجور الكشاف خلال سنة 1513م،[54] التي ظهر فيها الطاعون، وفتك بالكثير من الأطفال والعبيد والجواري حتى فتحت المغاسل وبلغ متوسط الوفيات يوميا 3000 إنسان بالإضافة إلى فرار الكثير إلى جبل الطور بسينا.

لقد عرفت الفترة التي سابقة التواجد العثماني بمصر اضطرابات وتقلبات أمنية، فمنذ النصف الأخير من القرن الخامس عشرا (15م)، تكاثرت الحركات التمردية* واعتداءات الجلبان على الناس، وانتشرت عمليات النهب للأسواق، وكذلك المؤامرات وعدم الاستقرار وظهور القلاقل، الشيء الذي شجع على تدخل ونفوذ العثمانيين.

---

[50]) إبن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، مرجع سابق، ص869.

[51]) المرجع نفسه، ص 797.

[52]) المرجع نفسه، ج2، ص 811.

[53]) المرجع نفسه، ج2، ص 969.

[54]) المرجع نفسه، ج2، ص 907.

*) يذكر أن خلال الفترة الممتدة بين 1453-1460 وقعت سبع تمردات و لم تتوقف حتى عهد السلطان قايتباي.

وباختصار فإن بلاد مصر خلال الفترة التي سبقت التواجد العثماني بها و بدايته كذلك كانت تعاني من الظلم المملوكي، وانتشار المحرمات والمنكرات وانتشار الفقر بين الكثير من السكان الذين أُلبسوا لباس المذلة ونازعتهم الفتن والمعاناة[55]. (انظر الملحق).

المبحث الثاني: أوضاع الحجاز واليمن:

أولاً: بالحجاز:

1- موقع الحجاز ومكانته لدى المسلمين:

الحجاز منطقة جبلية بالجزء الغربي من الجزيرة العربية، والحجاز لغة تعني "الحاجز". من منطقتي عسير ونجران المجاورتين لليمن ناهيك عن سلسلة الجبال التي تحجز بلاد نجد من تهامة، والتي تسمت بها المنطقة. أمّا الحجاز جغرافيا فهو أحد الأقاليم الرئيسية لشبه جزيرة العرب على شكل شريط محاذي للبحر الأحمر[56]. (بحر القلزم سابقا) وبه المدينتين المقدّستين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وجدّة ورابغ وينبع والطائف...

ومن مدينة جيزان تمتد بالتوازي مع البحر الأحمر من جبال تهامة جنوبا إلى خليج العقبة شمالا. (للمزيد أنظر الخريطة رقم 106 ص: 202 من أطلس تاريخ الإسلام لحسين مؤنس)[57] كما كان يطلق عليه لفظ (قازان) أما من الشرق فيحدّه إقليم نجد.[58]فهو إقليم جبلي يمتد من الشام إلى اليمن.

أما سياسيا فهو المنطقة الغربية من شبه جزيرة العرب التي خضعت للحكم العثماني بعد انتقال الخلافة من المماليك إلى العثمانيين وبالرغم من كون الحجاز واليمن يكونان مع باقي أراضي شبه جزيرة العرب كتلة جغرافية واحدة إلّا أنهما منعزلان ومنطويان على نفسيهما[59]

---

[55]) ماجدة مخلوف: القانون الإداري .....، مرجع سابق، ص72.

[56]) سمير عبد الرزاق القطب" أنساب العرب، دار مكتبة البيان، دار القاموس الحديث، بيروت، ط2، 1969. ص 14.

[57])حسين مؤنس:أطلس تاريخ الإسلام، الزّهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1 ،1987، ص 202.

[58]) ثريا فاروقي: حجاج وسلاطين الحج أيام العثمانيين، تر: أبو بكر أحمد باقر، منشورات الجمل (م.د.خ ث) ط1 2010، ص 125.

لقد كان الحجاز منذ العهد الأيوبي (1175-1250) ثم العهد المملوكي (1250-1517)م مرتبطا وتابعا سياسيا لمن يحكم مصر وهذا منذ سقوط بغداد في يد المغول سنة 1258م، وكانت دائما تتلقى العناية بواسطة الأوقاف (أوقاف الحرمين الشريفين) من السلاطين والعطف من الشعوب الإسلامية، والمتمثلة المخصّصة الصرّة السنوية وذلك منذ عهد بعيد فمعاوية بن أبي سفيان أوصى ابنه يزيد بالحجاز وبأهله خيرا فقال له:

« أنظر إلى أهل الحجاز فإنّهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب » كما دأب الخلفاء من بعده على إرضاء أهل الحجاز والرفع من مكانتهم واحترامهم واستعمال اللّين والملاطفة، و لم تحظ بلد من البلدان مثلما حظيت به بلاد الحجاز ومن ضمنهما **مكة** والمدينة على وجه التحديد ،[60] بل تسابق المسلمون (حكاما ومحكومين) على تقديم خدماتهم[61]. والحقيقة لم يكن للحجاز أهمية تذكر لولا وجود المدينتين المقدستين ولكونهما تحتويان على **بيت الله الحرام** وعلى قبر الرسول **محمد** (ص)، فقد أصبح الحجاز بهما الوجه المشرق للدولة الإسلامية[62]، ومما زاد من أهميتهما اقتران دورهما الرّوحي ومكانتهما لدى المسلمين مع السلطة الزمنية المشرفة، و لم يغفل عن ذلك أي من الأمراء والسلاطين المتعاقبين. فالجميع يدرك مركزيتهما بالنسبة للمسلمين ومن أجل ذلك فإن الإشراف عليهما يعني قياد المسلمين عربا وعجما روحيّا، وكيف لا والأولى هي أم القرى (مكة المكرمة).[63]

والثانية: تضم أشرف وأفضل مخلوقات **الله**. ولهذه الأسباب وغيرها كان الحجاز منذ سقوط الخلافة العباسية ببغداد تابعا للدول التي قامت بمصر إلى غاية التواجد العثماني بها (1517م) وضم الحجاز إلى الدولة العثمانية.

2- الواقع السيّاسي:

---

[59]) فواز علي بن جنيدب الدهاس: الدور القيادي لمكة المكرمة خلال العصر الأموي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد: 19، عدد: 41، حزيران: 2007، ص 290. وانظر فليب حتّي وآخرون: تاريخ العرب،(د.ك.ن.ط.ت)، بيروت، ط 13، 2009 ،ص 836.

[60]) ثريا فاروقي: حجاج وسلاطين الحج أيام العثمانيين، تر: أبو بكر أحمد با قادر، منشورات الجمل (م.د.خ.ث)، بيروت، 2010.

[61]) معجم الإسلام التاريخي دومنيك سورديل وآخر، تر: انطوان الحكيم وآخرون، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، ص53. مطابع الجامعات الفرنسية 1996، ص 344

[62]) الدّهاس فواز: مرجع سابق، ص ص 291، 295.

[63]) المرجع نفسه، ص 312.

إن المعلومات عن الحجاز عموما وبالخصوص ما يتعلق بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية شحيحة (حسب تعبير ثريا فاروقي) و خاصّة ما يتعلق بسكان **مكة** ؛ ومع ذلك فإن أخبار الحجاز لم ولن تنعدم، ما دام هناك بيت لله يؤمه الناس من كل حدب وصوب.

فسياسيا قد بدأت فكرة تأسيس دولة من قبل شرفاء **مكة** عليها، خلال عام 402 هـ/1011م منهم: الشريف محمد شكري بن أبي الفتوح الحسين[64] كما حاول غيره من الحسينيين* ذلك وفي منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي بدأت بدولة الشرفاء الحسينيين على **مكة** والحجاز الذين تداولوا عليها وهم كثيرون بدءا لدولة الشرفاء والحسينيين المعمّرة لحوالي عشرة قرون، وخلال ذلك برزت أسماء أسر كثيرة من الحسينيين توالوا على الحكم ونذكر منهم: « بنو فليتة** – بنو قتادة*** بنو عجلان بن رميثة – بنو محمد بن بركات "عدة مرات" بنو سعيد بن زيد – بنو أبي نمى محمد بن أبي سعيد بن علي...».[65]

3- الواقع الأمني:

لم يكن الأمن بالحجاز عموما متوفرا، حتى منذ ما قبل العهد العثماني، إلى درجة اختصار مدة الرجم خلال الحج وذلك بسبب الخوف عملا برخصة التقصير، وهذا ما نقلته الكاتبة ثريا فاروقي عن رحلة ابن جبير (ص156)، عملا برخصة التقصير.

وفي عهد الشريف عجلان بن رميثة من بني نمى الذين لم يستطيعوا المحافظة على الحجيج وتأمين طريق قوافلهم، إذ بسب ذلك تدخل المماليك سنة 751هـ/1350م بالقوة وأخذوا أمير **مكة** إلى القاهرة أسيرا ومنذ ذاك ألحقت **مكة** و حجازها بمصر المملوكية[66]، واستمرت التبعية إلى غاية العهد العثماني.

وقبيل دخول العثمانيين مصر وإلحاقها بالباب العالي مع توابعها****، عرفت الحجاز صراعات بين الأخوة من أجل حكم، حيث نقم الشريف هزاع بن بركات الذي توفي 907هـ/1501م عل والده

---

[64]) انظر: تغريبة بني هلال.

*) نسبة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب (ض) بن عبد المطلب بن هاشم.

**) نسبة إلى عيسى بن فليته بن قام بن أبي هاشم (انظر: جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة جدة، ك1، 1985، ص 28)

***) نسبة إلى الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن...الحسن بن علي بن أبي طالب، (انظر جميل حرب، المرجع السابق، ص 34)

[65]) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص 208.

[66]) المرجع نفس، ص : 209.

بسبب تفضيل أخيه بركات في الحكم، ولأجل ذلك افتك نيابة **مكة** بالقوة بعد ما استعان سلطان المماليك "قانصوه الغوري"، واستمرت العداوة والغل بين الإخوة إلى أن استعان هزاع بالأتراك فيم بعد على أخيه بركات الذي رحّل إلى مصر مكبلا حتى توفي بها عام 931هـ/1525م[67] . كما تقاتل بركات مع أخيه جازاني* بن محمد بن بركات من قبل[68].

لقد كانت الفوضى والاضطرابات هما السائدان بالحجاز، فالحرب بين الإخوة (أحمد الجازاني والشريف بركات) مستقرة وهي سجال بينهما، خاصة عام 908هـ/1502م، وقد طالت حتى قافلة الحج اليمنية التي لم تسلم من النّهب والاعتداء[69]. وانتشر الخوف والهلع وانقطعت السبل إلى أن عاد الحجاج القادمين عبر البحر برّا وقد بلغ بالناس الأمر إلى أن اشتكوا أمر أمنهم إلى الشريف بركات وكان في كل مرة يرد: « اشكوا ذلك إلى سلطان البلد واطلبوا منها أمانها، فقد أمنتها حين كنت سلطانها، وأما الآن فأنا واحد منكم »[70].

استمرت الاضطرابات والصدامات بين الأخوين بركات و هزاع المؤيد من قبل مصر حيث أرسلت له المراسيم والخلع ورسم على الحجاز، لكنه لم يلبث طويلا، وتوفي** ليئول الأمر إلى أخيه بركات[71]. وتفيد الأخبار التي ينقلها الحجاج بعد عودتهم من مناسكهم، والتي تكاد تجمع على اضطرابات الأوضاع، جراء الصراع بين الأشراف، كما نقلت قافلة الحج لعام 908هـ/ 1502م التي أوردت خبر الصراع بين بركات الشريف صاحب **مكة** وأخيه الجازاني و يحي بن سبع حاكم "ينبع "وعساكره، وبمعية عربان وعساكر متمردين

****) المقصود بتوابعها هي : الشام والحجاز واليمن.

[67]) ابن الديبع الشيباني عبد الرحمن "الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق، محمد عيسى صالحية (د،م) الكويت، ط1، 1986، ص: 149، ها (2،3).

*) قتل وهو يطوف حول الكعبة بعد مؤامرة من الأتراك من خلال شوطه الثالث عند باب الكعبة.

[68]) ابن الديبع: المرجع السابق ، ص 150، ها (6).

[69]) المرجعنفسه، ص: 168، 170، 171.

[70]) المرجع نفسه، ص 151، 152.

**) أرسل سلطان مصر مرسوم وخلعة الإمارة مع الأمير إلياس ابتداء من 28 جمادى الأولى وفي 15 رجب 907هـ/1501م توفي. وبذلك تكون إمارته الرسمية حوالي 65 يوما.

[71]) ابن الديبع ، المرجع السابق، ص 156، 177.

ومنشقين[72]. لم يقتصر الصراع على الإخوة الأشراف من أجل البقاع المقدسة، بل هناك فتن وصراعات أخرى واعتداءات من طرف القبائل على بعضها البعض، ومنها مهاجمة قبائل العربان على مدينة جدة ونهبها[73].

4- الواقع الاقتصادي:

أمّا الوضع الاقتصادي فناهيك عن قلة الإنتاج الزراعي بالحجاز فإن المتواتر في كتب التاريخ الخاصة بالفترة العثمانية وما قبلها، أن الحجاز كان يعتمد اعتمادا كبيرا على مصر في تزويده بالحبوب، وعلى الشام بدرجة أقل[74]. كما أن الأوقاف التي خصصت وتُخصّص باستمرار في مختلف البلاد المسلمين مشرقا ومغربا لأهل مكة، والتي تجلب عائداتها سنويا مع قوافل الحج المغربية والمصرية والشامية واليمنية والعراقية[75]. فبلاد الحجاز لا تملك قاعدة زراعية وبالتالي كانت المؤسسات الخيرية في كل من مصر والأناضول وبلاد المغرب وبالشام وحتى بالبلقان تمثل موارد أساسية لأهلها وأشرافها، بالإضافة إلى عائدات الأوقاف بالمشرق والمغرب، وكذلك الهبات التي كانت ترسل من قبل السلاطين ومنهم السلطان بايزيد الثاني[76]. وعلى ضوء ما تقدم فإن المداخيل المحلية بالحجاز أمام الواردات تكاد لا تذكر باستثناء بعض المنتجات الاستهلاكية المحلية القليلة من زراعة وحيوانات، بالإضافة إلى عائدات مدينة جدة الجمركية.[77]

أما التجارة فقد كانت حسب مواسم الحج وتتأثر بأنواعها وقوافلها تأثيرا طرديا. فإذا وصلت القوافل آمنة و لم تتعرض إلى النهب، وكانت محملة بمختلف السلع نشطت الحركة التجارية ونشطت الأسواق المحلية على غرار سوق منى "سوق بازاري" حيث كانت تجلب السلع وخاصة منها الثمينة كاللآلئ البحرين والأواني الزجاجية وغيرها من السلع.[78]

5- الواقع الاجتماعي:

---

[72]) ابن الحمصي: مرجع سابق، ص 426

73) قطب الدين النهروالي، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، (د.ط)، (د.ت)، ص 215.

[74]) ثريا فاروقي: حجاج وسلاطين الحج أيام العثمانيين، مرجع سابق ص 19.

[75]) المرجع نفسه، ص 33.

[76]) المرجع نفسه، ص ص 128، 129.

[77]) مرجع نفسه، ص 150.

[78]) المرجع نفسه، ص ص 46، 47.

من المعروف أن مجتمع شبه جزيرة العرب يتكون من قبائل كثيرة ومختلفة، وكل قبيلة تتألف من عديد البيوتات والحال كذلك بالنسبة للحجاز بما فيهم **مكة** على وجه الخصوص فكان سكان **مكة** ينقسمون إلى عشائر وعائلات، وهذا ما تقدم ذكره (انظر موضوع أهمية الحجاز)، كما ينقسم المجتمع إلى أشراف وهم المنتسبون إلى سلالة الرسوم محمد (ص) وأشهرهم الحُسَيْنيون والحَسنِيّون (نسبة إلى الحسين والحسن)* أبناء علي بن أبي طالب وإلى العوام. وقد كان أولئك الأشراف يتميزون بالفقر الشّديد، وبالتالي لم يكن باستطاعتهم التصرف كأمراء مستقلين.[79]

أما من حيث عدد السكان فلا توجد إحصائيات دقيقة عنهم إلّا بعض الأرقام التقريبية مثل: ما توصل إليه المبعوث السلطاني "قطب الدين" خلال مهمته حيث أحصى 12000 شخص ممن يستحقون تسلم الهبات بالمدينة المنورة خلال عهد السلطان سليم الأول، وهذا دون إحصاء التجار والجنود والأطفال والنساء والخدم، وبالتالي فالإحصاء يشمل أرباب الأسر فقط[80].

والخلاصة التي يمكن التوصل إليها هي أن الحجاز قبل العهد العثماني كان يعان من عدة مظاهر سلبية على جميع الأصعدة، فأمنيا كان الوضع غير مستقرٍّ والخوف منتشر إلى درجة تأثيره على أداء مناسك الحج أما اقتصاديا فإن بلاد الحجاز عموما والمدينتين المقدستين على وجه التحديد كانتا تعتمدان على الاقتصاد الخارجي من خلال الهبات والمؤسسات الخيرية (الأوقاف)، وما تحمله قوافل الحجيج السنوية التي ما تكون غالبا سببا في انتعاش الأسواق المحلية، وأما اجتماعيا، فإن المجتمع كان يتكون من العوام ومن الأشراف وهؤلاء هم الذين يتولون الأدوار السياسية. فكل هذه المعطيات جعلت من بلاد الحجاز تعيش التبعية لدولة المماليك ثم للدولة العثمانية فيما بعد.

ثانياً- باليمن:

1- موقع اليمن وأهمّيته:

*) الحسينيون نسبة إلى الحسين ابن علي (ض)، والحسنيون نسبة إلى أخيه الحسن بن علي (ض).

[79]) ثريا فاروقي، مرجع سابق، ص 147.

[80]) المرجع نفسه، ص 142.

اليمن هو الإقليم الرئيس الثاني من أقاليم شبه جزيرة العرب، ويقع في الركن الجنوبي الغربي منها، ويشمل عدة مناطق وهي: عدن وحضرموت والأحقاف وكندة وسبأ* وحمير ويسميه العرب (الخضراء) أما المستشرقون فيطلقون عليها تسمية (البلاد السعيدة)[81].

إن هذا الموقع لليمن والذي جعله مطلا على البحر الأحمر والمحيط الهندي عبر بحر العرب قد أكسب أهمية كبيرة وجعله يتحكّم في مدخل البحر الأحمر جنوبا،[82] وصار بذلك ملفتا لأنظار العالم الغربي. ومغريا للحملات الإفرنجية عليه تحت ستار المتاجرة مع الهند[83].

كما انفرد اليمن عن بقية الأقطار العربية بتاريخ خاص منذ ما قبل العصر الأيوبي إلى غاية التواجد العثماني حيث ظهرت به عدة دويلات وسادت بينها صراعات وقد غذّتها البنية التكوينية القبلية[84] للمجتمع اليمني وتمايزت فيما بينها في المذاهب فبعضها شيعية وأخرى سنية أو خارجية، كما كانت الواحدة منهم تتسع حتى تشمل اليمن كله أو بعضه، وأحيانا تتجاور أكثر من دولة على رقعته وتتعاصر معا.

فاليمن مهد العرب الأوائل، ومنشأ لغتهم وموطن أجدادهم. ويعتبر أليف المآسي والصراعات بين أبناءه أنفسهم تارة وبينهم وبين من يأتي إليهم من خارج بلادهم تارة أخرى، حتى ظلت اليمن كالنار المستعرة تأكل نفسها.[85] وهذا ما دونه تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني في مخطوطه: "تاريخ اليمن" المسمّى « بهجة الزمن في تاريخ اليمن »، والذي حققه مصطفى حجازي.

إن ما تقدم من شهادة المؤرخ تاج الدّين سابق الذكر، ووصفة لحالة اليمن، قد تغني عن الغوص في موضوع حالة اليمن خاصة وأن هناك من يؤكد ويدعم هذا الوصف والمتمثل في شهادة المؤرخ المعاصر للفترة

---

*) سبأ: اسم لمملكة قديمة باليمن ذكرت في القران في سورة "سبأ" وقد تزامنت مع النبي سليمان عليه السلام. (أنظر: القرآن الكريم: سورة سبأ (24)، الجزء (22).)

[81]) سمير عبد الرزاق قطب: أنساب العرب، مرجع سابق، ص: 24.

[82]) جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة، جدة، ط1، 1985، ص141

[83])ابن الديبع: مرجع سابق ، ص 85.

[84]) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص208.

[85])تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني: تاريخ اليمن المسمّى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1985، ص 5، 6.

القريبة من التواجد العثماني وهو "ابن الديبع"* بالإضافة إلى مشاهدات بعض الرحالة أمثال: لودوفيكو ديفارتيما (LODOVICO DI VARTHIMA)**.

وبالاعتماد على ما سبق سنستعرض قدر ما استطعنا شيئا من أحوال اليمن المختلفة والتي لم تعرف الهدوء والاستقرار ولا الرخاء طيلة الفترة السابقة للعهد العثماني، حيث سادت الاضطرابات والصراعات بين كياناتها إلى درجة التفتت[86].

2- الواقع السياسي:

لقد تصادف مع مطلع القرن السادس عشر وجود دولة بني طاهر (آل طاهر) (1451م-1517م) باليمن؛ التي قامت على الجزء الجنوبي الغربي من اليمن ومركزها صنعاء، على يد عامر بن طاهر وأخيه علي، على أنقاض دولة بني رسول. والتي خضعت للعثمانيين بعد 1517م مقر السلاطين اليمنيين الذين تميزوا بالمكانة الدينية، والسياسية وجمعهم للأموال[87]. ففي أيام هؤلاء السلاطين عاش اليمن اضطرابا سياسيا؛ فقلّ الأمن وانتشرت الفوضى والصراعات مثلما وقع سنة 904هـ/ 1498م من صراع بين أهل مدينة زبيد بزعامة شمس الدين علي بن محمد العنسي والزّعليين، حيث وقع بينهما قتل ونهب وكرّ وفرّ كثير وكبير. وكذلك بين أهل صنعاء والسلطان[88] كما أشار المؤرخ ابن الديبع في كتابه المذكور أعلاه، ص 165.

*) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن علي بن يوسف بن أحمد بن عمر الشيباني نسبا، الشافعي مذهبا المعروف بابن الديبع والديبع لقب جدّه علي بن يوسف وتعني الأبيض (1461م-1537م) باليمن.

**) رحالة إيطالي الاصل مثل كريستوفر كولومبس، زار شبه الجزيرة العربية وفارس بإسم الحاج يونس المصري ويونس المملوكي المصري، وزار الهند بإسم الحاج يونس العجمي، كما زار إثيوبيا ومصر والشام (1503-1509م) أنظر: جمال محمود حجر، الرحالة الغربيون في المشرق العربي في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2012، ص ص 19، 20.

[86]) جميل حرب محمود حسين: مرجع سابق ص:92 وأنظر: حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 213 .

[87]) طارق نافع الحمداني: الخليج والجزيرة العربي بين القرنين السادس عشر والعشرين، شركة الوراق للنشر المحدودة، بغداد، ط1، 2011، ص ،60 نقلا عن : Lodovico du Varthema, the itinaray of lodovico di Varthema of Bologna from 1502 to 1508, translated from the original Italian by Jehon winter Jones , the Aragon press, London, P xx.

[88]) إبن الديبع: مرجع سابق ص 120.

ونتيجة لذلك الوضع من اضطرابات سياسية، قلّ الأمن وانتشر الخوف حتى صار المسافر لا يأمن على نفسه من قطاع الطرق واللصوص، إلى درجة أن السلطان خلال تلك الفترة لا يستطيع التنقل من مكان لآخر إلّا بعد اتخاذ تدابير أمنية، وهذا ما فعله السلطان عندما تنقل من مدينة تعز* إلى مدينة عدن**، وصار بذلك اليمن مقسما بين عامر بن عبد الوهاب على التهائم وعدن وزبيد*** ولحج وأبين، والأمام الزيدي محمّد بن الناصر على صنعاء*، ومخالفيها (ضواحيها من القرى والجهات) والإمام الزيدي المطهّر بن محمّد بن سلمان علي كوكبان وضواحيها، والإمام الزيدي محمّد بن علي السرّاجي والوشلي على منطقة الشرف والظواهر والجند وصعدة**، مما حال دون تحقيق الوحدة بين ربوع اليمن[89]. وذلك يعود إلى استشراء العداء بين القبائل اليمنية من أجل الزعامة، فكثيرا ما كانت تغير على بعضها البعض وأشهرها الحرب التي وقعت بين قبيلتي بني الشكارية و المضريين بني بكر سنة 897هـ/1492م. و لم تهدأ تلك المنازعات إلّا بعد ما هزم السلطان عامر المماليك عام 920هـ/1514م، و جنحت بعد بذلك القبائل إلى السلم[90].

لم يتوقف الحد عند الصراع بين القبائل اليمنية*** كصراع الزعليين وأهل زبيد بزعامة شمس الدين علي بن محمد العنسي، بل هناك صراع من نوع آخر واضطراب ذو طابع خاص والمتمثل في التمردات مثل التمرد الذي قام به "محمد بن حسين البهّال" صاحب مدينة صعده في أيام عامر بن عبد الوهاب. هذا الأخير

) تعز: مدينة يمنية قارية كانت عاصمة الدولة الرسولية خلال القرن 13م.*

**) عدن: مدينة ساحلية قرب باب المندب، احتلها البرتغاليون سنة 1513 والبريطانيون 1839. (نظر: المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ط29. 1986، ص 372. وتنسب إلى عدن بن سنان بن نقشان بن إبراهيم، وقيل غير ذلك. (انظر: ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، ص 103 ها: (2) .)

***) زُبيد مدينة يمنية يقال لها الحصيب ثم غلب عليها اسم الوادي المار بها وأصبحت تعرف به وهي عاصمة منطقة التهائم وكانت عاصمة دولة آل طاهر (انظر: جميل حرب ومحمود حسين المرجع نفسه، ص:56 ، ها(3).

*) صنعاء مدينة يمنية قارية وهي العاصمة الحالية، كانت تسمى في القديم "أزال"، احتلها الأحباش وسموها نعم وبعد بناءها وتحصينها سمّوها صنعه (أي حصينة). (أنظر: ابن الديبع، مرجع سابق، ص101 ها (4).)

**) صعدة: مدينة تجارية تقع شمال صنعاء، ذكرها ياقوت الجموي في معجم البلدان. (أنظر: ابن الديبع، مرجع سابق، ص162، ها (6))

89) ابن الديبع: مرجع سابق ص ص 58، 61.

90) المرجع نفسه، ص 57.

***) في الحقيقة هو صراع بين الطوائف بين الزيديين والإسماعيليين بشمال ووسط اليمن.

الذي حاول محاصرة مدينة صعده، غير أن الغلبة كانت لصاحبها حسين البهال، بسبب تناكف الزيديين من جهة وتحالف قبائل الجوف مع أهل المدينة من جهة أخرى[91]. مما شجع الكثير من القبائل على رفع راية العصيان، وهكذا عاشت الدولة العامرية اضطرابات وصراعات على المستويين القبلي والعائلي[****]، بالإضافة إلى المضايقات والتحرشات الخارجية من قبل المماليك والبرتغاليين[92]. ونتيجة لذلك ضعفت سياسيا وكذلك اقتصاديا كما سنلاحظ فيما بعد.

3- الوضع الاقتصادي:

تميز الوضع الاقتصادي اليمني خلال هذه الفترة بالضعف والاضطراب وهو شيء طبيعي ما دام اللّا أمن والصراعات تسود البلاد وهما عنصران مؤثران في الإنسان بصفته المنتج والمحرك للاقتصاد، بالإضافة إلى ذلك العوامل الطبيعية المدمرة والمؤثرة سلبا فقد رصد لنا المؤرخون جملة من الأحداث الطبيعية كان لها الأثر السلبي على الزّراعة خصوصا والاقتصاد عموما وتتمثل في آفة الجراد والأمطار المدمّرة والحرائق التي بلغ عددها إحدى عشر حريق ما بين (1491م و 1512م) كما عرفت سنة 918هـ/1512م اتلافات كبيرة في منتجات النخيل والزروع. وأمام هذا الوضع اشتدّ الغلاء وشحت السلع وارتفعت الأسعار إلى أن بيعت قربة الماء سنة 908هـ/1502م في مدينة صعده بنصف أشرفي وثمن الطعام بعشرة دراهم صغار، ونتيجة لهذا التدهور العامة أصيبت العملة بالتزييف[93] ومن دون شكّ أن هذا الوضع سيكون له الأثر السلبي على حياة الناس.

إذا كانت الأوضاع الاقتصادية والمتعلقة بالإنتاج والأسعار بالحالة التي رأيناها. فإننا نتساءل عن موارد الدولة ومداخيلها وعلاقة ذلك بالسكان.

---

91) ابن الديبع الشيباني الزيدي عبد الرحمن...مرجع سابق، ص 162 (للمزيد انظر: نيكولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516م-1574م)، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص119.)

****) من الصراعات العائلية ما وقع بين عامر بن عبد الوهاب وأقاربه طمعا في الحكم بالمناطق الجنوبية ومنها صراعه مع عمّه عبد الله بن عامر وإخوته (انظر نفس المرجع). وإذا كانت صراعاته مع أقاربه تميز بسهولة السيطرة والتفوق عليهم فإن صراعاته مع الزيديين كانت مضعفة للدولة.

92) إبن الديبع: المرجع نفسه، ص ص 45، 46.

93) إبن الديبع: المرجع السابق، ص ص 220، 231، 254.

رغم تعدد موارد الدولة العامرية المالية من جباية على التجارة بنوعيها الداخلية والخارجية بين المدن كزبيد والحديدة والضحى و**مكّة** وغيرهما. والتجارة الخارجية مع مصر والهند والشّام والعراق[94]. وبالإضافة موارد الموانئ العدنية وفضلا عن الهدايا من عبيد وعنبر وجلود النّمور، وتطبيق الضمان*، ولكن كل هذه التدابير لم تنفع، فقامت الدّولة بابتداع ضريبة الأقيال** إلّا أن الدهن الذي أصاب الاقتصاد اليمني قد استفحل[95]. و لم تعد تلك الاجراءات الاقتصادية تنفع أمام كثرة الحروب الاستنزافية، وهكذا يضاف السبب (العامل) البشري إلى جملة العوامل التي أثرت سلبا على الاقتصاد اليمني. ومما زاد في تدهور الوضع اليمني عموما والاقتصادي على وجه الخصوص: إقدام البرتغاليين بقيادة البحار أوفنصو البوكيرك (Ofonso Albuquerque)*** على إغلاق المنافذ البحرية، وإقامة حصار بحري لكسر التّجارة العربية[96]. الوضع الاجتماعي: كان المجتمع اليمني خلال هذه الفترة مقسّما إلى فئات وطوائف ومذاهب فمنهم الزّيديون ومنهم الإسماعيليون، كما يتكوّن من قبائل وعائلات وعلماء، وفيه عرب وأكراد، وبدو وحضر[97].

كما سادت اليمن مع مطلع القرن السادس عشر سنوات عجاف، حتى انتشر الفقر وساءت الأخلاق ولا شك وأن تأثيرها سيكون شديدا على المجتمع. فنتيجة للوضع الاقتصادي المتدهور وندرة السلع وغلائها في آن واحد تفشّت في جسم المجتمع أمراض كثيرة سواء كانت جسمانية كالوباء الذي حلّ باليمن عام 904هـ/1498م وغيره حتّى بلغ عدد الهلكى 60 فردا يوميا[98]. أما الأخلاقية، فإبن الديبع الشيباني يذكر في كتابه « الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد» وخلاصة ما جاء فيه من أحوال مدينة زبيد أن المدينة خلال عام 909هـ/1503م كانت أحوالها سيئة وتوحي بتفكك وتدهور خطيرين من جراء انتشار

---

[94]) المرجع نفسه، ص 81.

*)هو التزام أحدهم بدفع مبلغ معين لقاء جباية الأموال من منطقة معينة. (ذات المرجع، ص 80)

**)الأقيال ضريبة استجدّها "آل طاهر" للزيادة في موارد الدولة وهي تقابل ضريبة المجابرة في الدولة المملوكية وضريبة المعونة في العهد العثماني.

[95])ابن الديبع: المرجع نفسه، ص ص 78، 79.

***) بحار برتغالي (1453م-1515م) مؤسس المستعمرات البرتغالية بالهند.

[96]) طارق نافع الحمداني: مرجع سابق، ص 12.

97) أبو علية عبد الفتّاح حسن،الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، دار المرّيخ للنّشر، الرّياض، (د.ط)،2008، ص 276 .

[98]) ابن الديبع: مرجع سابق، ص 146.

الكثير من الآفات الاجتماعية وأمهات الخبائث والكبائر في أوساط المجتمع، و لم تستثن صغيرا كان أم كبيرا، فمارس الناس الفسق والفجور وانتهكوا حرمة رمضان، وشربوا الخمر وصاحبوا الأحداث جهارا نهارا وشهادة الزور، حتى أن أحدهم باع بنتا له، وكل هذا حدث في هذا الوقت وفيما قبله وفيما بعده* دون أن يستنكر أحد حسب تعبير الكاتب بقوله: « و لم تنتطح في ذلك عنزتان»[99] . وهذا ما يدل على هوان المجتمع وتدني القيم الأخلاقية والاجتماعية، وبالتالي فعل الفقر فعلته.

ولقد صدق من قال: " كاد الفقر أن يكون كفرا" أو كما قال. ومع ذلك فإنّ الحرة تموت جوعا ولا تسترزق من ثديها أو كما يقال. و لم يكن الوضع الصحي المتدهور مقتصرا على اليمن فقط، بل كانت بلدان المشرق العربي كشبه جزيرة العرب والعراق ومصر تعاني هي الأخرى من وضع اجتماعي متدهورا، كان أبرزه انتشار الأمراض والأوبئة بين أوساط المجتمع العربي والتي انتقلت منه إلى بلاد المغرب[100].

-المبحث الثالث: أوضاع العراق.

1- موقع العراق وأهمّيته:

يتموقع العراق مذهبيا بين مذهبين (السني والشيعي)، فهو محل تجاذب وصراع، ويقع على رقعة اتصال بين الشرق الأدنى والشرق الأوسط. وعموما فهو حلقة اتصال وملتقى الطرق التجارية .كما يقع على امتداد نهري، دجلة والفرات، ابتداء من جنوب هضبة الأناضول إلى غاية شط العرب؛ وبذلك كانت التسمية القديمة للعراق هي: بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) أو بلاد الرافدين، وبالإضافة إلى ذلك اتصاله بالخليج العربي الفارسي*. ولا شك أن هذه المعطيات الجغرافية يكون لها بعض الأثر على الأوضاع السائدة به .

1.1-الوضع الأمني.

*) يشهد الكاتب على أنّ ذلك حدث في وقته فهو معايشا للأحداث وبذلك فهو صادق، وفيما قبل فقد قرأ أو سمع عنه والعهدة على الرّاوي، أمّا وفيما بعده فلا ندري هل هذا من باب الكهانة أم من باب الاستشراف التاريخي ؟.

[99])ابن الدييع: مرجع سابق. ص 177.

100) فلة موساوي -القشاعي، الواقع الصحي والسكاني في الجزائر أثناء العهد العثماني و أوائل الإحتلال الفرنسي (1518- 1871)، وزارة الثقافة، الجزائر، ص 83.

*) اعتمد صيغة النسبة المزدوجة (العربي، الفارسي) إيمانا منا لأحقية كل من العرب والفرس في الخليج، كم أن الوضع الجغرافي –في نظرنا- له الأولوية قبل الوضع التاريخي.

إنّ الوضع العام في العراق لا يختلف كثيرا عن الأوضاع السائدة في بلدان المشرق العربي، مع بعض الفروقات الظرفية والمحلية والخاصة بكل بلد. فكما أشرنا سابقا فإن موقع العراق يتميز بالحساسية نتيجة تجاور مذهبين متصارعين ومتنافسين، وتركيبة بشرية متنوعة. وعليه فإن أوضاعه ميزها الاضطراب والصراعات وزادها التركيبة العشائرية لسكانه وبالتّالي فالولاء للعشيرة على حساب الأمير أو السلطان. ومع بداية القرن الـ 16م قد ظهرت نيّة البرتغاليين في الأفق وصاروا يهدّدون العراق من الناحية الجنوبية. وهكذا أصبح المجتمع العراقي يعاني من ثالوث خطير: السياسة المذهبية التي مارسها الصفويون والخطر الصليبي الذي يحمله البرتغاليون والثالث غياب سلطة المماليك التي انهارت بالقاهرة منذ 1517م وأصبحت الحاجة إلى الحماية أكثر من ضرورة، فلا غرو إذا من مراسلة السلطان العثماني وطلب حمايته[101]. بعد ما بلغت أوضاعه حالة الانهيار مع بداية القرن السادس عشر[102].

2.1-الوضع السيّاسي:

لقد تميز العراق بما فيه البصرة بوضع متقلب فتارة في يد الصفويين وأخرى تحت سيطرة العثمانيين، وأحيانا أخرى تستولي عليه قوى محلية. ففي عهد السلطان سليم الأول كان العراق خاضعا للشاه إسماعيل الصفوي (1499م-1524م) وذلك منذ حملته عليه بقيادة لالا حسن الذي استولى على بغداد عنوة عام 920هـ/1514م، بعد ما فتك بأهلها السّنة ومسيحيها. وبعد ما استتبَّ له الوضع، استناب عنه على العراق إبراهيم خان[103]، ثم قام بزيارة العتبات المقدسة* ومنها عاد إلى مقرّه بإيران تاركا قسما من جنوده لحماية المدينة (بغداد).

لكن بعد أربعة سنوات تسقط بغداد من جديد من يد الصفويين ويستولي عليها ابن رئيس قبيلة الكردية، الأمير ذو الفقار بن نخوذ من عشيرة كلهور عام 930ه/1524م. وأسس بها دولة وبسبب خوفه من خليفة الشاة إسماعيل الصفوي "طهماسب" احتمى بالسلطان سليمان المشرع لكن سرعان ما استعاد

101) ايفانوف نيكولاي: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574)، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1988 ص 88.
102) الشناوي: مرجع سابق ص65.
103) علي ظريف الأعظمي: مختصر تاريخ البصرة، تحقيق: عزة رفعت، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، (د.ط)، 2001، ص 142.
*) العتبات المقدسة هي: بكربلاء والنجف بالعراق والتي بها مدافن آل البيت منهم الإمام علي (ض) والحسين .

"طهماسب الصفوي" بغداد عام 936هـ/1530م من يد ذو الفقار بعد قتله مستعينًا في ذلك عليه بإغراء أخويه، ثم يستأنف طهماسب الصفوي اضطهاده للسُنّة[104]. واستمر الوضع على هذه الحال إلى غاية عام 941هـ/1535م لّما أرسل السلطان العثماني الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" إلى العراق (بغداد) أما البصرة فقد كانت أيام مجيء سليمان المشرع تحت حكم أمير فارسي يدعى "راشد خان".

104) علي ظريف الأعظمي: مرجع سابق، ص 106.

الفصل الثاني

التواجد العثماني في بلاد المشرق العربي

تمهيد

المبحث الأول: المشرق العربي.

المبحث الثاني: التواجد العثماني بالشام ومصر(1516م،1517م).

المبحث الثالث: التواجد العثماني بالحجاز واليمن.

المبحث الرابع: التواجد العثماني بالعراق والخليج(الأحساء).

تمهيد

قبل الحديث عن التّواجد العثماني بالمشرق العربي، نرى من الأنسب أن نبرز أهم الأحداث ولو بشكل مقتضب لمعرفة أوضاع الدولة العثمانية قبيل وبداية القرن السادس عشر والتي تزامنت مع فترة تسلطن السلطان بايزيد الثاني (1481/1512م).

لقد عاشت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة جملة من الأحداث ؛كانت قد طبعت أوضاعها بطابعها، ومن ضمن ما عاشته صراع الأشقاء حول العرش، والمتمثل في انشقاق الأخ الشقيق الأصغر " الأمير جم" عن العرش العثماني، والذي أعلن عصيانه، وشق عصا الطاعة، شاهرا سيفه في وجه أخيه محاربا تارة، وتارة أخرى لاجئا إلى أعداء الدولة العثمانية، ومتسبّبا في وضع نفسه أداة ضغط في أيديهم، وهذا ما يفسّره سحب الجيش العثماني المرابط بإيطاليا آنئذ، وانشغال الباب العالي بتمردّه، كما نازع علاء الدين عمه السلطان سليم الأول سنة 918 هـ/1512م وأعلن عصيانه بمدينة بورصة[1]، بالإضافة إلى إثارة الفتن وتكوين الملالي*، بتوجيه من الشاه إسماعيل الصفوي[2].كما عرفت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة أوضاعا غير مستقرة على المستوى الخارجي والتي تمثلت في حملتين عسكريتين على مورافيا عام (888هـ/ 1483م) كما تميزت أوضاعها بالارتباك والاضطراب مع دولة المماليك المجاورة .حيث وقعت صدامات وحروب بينهما خلال الفترة الممتدة من سنة 1485م إلى غاية 1495م، وهو تاريخ وفاة الأمير (جم)**، وعلى إثر ذلك تمّ عقد الصلح بين الدولتين، لتجنحا إلى السّلم، ولتستأنف الحرب من جديد مع كل من بولندا والمجر وإسبانيا والبندقية[3].

إنّ الحديث عن التواجد العثماني بأقطار المشرق العربي لابدّ وأن يسبق بالإشارة إلى أن كل جزء من البلاد المشرق العربي، تواجد به العثمانيون ،وضموه إلى إمبراطوريتهم، كان يختلف عن غيره من الأجزاء الأخرى، من حيث التّوقيت، والظروف التي واكبته، سواء كانت داخلية على مستوى السلطة المحلية وأحوال

---

1)عزتلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، مكتب مدبولي، القاهرة، ط1، 1995، ص 58.

*) الملالي: جمع مُلّا وهو رجل دين، وتعني مرتبة دينية فكان الشباب التركمانيون يُجمعون من الأناضول ويُرسلون إلى أردبيل (وكر الصفويين) ليتلقوا تعليما دينيّا، وهو ما تسبب في حركة مناهضة فيما بعد.

2) أحمد آق كوندوز، مرجع سابق، ص 192.

**) توفي الأمير (جم) يوم 25 شباط/فبراير 1495م (أنظر: خليل إنالجيك تاريخ الدولة العثمانية،ص،51) وانظر:ها، ص 55.

3) أحمد آق كوندوز، المرجع نفسه،ص193.

السكان، أو خارجية تتعلق بعلاقات الدّولة العثمانية مع محيطها الخارجي[4]. ولذلك فلا غرابة فيما نجد من اختلافات في كيفية تواجد العثمانيين ببلاد المشرق العربي وعلاقة الباب العالي بكل بلد.

كما أنّنا نود الإشارة إلى أنّ رغبة الباب العالي في التواجد ببلاد المشرق العربي، كانت مبكّرة؛ وترجع إلى عهد السلطان بايزيد الثاني (1481م-1512م)، ومن قبله والده السلطان محمد الفاتح (1451م-1481م)، اللذان طمحا في ضم الدولة المملوكية إلى الدولة العثمانية وتحقيق الوحدة الإسلامية[5].

المبحث الأول: التواجد العثماني في المشرق العربي:

لم يلق العثمانيون خلال توسعهم الجغرافي في بلاد المشرق أي صعوبة أو أي تعقيد كما لاقوها في بلاد الأناضول، والبلقان؛ والسبب في ذلك يعود إلى: كون منطقة المشرق العربية كانت في معظمها تحت السيادة المملوكية كبلاد الشام ومصر، وتابعة لها، كالحجاز واليمن، وكانت بناء على أوضاعها الدّاخلية، والأحوال الجيوستراتيجية المحيطة بها، مهيّأة لاستقبال العثمانيين مع التّرحيب بهم .

لما عاد السلطان "سليم الأول" سنة 1515م من تبريز* التي دخلها عنوة بعد معركة جالديران** (920ه\1514م) ضم إليه إمارة ذو القادر الحدوديّة نهائيا، وخلال 1514م و 1515م أصبحت كلّا من ديار بكر، ماردين، الموصل، سنجار، حصن كيفا، العمادية وجزيرة ابن عمر تحت مضلّة الدولة العثمانية وكانت هذه بداية البدايات للتواجد العثماني ببلاد المشرق بدءا بشماله الشامي سنة 1516[6]. والجدير بالذكر هو أن السلطان العثماني لم ينته من محاربته الصفويين واستكمال ضم أراضي ديار بكر وغيرها حتّى أخذ

---

[4]) يوجين روجان: العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، تر: محمّد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، ط1، 2011، ص 43 .

[5]) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، ط3، 2012، ص67.

*) تبريز: مدينة بالشمال الغربي من إيران كانت عاصمة المغول والصفويين سابقا. (انظر:المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق: بيروت . ط29 1986، ص 168.

**) جالدران منطقة سهلية جرت عليها وقائع المعركة بين سليم الأول وإسماعيل الصفوي وهو الآن من أراضي أذربجان. (انظر المنجد في اللغة والأعلام، المرجع السابق، ص 195).

[6]) عباس إسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية – الإيرانية الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، دار النفائس،بيروت، ط1، 1420هـ/1999م، ص ص 35، 36.

يستعد ويعد العدّة لضم مملكة المماليك[7] كأوّل مرحلة من مراحل الزّحف العثماني على بلدان المشرق العربي. مبتدأ ببلاد الشام* المجاورة للدولة العثمانية[8].

1) المشرق العربي جغرافيا :

المشرق العربي هو الرقعة الجغرافية الثانية مع رقعة المغرب العربي اللتان تكونان معا بلاد العرب أو الوطن العربي، وتقيّدًا بالنّطاق الجغرافي للبحث، ستقتصر كلمتنا على المشرق العربي. فهو الجزء الآسيوي من الوطن العربي والذي يتكون من جزيرة العرب والهلال الخصيب، بالإضافة إلى مصر وبلاد النوبة بإفريقيا؛ وبهذه الرقعة تكون حدود المشرق العربي من الشمال جبال طوروس بآسيا أما من الشرق فتحدّه مياه الخليج[9] (العربي/ الفارسي)** وبلاد الفرس (إيران حاليًّا).

2)المشرق العربي اصطلاحا :

لقد عرفت المنطقة -موضوع الدّراسة -العديد من التسميات عبر التاريخ ويعود ذلك إلى تغير الأوضاع فالمشرق العربي يقع في المنطقة المسماة: بالشرق الأوسط (The middle East) فهو جزء منه وقد شاع هذا الاسم خلال الحرب العالمية الثانية بعد ما ظهر لأول مرة عام 1902م، وباستعماله احتجب اسم الشرق الأدنى The near East الذي كان يطلق على المنطقة وكذلك على الجزء الأوربي الذي كان تحت الحكم العثماني وأطلق الأوربيون اسم الشرق The East ابتداء من العهد الفارسي واجتياحهم لبلاد اليونان إلى غاية الانسحاب العثماني من المنطقة ولما برز مصطلح المسألة الشرقية (Eastern Question) اختفى مصطلح الشرق الأدنى وحلّ محلّه مصطلح الشرق الأوسط رغم الاختلافات المتباينة[10].

---

[7]) المحامي محمد فريد بك، تاريخ العلاقات العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت (لبنان)، (د.ط)، 1430هـ/2009 ص192.

*)أجرى العثمانيون بعد دخولهم بلاد الشام (1516م) تغيرات بالمنطقة؛ فبلاد الشام أطلق عليها اسم: " عرب ولايتي = ولاية العرب ثم "ايالة الشام" أو ولاية الشام الشريف" ودمشق مركز لها. (أنظر: فاضل بيات مهدي، الدولة العثمانية في المجال العربية ، ص، 159 نقلا عن الوثيقة رقم 9772 طوب قابي سراي، استانبول).

[8]) انظر الملحق 16 ص، 180" مرسوم" السلطان سليم الأول العثماني لفتح الشام ومصر.

[9]) عمر عبد العزيز عمر،مرجع سابق، ص 11.

**) الخليج العربي الفارسي، هذا توصيف من عندنا تفاديا للحيرة التي أوقعنا فيها بعض الكتّاب فمنهم من يلحق الخليج بالعرب ومنهم من يلحقه بالفرس. (وانظر تهميشنا، ص48، بالفصل الأول من هذا البحث).

[10]) عمر عبد العزيز عمر،مرجع سابق، ص ص 14،15،12 .

3) أسباب ودوافع التواجد العثماني بالمشرق العربي.

لقد انقسم المؤرخون والمهتمّون بالشّأن العثماني خاصّة بمرحلتي (عهدي) السلطانين "سليم الأول" وابنه من بعد السلطان "سليمان المشرّع" حول الأسباب والدواعي التي غيّرت وجه الباب العالي من مواصلة الفتح في العمق الأوربي إلى التحول نحو المشرق العربي.

ففريق يرى بأن التوقف عن مواصلة الفتح بأوروبا يعود إلى ظهور الخطر الصّفوي من خلال انتشار التشيع في أجزاء من العراق والأناضول وبالتالي لابد من التصدي له وحماية العالم السني منه، وهذا ما ذهب إليه المؤرخ "أرنولد توينبي" والمؤرخ هولت (P.M. Holt) .

وفريق ثاني يرى بأنّ الخطر البرتغالي المتنامي بالمياه الجنوبية وتطويق العالم الإسلامي من الجنوب استلزم التصدّي له وإلّا ضاع النشاط البحري عبر البحر الأحمر، وضاعت معه التجارة الخارجية خاصة مع الهند، ناهيك عن الخطر والتهديد الصّريحين من قبل البرتغاليّين.

أما الفريق الثالث من المؤرخين فإنّ التشيّع الذي بلغته الجيوش العثمانية من جراء الغزو والفتح في أوربا قد بلغ مداه مع نهاية القرن 15م، وصارت سيوف العثمانيين لا تأنف من أغمادها، وعليه فلابد من التوجه إلى المشرق العربي كوجهة جديدة[11]. ونحن ندعم هذا الرأي إذا ما أخذنا فشل الجيوش العثمانية أمام أسوار فينّا في الحسبان. لكن ومع ذلك، فإن كل الأوضاع والمعطيات التي تحجَّج بها كل فريق، إنّما هي عوامل وأوضاع مؤثرة، فـــــــــــــ(العداء) الشيعي السني وما انجرّ عنه من صدامات، وعداء البرتغاليّين وخطرهم العسكري والاقتصادي وحقدهم الديني، والصعوبات التي بدأت تلوح أمام الجيش العثماني بأوروبا، كلها اجتمعت وانبرت عنها فكرة تغيير الوجهة من أوربا نحو المشرق العربي.

وهكذا لا يكون إلا وفق ما يراه الباب العالي من مصلحة للدولة العثمانية، حسب قول المؤرخ العثماني جودت: « إنّ الدولة العثمانية كانت ترى أن مصلحتها تستوجب جمع القوى التي تشكل العناصر الأساسية لوحدة الخلافة الإسلامية في الشرق والغرب والهند والسند تحت قيادتها »[12].

---

[11]) المرجع نفسه، ص 88.

[12]) بيات فاضل مهدي، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الآفاق والمصادر العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003، ص 15.

و من باب الاختصار فإنّ الأسباب التي دعت العثمانيين إلى التّواجد بالمشرق كثيرة، ومتداخلة؛ لكن إذا ما حاولنا الوقوف عند أهم وأبرز ما فيها، يمكن أن نبرز ما لخّصه المؤرخ محمد حرب في ثلاث نقاط وهي[13]:

-تنامي وتزايد تحرّشات الدّولة الصفوية وتهديداتها للدّولة العثمانية من الخلف منذ عهد السلطان بايزيد ، بالتدخل في الأناضول*، وتحريض أتباع المذهب الشيعي المتواجدين به.

-بروز الخطر البرتغالي ومحاصراته لجزيرة العرب وتهديده للمدينتين المقدستين "**مكة المكرمة" و "المدينة المنورة**" عبر الخليج العربي الفارسي، والبحر الأحمر. وبالتالي أصبحت ضرورة إحداث توازن دولي خارجي بين القوى الدولية البارزة آنذاك (البرتغاليون والصّفويّون والعثمانيّون)[14].

-التحالف والتقارب الصفوي - المملوكي ضد الدولة العثمانية.

كما يعتبر استقبال ملك مصر الأمير"جم" أخ السلطان بايزيد الثاني وحمايته بعد انشقاقه عن الباب العالي ومعارضته من بين أسباب العداوة بين الدولتين العثمانية والمملوكية، بالإضافة إلى اعتداءات المصريين على ولاية ذو القدرية التابعة للدولة العثمانية. فهذان الحدثان كانا من بين ما أجج نار العداوة بينهما[15].

-المبحث الثاني: التواجد العثماني بالشام ومصر:

أولا: التواجد بالشام وأسبابه.

لقد كان التواجد العثماني في بلاد المشرق العربي من أكبر الأحداث التاريخية التي ربطت التاريخ العربي بالتاريخ العثماني وإذا كانت معركة مرج دابق بتاريخ 24 أغسطس 1516م ونتائجها حدثًا مفصليا في تاريخ

---

[13]) محمّد حرب، مرجع سابق ، ص24.

*) الأناضول: (آسيا الصغرى) وهي الجزء الأكبر المكوّن لمساحة تركيا الحالية (97% من المساحة الإجمالية: 779 452 كم2. وهي شبه جزيرة على شكل لسان ممتد من آسيا نحو أوروبا. (انظر: دليل فودورز (fodor's) السيّاحي تركيا، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 1994، ص 42).

[14]) عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، 1998، ص 47.

[15]) إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروفة بالتحفة الحليميّة في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، 2004، ص 10.

المنطقة خصوصا وتاريخ العثمانيين على وجه العموم ، حتى اعتبره بعض المؤرخين بأنه حدث يفوق فتح القسطنطينية* ومن هؤلاء المؤرخين: المستشرق فرناند بروديل(Fernand-Braudel) [16].

إن الأسباب والعوامل التي ساعدت على اجتياح العثمانيين بلاد الشام، والتوسع على حسابها عديدة ومختلفة؛ فمنها ما يتعلق بالجانب السياسي بين العثمانيين والمماليك ومنها ما يتعلق بالجانب التخطيطي من قبل العثمانيين والتصدي للصفويين؛ ومنها الجانب العسكري كعدم توازن قوة الجيشين العثماني والمملوكي. ويضاف إلى ذلك الأوضاع الداخلية في دولة المماليك والتي شجعت السلطان العثماني على الإقدام والقدوم. كما أن العامل الجغرافي يعد كعامل مساعد على ذلك. فبحكم محاذاة بلاد الشام لمنطقة الأناضول العثمانية كانت هي الأقرب وأولى بالتواجد العثماني بها، وبذلك يكون الموقع من العوامل المساعدة، كما أن سياسة المماليك المسيئة في تدبيرها وتسييرها أدى إلى خرابها وتدميرها، وذلك لما جبلوا عليه من العسف والتعدّي وسلوكهم غير الجدّي بها حتى بلغ بأهلها الظلم والإهمال والفوضى والتردّي في الأحوال المعيشية مبلغا كبيرا. إن هذه الحالة قد سهلت على آل عثمان الإغارة على دولة الغوري من أطرافها الشمالية وإنقاذ سكان بلاد الشام[17]. ولهذا فمن الطبيعي أن يُرى في العثمانيين الأمل والخلاص من الضّيم المملوكي وسياستهم الجائرة. وذلك ما عبر عنه أهل الشام وأعيانه إلى السلطان العثماني من خلال رسالتهم.(أنظر الملحق 14)

فبعدما تم تحجيم القوّة الصفوية على إثر معركة جالديران عام 920هـ/1514م بدأت أنظار العثمانيين ترنو إلى بلاد المشرق العربي، وبدأت أعنّة خيولهم تُجذب نحوها وكان لهذا التوجه الجديد ما يكفيه من التبرير والدوافع ومنها:

- بروز العثمانيين كقوة إسلامية مشرقية حديثة والأجدر بالمبادرة على مستوى المشرق العربي في تصدر المشهد السياسي وحتّى على المستوى العالمي.
- الإحساس بمسؤولية الدفاع عن المسلمين بمجابهة الخطر المسيحي، الذي خفت بعد الحروب الصليبية ثم ظهر مع الكشوف الجغرافية من جديد.

---

*) لا نشاطر رأي بعض هؤلاء المؤرخين لأنّ هناك فرق كبير بل لا وجه للمقارنة بين الحدث الذي بشّر به النبي محمد (ص) بقوله: "**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**" وبين الحدث الذي لم ينل هذا الشرف.

[16]) Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de ¨Philipe, 2, 2é éd, T2, Librairie Armand Colin, Paris 1966, P 17 .

[17]) الطهْطاوي رفاعة رافع بن بدوي بن علي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية،دراسة مصطفى لبيب وتقديم حلمي النمنم،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)،2010،ص، 205.

-الخلافات التي نتجت عن الاحتكاكات العثمانية المملوكية من جراء: احتضان المعارضين**، والخلافات الحدودية حول ضم إمارة البستان*** وانقسام حكامها بين موال ومعارض للدولتين[18].

-تطلع العثمانيين صوب الأماكن المقدسة والحرص على نيل شرف حمايتها والإشراف عليها.

-اكتشاف العلاقات والاتصالات السرية بين المماليك والصفويين من قبل العثمانيين.

-الاتهامات المتبادلة بين الطرفين حول التعرض إلى قوافل التموين العسكرية العثمانية والتجارية المملوكية[19].

-بالإضافة إلى العامل الاقتصادي. حيث أن التواجد العثماني بالشام ومصر وضم المزيد من الأراضي والمساحات يعتبر زيادة في الموارد وبالتالي تحصلت الدولة على واردات جديدة وهو ما يسمح لها بالخروج من الصعوبات المالية ولو لوقت قصير[20].

-تعرض مياه الأحواض والبرك والآبار بطريق الحج التي يستقي منها الحجاج إلى الدمار والخراب وكذلك الرغبة في كسب ولاء إمارة ذو القدرية الواقعة على حدود الدولتين، وأيضا إيواء بعض الأمراء العثمانيين المعارضين[21].

فبعد ما تجمعت كل هذه الأسباب وتفاعلت، باعدت بين عوامل السلام وقربت بين عوامل الصدام ، وزاد أهالي الشام في إذكاء نارها وتشجيع زعمائهم للعثمانيين برسائلهم على القدوم، وإبداء ضجرهم من المماليك إلى أن حدث الصدام في موقعة مرج دابق بتاريخ 25 رجب عام 922هـ// 24 أغسطس/آب 1516م.

**) من المعارضين: الأمير (جم : Gem) ابن السلطان محمد الفاتح الذي لجأ إلى المماليك،مستنصرا على أخيه بايزيد الثاني.

***) تقع إمارة البستان على نهر الفرات بين بلدتي مرعش وملاطية، وهي إمارة تركمانية تنافست على ضمها الدولتان(العثمانية و المملوكية).

[18]) عمر عبد العزيز عمر، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، دار المريخ، الرياض، (د.ط)، 2008، ص ص، 144-145.

[19]) المرجع نفسه، ص ص 145،146.

[20]) Sahillioglu Halil : L'histoire sans l'europe, Années Sévis et crises monétaires dans l'empire Ottoman, trad : du Turc en anglais par Ilter Turan, et de l'anglais en français par : N. Godneff, p,1061,(conférence sur l'histoire économique du moyen orient faite à la school of oriental au studies à Londres, le 4-6 juillet, 1967.)

[21])فاضل بيات مهدي الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2007، ص 125.

فلمّا قرر السلطان العثماني سليم الأول الدّخول إلى بلاد الشام، و همّ بذلك تلمّس الأسباب والحجج الشرعية لذلك، فقام بجمع طائفة من العلماء لمشاورتهم في أمر تعاون السلطان المملوكي قانصوه الغوري* مع الشاه إسماعيل الشيعي وموقف الشرع من ذلك، فسألهم:

«ما أمر من يمدّون يد المساعدة لطائفة الكزل باش؟»* فأفتوه بأن من يساعدون ويظاهرون طائفة "الكزل باش" فهم منهم. فبموجب هذه الفتوى التي افتكّها السلطان "سليم الأول" من العلماء، يكون قد شرعن زحفه على بلاد المماليك (الشام وما بعدها) وخاصة بعدما قبضت مخابراته على جواسيس "الشّاه الصفوي" وهم في طريقهم إلى مصر ليسلموا للسلطان "قانصوه الغوري" رسائل تتعلق بتحالف الشاه الصفوي مع المماليك ضد العثمانيين،[1] وعلى إثر ذلك وقعت موقعة مرج دابق**** بتاريخ 25 رجب 922هـ الموافق لـ 24 أغسطس/آب 1516م وهزم فيها السلطان العثماني سليم الأول السلطان المملوكي قانصوه الغوري ثم دخل مدينة حلب، وولّى عليها "قوه جه باشا"، ثم بعدها سيطر على مدينتي:حماه، وحمص***** وبعدهما دخل دمشق بسهولة وانقاد له الدّروز، والعربان، ومشايخهم، واستولى على قلاع نابلس، والقدس، وغزّة، ومنها توجه إلى مصر[2].

---

*) قانصوه الغوري: (1440م-1516م)، سلطان مملوكي حكم ابتداء من 1501م من أصل شركسي، عايش خيانة الأمراء المحيطين به وأزمات اقتصادية وتهديدات البرتغاليين وساعد سلطان غجرات بالهند، مات في معركة مرج دابق. انظر معجم الإسلام التاريخي، دومنيك سورديل وآخرون، تر أنطوان الحكيّم وآخرون، الدار اللبنانية للنشر الجامعي أنطالياس (لبنان)، 2009، ص 729.

**) الكزل باش (أي ذوو الرؤوس الحمراء): هم طائفة تركمانية شيعية يلبس أفرادها قلانس حمراء على رؤوسهم، تمرّدوا على السلطة العثمانية بتحريض من الدّولة الصّفوية. (انظر:حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر القاهرة، ط1، 2004، ص 111).

1) ماجدة محلوف، القانون ... مرجع سابق، ص26، ها (2)، نقلا عن محمد حرب، حملة سليم الأول على مصر، استانبول، (د.ط)، (د.ت)، ص،111. و(انظر الملحق)

***) مرج دابق: موقع بشمال سوريا بالقرب من مدينة حلب قرب محلة دابق، وبها هزم السلطان سليم الأول السلطان قانصوه الغوري وبها مات ودفن الخليفة العباسي عبد الملك.(انظر ماجدة مخلوف المرجع نفسه، ص406).

****) حمص: سميت باسم رجل من العماليق يسمى حمص ويقال سميت على أول من بناها هو: حمص بن المهر بن جان بن مُكْنف،وقيل:حمص بن مكنف العمليقي.(انظر الألفاظ الأعجمية في الأمثال العربية لفتح الله أحمد سليمان، دار الآفاق، القاهرة، 2010، ص49).

2) حليم إبراهيم بك" تاريخ الدول العثمانية (التحفة الحليمية)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1408، ص121.

بعد معركة مرج دابق ومقتل قانصوه الغوري، تقدم الأعيان من العلماء والمشايخ والسادات العظماء من حلب والشام، إلى العتبات السلطانية، وقدموا ولاءهم وطاعتهم. وتعتبر هذه الخطوة -في رأينا- نهاية للفترة المملوكية وبداية للمرحلة العثمانية، ومن بين شخصيات مشايخ العرب والزعماء الذين تشرفوا بالعتبات السلطانية وقدّموا الولاء، يذكر شرف خان البدليسي في كتابه شرف نامه في الجزء الثاني منه كلا من:« ابن حنش، وابن حرفوش، وابن سعد، ومشايخ جبل نابلس، وبني إبراهيم ، وبني سوالم، وبن عطا، ومشايخ صفد والرّملة والقدس الشريف وغزَّة ».

ومن خلال توزع الزعماء والمشايخ الذين قدموا ولاءهم للسلطان العثماني على جغرافية بلاد الشام يتبين لنا أن الولاء كان شبه شامل لكافة مناطقها، وهذا ما يبرر سرعة وسهولة زحف السلطان سليم الأول على قاهرة مصر والاستيلاء عليها حسب تعبير البدليسي*.

والاستنتاج العام الذي يمكن استخلاصه هو أن التواجد العثماني بالشام كان في عمومه برضى الأهالي، وهذا ما يفسر لنا انقطاع بل وعدم ظهور الحركات والثورات المناوئة بعد ثورة "جان بردي الغزالي". وكذلك ما تؤكده رسالة أهالي الشام التالية إلى السلطان العثماني.

نص الرسالة :

« من أجل حفظ وصيانة أرواحنا وأموالنا وعيالنا ومن أجل حماية وأمن ديننا نقدم لكم طاعتنا، ونرى ضرورة حكمكم من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وتأسيس العدالة »[22].

ويفهم من هذه الرسالة أن أهل الشام كانوا غير آمنين، وأن المماليك غير مبالين بتطبيق الشريعة الإسلامية والتي تكفل لهم حقوقهم كمواطنين ورعايا الدولة. وبالتّالي فهم على استعداد تام للانضواء تحت المظلة العثمانية. ويذكر بعض المؤرخين أن حالة المواطنين بالشام وما آل إليه شعورهم تجاه المماليك، والمدى الذي بلغه نفورهم من الحكم المملوكي ودرجة تعلقهم بالسلطان العثماني سليم الأول، والذي يبدو أن سمعته قد سبقته إلى بلاد الشام.

---

*) هو:شرف خان ابن شمس الدين أمير ايالة بدليس وصاحب المرجع أعلاه.كان له دور كبير في انضمام القبائل الكردية تحت لواء الدولة العثمانية

[22]) أحمد آق كوندوز، مرجع سابق، ص223. نقلا عن: (قوجه، بدائع، الجزء الثاني، ورقة 452/ a.b). ونقلا عن: عالي"كنة الأخبار"،أسعد أفندي، رقم: 2162، ورقة: 249/a/ 251 a.

وممّا ذكره هؤلاء المؤرخون أنّه عندما خرج السلطان المملوكي "قانصوه الغوري" من مصر إلى حلب لملاقاة السلطان سليم الأول تعجب كثيرا بعد سماعه صبية حلب وهم يهتفون في مدخل المدينة بحياة السلطان العثماني سليم ويقولون : "ليساعدك الله تعالى يا سلطان سليم"[23] فإذ كان هذا هتاف الصبية وشعورهم فكيف يكون شعور ورأي الكبار ؟[24]من جراء سياسة المماليك ومعاملتهم الظالمة.[25]

كما قام أشراف وحكام وعلماء وأعيان مدينة حلب* بإرسال رسالة استسلام وطاعة إلى السلطان سليم الأول، وعلى إثر ذلك أُلحِقت كلا من حلب وأنطاكيا وحماه** وحمص وتحولت إلى ايالة عثمانية. ومثلما أعلنت القبائل الكردية والتركمانية طاعتها للدولة العثمانية، فإن العشائر العربية المتواجدة جنوب الدولة العثمانية مثل قبائل حرفوش وابن سعيد وبني إبراهيم وبني سائم وبني عطا، وشيوخ مدن صفد وغزة وأشراف حلب كل هؤلاء قد أعلنوا طاعتهم وولاءهم للدولة العثمانية والانضواء تحت جناحها[26]. إنّ ما تقدم يفهم منه أن التواجد العثماني كان تواجدا مُرحَّبا به بل كان مرغوبا من قبل أهل الشام، وهذا ما يتأكّد لنا من خلال الفصول اللاحقة، و يدعم قولنا حينما فضلنا استخدام مصطلح التواجد العثماني بدل مصطلحات الغزو أو الاحتلال أو الفتح.

كما كان علماء مصر بدورهم يلتقون سرًّا مع السفراء العثمانيين بالقاهرة، ويقصون عليهم شكاويهم آملين في حلول عدالة السلطان العثماني بمصر، وكانوا يراسلونه حول قدومه بجيشه لإنهاء حكم المماليك[27].

---

[23])أحمد آق كوندوز:مرجع سابق، ص 231.

[24]) المرجع نفسه، ص 231، حول العريضة المحفوظة في "طوب قابي" المحرر من طرف أعيان الشام.

[25]) بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور.

*)حلب =(Alep):عاصمة الحمدانيين مدينة:جميلة تقع بشمال الشام، وتخضع لسلطان القاهرة، سكانها مسلمون، وممر عظيم للبضائع الفارسية. هكذا وصفها الرحالة "سوفاجيه (Lodovico di Varthema) عام 1503 بقوله:

,«Aucune autre localité encore habitée et florissante ne peut s'enorgueillir d'un passé historique comparable au sien».

وانظر:D'hina Amar, Cites musulmanes d'orient et d'occident, (E.NA.L), p p 29,30

**)حماه:ذكرها الرحالة (Varthema) خلال رحلته عام 1503م بأن أهلها يزرعون القطن والفواكه (محمود حجر، مرجع سابق).

[26]) أحمد آق كوندوز وسعيدأوز تورك: مرجع سابق، ط1، 2008، ص 214.

[27]) عيسى الحسن: الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009، ص 126.

ومن الأسباب أيضا الأعمال التي تعتبر عدائية وهي الجوسسة حيث كانت هناك مكاتبات سرية حول أحوال السلطان، وما يقع من أخبار المملكة حيث كان تقريب الخواجة إبراهيم السمرقندي والخواجة يونس العادلي والعجمي الشنقجي من أخِصَّاء السلطان قانصوه الغوري، لكنهم كانوا في حقيقة الأمر من موالي ابن عثمان*** في الباطن، حيث لما فقد السلطان الغوري سلطته أظهروا أعين المحبّة لابن عثمان وبدأوا ينقلون أخبار الشيعة له وأصبحوا من جماعته.كما نذكر ممن كانوا مع ابن عثمان في الباطن: المملوكي "خاير بك"**** نائب حلب، فهو أول من كسّر عسكر السلطان ووقف معاديًا له وموالیا للسلطان العثماني، ولبس زي التراكمة والعمامة المدورة وقصّ ذقنه وبات من جملة أمراء بني عثمان، حتى سماه السلطان العثماني "خاين بك" لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان، وهكذا سايرت قوات خاير بك القوات العثمانية وهي تحت طاعة بن عثمان باتجاه مصر[28].

ثانيا: التواجد العثماني بمصر*.

قبل الولوج في موضوع التواجد العثماني بمصر، نود الإشارة إلى أنّ التواجد العثماني بها خلال فترة الدراسة مرّ بمرحلتين هما :

- **المرحلة الأولى**:(1517م/1525م) وهي مرحلة تحطيم القوة العسكرية المملوكية، والقضاء على الحركات المناوئة والتمرّدات على السلطة العثمانية، وما صاحبها من إجراءات عسكرية وسيّاسيّة اتّخذها الباب العالي، وآخرها زيارة مصر قبل الصّدر الأعظم "إبراهيم باشا الدّاماد، (أي: الصّهر) حيث تزوج بأخت السلطان سليمان المشرّع.

- **المرحلة الثانية:** وهي مرحلة الاستقرار العسكري التي تلت المرحلة الأولى واستمرت إلى فترة الدراسة والموافقة لنهاية عهدة السلطان سليمان المشرع (1566م)[29].

***) ابن عثمان: يقصد به السلطان العثماني سليم الأول.

****) خاير بك هو أحد أمراء المماليك كان واليا بالشام قبل الدخول العثماني عام1516م.

[28]) ابن إياس،مرجع سابق، ص 1033.

*) مصر:هو اسم البلد منذ القديم،وبالعبرية تسمى:"مصرييم"، أما في العصور الوسطى فكان يطلق عليها "بلاد مصر" على البلاد كلّها .أما كلمة "مصر" فتطلق على العاصمة (القاهرة). و(انظر موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول (ق8-ق11م)، تر.وتع: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1979م، ص 34)

[29]) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج1: الغزو العثماني لمصر، إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت)، ص ص 7،8.

فكما سبق وأن ذكرنا، فإن هزيمة السلطان قانصوه الغوري، بمرج دابق تعد نهاية للعهد المملوكي وبداية العهد العثماني بمصر وما يتبعها. فبعد نهاية المعركة ومقتل السلطان الغوري، انساحت القوات العثمانية في بلاد الشام دون مقاومة، بل كان السكان من دروز وعرب وموارنة وغيرهم من الطوائف مرحّبين بهم، وهذا ما تعزّزه مراسلتهم للسلطان العثماني[30].من بلاد الشام، وقبل أن يسيّر السلطان سليم الأول جيشه نحو القاهرة، أبى إلّا أن يراسل خليفة الغوري بمصر "طومان باي "ويخطره. فأرسل له رسولا ليعلن له طاعته وولاءه للدولة العثمانية وبذلك يتجنب الجميع المواجهة العسكرية، لكن قلة التقدير وسوء قراءة النتائج من قبل خليفة الغوري، بل وغروره دفعه إلى مخالفة الأعراف الدبلوماسية بقتل الرسول العثماني[31]. فعلى إثر ذلك كسب السلطان العثماني حجّية المبادرة وأحقية الهجوم –كما افتكها سابقا من العلماء من خلال فتواهم فيما يتعلق بالتعاون مع الكزل باش- فسير جيشه قاصدا القاهرة وداعيًا ربّه تسهيل وتيسير دخول مصر[32]، فاتحا في طريقه صفد، ونابلس والقدس وعجلون وغزّة[33] التي وقع بها أول صدام بين القوات العثمانية وقوات حاكم مصر الجديد"طومان باي"؛ وكان النصر فيها للعثمانيين؛ ثم تلتها معركة الريدانية والتي أسفرت عن هزيمة المماليك وسقوط القاهرة في يد العثمانيين، يوم 8 محرم 923هـ/ 1517 م، و بذلك زالت دولة المماليك[34]. وما يذكر عن سهولة سقوط الدولة المملوكية ويسر التفوق العثماني عليها أن هناك جملة من الأسباب والعوامل، والتي تتمثل في إنهاك القوات المملوكية بسبب كثرة وتتالي الثورات التي قادها مشايخ العربان، وهو ما يسمّى في وقتنا الحالي بحرب الاستنزاف، وعدم مساندة هؤلاء المشايخ حاكم مصر: "طومان باي" في موقعة الريدانية[35]. وهروبه إلى احد شيوخ العربان[36] بالإضافة إلى ذلك التراخي الذي ظهر على العساكر المملوكية أثناء القتال، وانقسام النخبة الحاكمة المملوكية إلى مجموعات متنافسة، وتحالف بعضها مع السلطان سليم العثماني[37].

---

[30]) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص 75. (وانظر عيسى الحسن، الدولة العثمانية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009،ص ص 209، 127.

[31]) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ص 71، 74.

[32]) عيسى الحسن، مرجع سابق، ص127. وانظر: عمر عبد العزيز عمر، مرج سابق، ص71.

[33]) أحمد آق كوندوز، مرجع سابق،ص 214.

[34]) عيسى الحسن، المرجع السابق،ص 127.

[35]) ابن ألحمصي، مرجع سابق، ج2 ،ص 417.

36) النهروالي، مرجع سابق، ص ص 281، 282.

[37]) الجبرتي:مرجع سابق، ص7،8.

- أهمية التواجد العثماني بالشام ومصر:

ناهيك عن الأهمية المعنوية التي حققها العثمانيون بانتصار سلطانهم وجيوشه على المماليك وبروز شوكتهم على المستوى الدولي، فإن الأهمية الكبرى تتمثل في نقطتين هما :

- القضاء على عدو كان يشكل خطرا كبيرا، ومحدقا بالدولة العثمانية، خاصة إذا ما تحالف مع الدولة الصفوية.

- كون مصر موردا اقتصاديا لتوفير وتزويد القسطنطينية والجيش العثماني بالقمح، وإرسال جزء منه إلى **مكّة** والاتجار به مع أوربا، بالإضافة إلى الشعير والأرز[38].

وهكذا تحقّق ما تنبّأ به ابن خلدون من قبل 120 سنة قبل التّواجد العثماني حيث ألمح آنذاك بقوله: « لا خطر على مصر إلاّ من بني عثمان». حسب يلماز أوزتونا في موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السيّاسي والعسكري والحضاري، ترجمة عدنان محمد سلمان، مراجعة وتنقيح محمود الأنصاري، مج1، الدّار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، 2010، ص231، (نقلا عن ابن حجر، أنباء الغمر، وقائع:797).

ونستنتج مما تقدم أن العثمانيّين حقّقوا العديد من الأهداف في آن واحد بتواجدهم بالشّام ومصر فأوّلها: الهدف السيّاسي وهو افتكاك الزّعامة السيّاسية على المسلمين من أيدي المماليك وتسنُّمها بدلهم.

وثانيها: الهدف الاقتصادي وذلك بالسيطرة على موارد زراعية كبيرة وطرق وأسواق تجارية . وثالثها: الهدف الاستراتيجي والمتمثل في إبعاد الخطر الأجنبي لاسيما الصّليبي الذي يمثّله البرتغاليون؛ فتوسع الدولة وتمدّد رقعتها وبالتّالي تباعد أطرافها يجعل أيّ احتكاك أو صدام- إذا ما وقع- بعيدا عن المركز.

أمّا رابعها والأهم:-فيما نرى-هو استخلاف الدّولة العثمانية دولة المماليك على عرش الخلافة والإشراف على الأماكن المقدسة وبالتّالي كسب احترام وتجلّة المسلمين.

والنتيجة التي تمخّضت عن دخول العثمانيين وإزالة حكم المماليك هي: هروب بعض الجراكسة، وعدم خضوعهم للأمر الواقع، وهذا – في رأينا- ما قد يؤسس لمناوأة السلطة العثمانية بمصر مستقبلا. فبعد عملية دخول العثمانيّين مصر وإلحاقها بدولتهم هرب الكثير من المماليك إلى الصحراء ، لكن تمت متابعتهم من قبل العثمانيين ثم القبض على البعض منهم وسجنهم، والعفو عن البعض الآخر، كما حدث مع قانصوه العادلي

[38])Michel Hervé, Les débuts de la régence d'Alger de 1518 à 1566, Paris 2005, P 22 .

ورزمك وجانم السّيفي واينال السّيفي، بل تمّ تعيين بعضهم في مناصب هامة، كإسناد كشوفيّة الغربية لا ينال السّيفي وكشوفيّة البهنسا والفيوم لجانم السّيفي[39].

وعلى العموم فإن التواجد العثماني بالشام ومصر كان دون إرهاق أو مشقة[40] ، حسب تعبير فرناند برودال. لكن هذه السياسة العثمانية اللينة- حسب رأينا- ستكون وبالا على السلطة العثمانية، وهذا ما سنراه من خلال تطرقنا لموضوع الحركات المناوئة بمصر.

- نتائج التواجد العثماني بمصر والشام[41]:

1. تعزيز الاقتصاد العثماني بتحويل ما كانت تدفعه البندقية إلى المماليك والمقدر بثمانية آلاف (8000) دوقة ذهب سنويا إلى خزينة الدولة العثمانية.
2. السيطرة على الطريق التجاري للبحر الأحمر وبذلك تضاعفت واردات الدولة وزاد مخزون خزانتها .
3. منع سيطرة البرتغاليين على اليمن والحجاز وحتى الحبشة، وإبعاد خطر التهديد الصليبي.
4. انضواء الأماكن المقدسة (**مكة** والمدينة) تحْت لواء الدولة العثمانية مما أكسبها عظمة و ريادة في العالم الإسلامي.
5. ضم بلدان ومساحات مهمة ومعمورة في آسيا وإفريقيا وامتدت حدودها من القرن الإفريقي جنوبا إلى أواسط أوربا شمالا.
6. الاستحواذ على موارد طبيعية إضافية كمناجم الذهب الكثيرة في مصر وجنوبها[42].

4-التواجد العثماني بمصر وانتقال الخلافة:

إذ كان التواجد العثماني بمصر قد حُسم أمره وكانت معظم الدلائل تكاد تتفق على الترحيب به (أنظر الملاحق: 12، 13، 14) أو على الأقل حتميته. فإنّ موضوع انتقال الخلافة هو الذي يبقى مثيرًا للجدل ومحتاجا للبحث. فلقد عرف القرن الـــــــ 14 م والقرن الـــــــ 15م صراعا كبيرا بين الحكام المسلمين

---

[39]) أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1414هـ/1995م، ص 242. سليم الأول عن طريق الوزير زينل باشا طلب فيها العفو عن الهاربين من الجراكسة والمحبوسين. (أنظر الملحق رقم 18 ص 182).

1) Braudel, op.cit, T2 , P 103.

[41]) فاضل بيات مهدي، الدولة العثمانية في المجال العربي دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية، (م.د.و.ع)، بيروت، ط1، 2007، ص 242.

[42]) خليل إنالجيك: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، المجلد الثاني (1600-1914). تر: قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، ص 751.

حول الزعامة الإسلامية، وحماية الأماكن المقدسة، مما أدّى إلى نشوب نزاعات مسلحة حول قضية إرسال الغطاء المقدس للكعبة المشرفة، واتّفق أن تيمور لنك* وابنه "شاروخ"- (أي: الرخُّ، انظر كتاب الشطرنج)- من بعده ، وسلاطين قارا قوينلو** وآق قوينلو*** لم يعترفوا بأولوية مصر الدينية إلى أن بلغ الأمر إلى شن هجمات عليها المدّعين للأحقية في ذلك.

ويقول بارتولد: «رغم ذلك ظل المماليك متمتعين بحماية المدن المقدسة لمدّة طويلة من الوقت وإلى غاية مطلع القرن السادس عشر». حيث بدأ عجزهم يظهر على المستوى الخارجي، وأصبحوا غير قادرين على المواجهة والتصدّي، لقوة أوربا المتنامية وبدت علامات ضعف خليفة المسلمين-الذي يُعدُّ حامي أرواح المسلمين وممتلكاتهم وحاميا للدين الإسلامي-، والمدن المقدّسة وضامنا لسلامة الحج والحجيج-واضحة عن الذّود على حياض المسلمين؛ ناهيك عن مقدّساتهم، إلى درجة أن وقع الكثير من الحجّاج أسرى في أيدي البرتغاليين، وسقط الكثير منهم ضحايا غارات البدو خلال انتفاضة الحجاز ما بين (1502م-1508م).كما وقفوا عاجزين أمام الاجتياح الذي تعرضت له **مكّة** المكرمة عام 1503م، فلقد بلغ الأمر مداه إلى درجة التوقف عن أداء فريضة الحج عام 1506م، مما جعل العالم الإسلامي يهتّز. وهنا طرح السؤال الكبير عن الحل. ومن ينبغي أن يكون خليفة المسلمين، وقائدا للعالم الإسلامي آنئذٍ ؟

إنّ موضوع انتقال الخلافة من المواضيع المثيرة للبحث والجدل في التاريخ العربي العثماني وإلى حد علمنا لم يحسم بعد في موضوع انتقالها، فهل الخلافة الإسلامية أخذت ؟ أم سُلّمت ؟ وإذا سلمت، كيف تمّ تسليمها ؟ وهل تسليمها موثق ؟ أم أنّ أخذ الغالب بمثابة تسليم المغلوب ؟

إنّ الجواب على هذه الأسئلة يستحق بحثًا مستقلا منفردًا، ويحتاج إلى حجج ووثائق مؤيدة أو داحضة، بعيدًا عن الاحتمالات والترجيحات، ولذلك فسنتعامل مع الموضوع على إطلاقه، وهو ما يسمح لنا بعرض بعض الآراء في الموضوع.

*) تيمور لنك (1370م-1405م) ملك مغولي،حفيد جنكيز خان.اسمه تيمور و (لنك) ومعناها: تيمور الأعرج، وقد اجتاح آسيا من الهند إلى بغداد ثم الشام وروسيا، حارب العثمانيين وانتصر على بايزيد الأول في أنقرة وأسره (1402م).

**) قارا قوينلو، اسم قبيلة ومعناها الخراف السود.

***) آق قوينلو ، اسم لقبيلة ومعناها الخراف البيض.

1-رأي ابن إياس*:بالرغم من محايلة المؤرخ ابن إياس لآخر خليفة عباسي بالقاهرة (الخليفة المتوكل)، والسلطان العثماني سليم الأول ومعايشته للأحداث المعاصرة، وتتبّعه لأخبار دخول العثمانيين الشام ومصر وزوال الدولة المملوكية؛ إلّا أنه لم يشر إلى عملية انتقال الخلافة لا بالتّصريح ولا بالتّلميح.

2-أمّا حسن عثمان فقد لاحظ سلبية ابن إياس من موضوع انتقال الخلافة، ولكنه يذهب في الموضوع مذهب التشكيك وذلك بقوله: «ربما يكون التنازل قد حدث فعليًّا وأن سكوت إبن إياس كان من باب عدم التقبُّل لانتقال الخلافة إلى العثمانيين وكرهه لذلك »[43].

لقد كانت الزعامة والقيادة الإسلاميتين للمماليك وهذا يتضح من خلال احتضان القاهرة لقضاة المذاهب السنيّة

الأربعة، وهي رمزية الإشراف والقيادة لكافة المسلمين، بالإضافة إلى احتضانها للخلفاء العباسيين وأبنائهم وأحفادهم، مع أنّه لم يكن لهم دور رئيس عدا ما هو من الأدوار الثانوية أو المعنوية كإقامة الصلاة أو الدّعاء لهم وذكرهم في خطبتي الجمعة مثلا.

كما أن المماليك لم يضيرهم أيّ كان من يطلق عليه لقب خليفة المسلمين ولو كان قرشيًّا، لكن لما قدم السّلطان العثماني بايزيد الثاني (1481م-1512م) إلى **مكّة** المكرمة، كرّمه الحجّاج في المدينة المنورة برفعهم له عبارة " مولانا أمير المؤمنين السُّلطان الملك المظفَّر"، وهنا دبّت الغيرة، وبدؤوا يهتمُّون بالألقاب مثل:"خليفة المسلمين" و "خادم الحرمين"، ومن هنا أيضا بدأ التّنافس، وبذرت بذرة الصّراع، والنّزاع[44].

3 - أما "توماس أرنولد"* و"كارلو ألفونصو نالينو"**فإن أبحاثهما انتهت إلى نتيجة مفادها، أن محمّد المتوكل لم يتنازل للسلطان العثماني على الخلافة.

---

*) ابن إياس هو:أبو البركات زين الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن إياس الحنفي الجركسي الأصل الناصري القاهري (1448-1522م) ألف في التاريخ والشعر وقد كتب سبعة مؤلفات أشهرها "بدائع الزهور في وقائع الدهور" تناول تاريخ العثمانيين في مصر بالنقد والسخرية. فهو مؤرخ مخضرم بين العهد المملوكي والعهد العثماني.

[43]) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ج1، دار النهضة العربية، (د.ت)، ص106، ها:(47)، نقلا عن حسن عثمان، تاريخ مصر في العهد العثماني، ص 246.

[44]) نيكولاي ايفانوف: مرجع سابق، ص 39، 40.

*) آرنولد توماس ووكر: مستشرق انجليزي (1864-1932)، اهتم بالدراسات الإسلامية ودرس بالهند وتزيّ بالزّي الإسلامي وأسّس "جمعية الواجب" لتجديد الإسلام، ومن كتبه: "الدعوة الإسلامية" 1896، ودرّس في لاهور ومن تلاميذه محمّد إقبال، وهو صاحب فكرة إنشاء دولة باكستان، عام 1904م عاد إلى لندن وشغل أستاذ اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية بلندن 1917 وزائرا بالجامعة المصرية، ومن إنتاجه العلمي: كتاب الخلافة " The

وهذه النتيجة محل شك "حسن عثمان" وهو محق في ذلك لكونها لا تستند إلى وثائق، ويضيف، من الجائز أنهما قصدا الفتنة وتنفير الشعوب الإسلامية بما كتباه عن الخلافة العثمانية وخاصة كونهما من إيطاليا وانجلترا، وقد كانتا في حرب مع الدولة العثمانية، ناهيك عن خلفيتهم الدينية والتاريخية.

2 - أما خليل إنالجيك* يرى أن فكرة انتقال الخلافة من المماليك إلى العثمانيين، فكرة أسطورية - حسب تعبيره- حيث عبر عنها بأنها حدث أُخْتُلِقَ في القرن الثامن عشر، ومفاده أن الخليفة العباسي "المتوكل" تنازل عن حقّه في الخلافة كخليفة لرسول الله محمد (ص) على المسلمين إلى سليم الأول.

ويستميت خليل إنالجيك في الدفاع عن فكرة التنازل بقوله: « في الحقيقة كان سليم سعيدًا في ذلك الوقت بحصوله على لقب حامي أو خادم الحرمين: **مكة** المكرمة والمدينة المنورة». وما يعزّز هذا الرأي هو ما ذكره محمود المقداد في مجلة عالم المعرفة بقوله:«...إن السلطان سليم الأول أراد أن يجعل لسلطانه هيبة الخلافة الإسلامية، وذلك لأنه عدّ نفسه ممثلا للمسلمين في العالم وحاميًا لهم منذ تسلُّمِه مفاتيح الحرمين (الشريفين) ولقّب نفسه بلقب حامي الحرمين الشريفين، وأضاف إليه لقب "الخليفة" خلال سنتي (1516- 1517) »[45].

وعلى الرغم من ذلك فإن السلطان سليمان المشرع فقد عرّف عن نفسه لاحقا باعتباره "خليفة كل المسلمين في العالم"، وما عناه بذلك هو دوره كحام للعالم الإسلامي (انظر:رسالته لملك فرنسا"فرانسوا

Caliphate" بمناسبة زوال الخلافة العثمانية عام 1924 وله كتبا أخرى حول الدين والفن والتصوير الإسلامي (انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 2003، ص 5).

**) كارلو ألفونسونلّينو (Carlo Alfonso Nallino) (1872-1938)، مستشرق إيطالي تعلم اللغة العربية وأصولها دون أستاذ ثم تتلمذ على يد أحد المستشرقين المتخصصين في الدراسات الإيرانية، وقد تخصص نلينو في الجغرافيا والرياضيات عند العرب، واهتم بالمخطوطات، وأنتج 3 مجلدات حول الفلك، وكتب عن القبائل العربية، كما درس العربية بإيطاليا، وعمل مديرا للجنة تنظيم المحفوظات العثمانية، وأنشأ بإيطاليا "معهد الشرق".و(انظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين ص 583).

*) خليل إنالجيك:(1926-....) مؤرخ تركي وأستاذ التاريخ العثماني بجامعة بلنكيت بأنقرة، درّس في العديد من الجامعات الغربية، له مؤلفات عديدة وأبرزها الحضارة العثمانية (10 مجلدات) و العثمانيون (12 مجلدا) و كمال أتاتورك مع برنارد لويس، ومصادر ودراسات عن البحر الأسود و الإمبراطورية العثمانية و تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار. و(انظر كتابه" التاريخ الاقتصادي والاجتماعي...."،ط1، 2007) .

[45]) محمود المقداد،مرجع سابق ، ص 22.

الأول")، ولذلك فإن المفهوم العثماني الجديد للخلافة هو توسيعا للمفهوم القديم لديهم، والذي يعبر عن قيادة الحرب المقدسة (الغزو)[46].

لكن، ومهما يكن من اختلاف في الآراء، وتعارض في الأفكار حول فكرة انتقال الخلافة طوعا أوكرها. وفي غياب الوثائق التي تؤكد أو تنفي ذلك، تبقى الآراء والآراء المضادة تحشد المؤيدين والمعارضين عبر التحليلات والتأويلات.

ونحن بدورنا نرى أنّ الخلافة قد انتقلت من المتوكل إلى السلطان سليم الأول سواء بالرضا أو بالإكراه، فإنّ الشيء الثابت هو أن شريف مكّة اعتبر خلافة السلطان العثماني شرعية وبالتالي سارع إلى تسليم مفاتيح الكعبة له، تعبيرا عن اعترافه به خليفة، وإقرارًا في ذات الوقت، بزوال خلافة المتوكل[47].

ومن ناحية أخرى لم نقف -في حدود اطلاعنا- على أية مطالبة أو أي حركة سياسية أو احتجاج لأجل استرجاع الخلافة من الأستانة إلى القاهرة، أو على الأقل خلال فترة هذه الدراسة.

- انتقال الخلافة:

يعتبر محمد المتوكل على الله هو آخر الخلفاء العباسيين بدولة المماليك بالقاهرة. فلما جرّد السلطان قانصوه الغوري حسامه، وسار لملاقاة السلطان العثماني عام 1516م بالشّام، اصطحب معه أركان دولته، ومن بينهم الخليفة المتوكل. وبعد هزيمة المماليك في معركة مرج دابق؛ أُلْقِي القبض على الخليفة العباسي؛ الذي أرسل إلى استانبول، ولم يغادرها إلا بعد وفاة السلطان "سليم الأول" ليعود إلى القاهرة في عهد ابنه وخليفته السلطان سليمان المشرع. أما عن السلطان العثماني"سليم الأول" فقد احتفظ لنفسه بألقاب الخلافة، وأطلق على نفسه "ظل الله على الأرض"[48]. وبالرغم من عدم وجود إلى حد اليوم وثيقة تثبت انتقال الخلافة، فإن حيازة السلطان سليم الأول على الآثار النبوية الشريفة وهي:**البيرق والسيف والبردة**، وكذلك **مفاتيح الكعبة** بعد تسلُّمِها من قبل الخليفة العبّاسي محمد المتوكل على الله[49]، يُعدّ من القرائن الماديّة على انتقال الخلافة من

---

[46]) إنالجيك وآخرون، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ...، مج1مرجع سابق، ص 65.

[47]) Fernand Braudel, Méditerranée et le monde méditerranéen, à l'époque de Philippe II, 2 ed. T2, librairie Arnaud Colin, Paris 1966

1) عبد المنعم الهاشمي،الخلافة العثمانية، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2004، ص 270.

[49]) محمد فريد بك ، مرجع سابق، ص194.

بني العباس إلى آل عثمان. أمّا إذا ما نظرنا إلى الشروط الأربعة عشر التي ذكرها القلقشندي، فإنّ السلطان سليم الأول لن يكون خليفة وذلك نظرا لعدم توفره على كل الشروط[50].

لكن الشيء الملفت للانتباه هو أن المؤرخ المصري "ابن إياس" المعاصر للأحداث بمصر، لم يتطرق إلى موضوع الخلافة وانتقالها لآل عثمان، كما أن الرسائل التي أرسلها السلطان سليم وهو بمصر إلى ابنه الأمير سليمان خالية من أي إشارة إلى تسلم الخلافة وانتقالها[51]. وحتى المؤرخون والباحثون الأتراك اختلفوا في شكل انتقالها. فخليل إنالجيك يعتبر بل يسلم بتنازل الخليفة العباسي عن الخلافة بشكل رسمي في حفل خاص بجامع آيا صوفيا* ونفس الفكرة يرفضها الباحث فاروق سومر، وحجّته في ذلك أنّ السلطان سليم الأول لم يكن في حاجة إلى لقب خليفة ليدعم مركزه[52]. وحتّى إذا ما سلمنا بالتّسليم الرّسمي بجامع آيا صوفيا[53]، فإن ذلك قد يوحي أو يُفَسَّر لدينا باغتصاب الخلافة من يدي أسير ضعيف نقل من القاهرة مقر عرشه إلى القسطنطينية، بدل أن يكون ذلك التسليم والحفل بالقاهرة وبين حاشيّته.

وما دامت المعلومات عن انتقال الخلافة شحيحة أو غير موثقة، فإننا نميل إلى أن نقلها (الخلافة) من الديار المصرية إلى الديار العثمانية كان أخذًا وليس تسليمًا، من الخليفة العباسي "المتوكل"**. وما نستأنس به حول هذا الرأي أمران هما:

الأول: أن الخليفة العباسي لم يبق بالقاهرة وإنما اصطحبه السلطان العثماني مع بعض الأمراء ومكث بإستانبول بل وسجن بها بناء على شكوى من ابن عمه[54]، وهذا خوفًا منه إذا ما بقى بمصر و لم يعد إلى القاهرة إلى غاية وفاة السلطان سليم الأول واعتلاء السلطان سليمان المشرع عرش الدولة العثمانية، حينها عاد إلى القاهرة وكأنه كان تحت الإقامة الجبرية.

---

[50]) أحمد بن عبد الله القلقشندي، مآثر الأنافه في معالم الخلافة، دار الفكر، دمشق، ط2، 1997، ص ص 41،45.

[51]) إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان (د.ط) (د.ت)، ص 61.

*) جامع آيا صوفيا كان كنيسة حولها محمد الفاتح إلى مسجد (1453م) وحوله أتاتورك إلى متحف في الثلاثينيات أنظر تركيا دليل فرودرز السياحي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ك1، 1994م، ص131.

[52]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 403.

[53]) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك، مرجع سابق، ص 214.

**) المتوكل، هو محمّد المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين بالقاهرة.

[54]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي ، مرجع سابق، ص 403.

الثاني: أنّ ادّعاء الخلافة قد حدث من قبل، وعلى لسان السلطان "مراد الأول" وكذلك "مراد الثاني". بل أن سليم الأول قد أطلق على نفسه لقب "خليفة الله في طول الأرض وعرضها" وذلك منذ عام 920هـ/1514م، أي قبل تسلطنه على مصر وإشرافه على الحجاز ومقدساته.[55] لكن ومهما اختلفت الرؤى حول ذلك، فإنّ السلطان سليم الأول قد نقل الآثار النبوية إلى استانبول وخُطِب له في الجمعة و لم ينازعه في ذلك من أحد على الأقل ظاهريّا. ومن خلال ما تقدم حول انتقال الخلافة، وبالنظر إلى نداءات أهل وأعيان الشام إلى السلطان العثماني سليم الأول، فإننا نستنتج أن موضوع الخلافة وانتقالها لم يكن في بؤرة انشغال رعايا الدولة المملوكية، وما يؤكد ذلك في تقديرنا هو اقتصار رسائلهم إلى السلطان العثماني على الظلم والمعاملات وحماية الدين (أنظر الملاحق: 6 – 7 – 8)، كما أن كل الحركات المناوئة بعد سقوط المماليك تخلو من أي مطلب صريح للخلافة. (أنظر الفصل الثالث).

المبحث الثالث: التواجد العثماني بالحجاز واليمن.

أولاً: التواجد العثماني بالحجاز.

إن التواجد العثماني بالشام (1516م) وبمصر (1517م) تم بعد حشد الجيوش العسكرية بين العثمانيين والمماليك ثمّ وقوع الصّدام؛ والذي أسفر عن قتل قانصوه الغوري بمرج دابق وإعدام طومان باي شنقًا عند أحد أبواب القاهرة1517م، وما يقابل هذا التفوق السياسي والاقتدار العسكري للعثمانيين هو توقّف المدّ الغذائي **لمكة** ولأَشرافها على ما يأتيهما عن طريق مصر، التي أصبحت تابعة للباب العالي. بالإضافة إلى غارات البرتغاليين عليها، عبر البحر الأحمر وتهديدهم للحجاز عمومًا، والمقدسات على وجه الخصوص، والتي توقفت بفضل حلول الأسطول العثماني بالبحر الأحمر56، حيث تصدّى لهجوم البرتغاليين على جُدّة* خلال عامي 1517م و 1525م بقيادة أمير البحر العثماني سلمان[57].

---

[55]) إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص 61.

[56]) صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، تر: منى جمال الدين، دار النيل للطباعة والنشر، استانبول، ط1، 2011، ص 94. و(انظر ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، تر: أبو بكر أحمد باقادر،منشورات الجمل (م.د.خ.ث) بيروت، 2010، ص 243).

) جُدَّة بضمّ الجيم: مدينة حجازية على الساحل الشرقي لبحر القلزم (البحر الأحمر) شمال غرب مكة المكرمة وكانت في العهد العثماني مركزًا للحجاز ثم الحبشة فيما بعد (انظر:المنجد في اللغة والأعلام، مرجع سابق، ص 198).

[57]) خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد .م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص 196 .

فنتيجة لما تقدم كلّه مجتمعا تمّ خضوع الحجاز سريعا للعثمانيين طوعًا فضمّ العثمانيون بذلك مصر المملوكية وما كان يتبعها دون إطلاق الرصاص أو تجريد السيوف من أغمادها. كما أن وجود الحرمين الشريفين بالحجاز وما يمثلانه بالنسبة للعالم الإسلامي (الشعوب الإسلامية وحكوماتها) من أهمية كبيرة سياسيًّا ودينيًّا وبذلك كان الأمر في غاية الجاذبية و الإغراء[58].

بعدما استقبل السلطان سليم الأول أبَانمّي بن الشريف بركات الثاني بن محمّد، شريف **مكة**، تسلم منه مفاتيح الكعبة وراية الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم- معلنا خضوع وطاعة وولاء والده للسلطان العثماني[59] .كما كان الحال سابقا مع المماليك. قبل السلطان سليم الأول ذلك العرض بقبول حسن وقابله بإقرار شريف **مكّة** شرافة مكة المكرمة كما كان في العهد المملوكي مع عدم تعيين أي مسئول إداري عثماني إلى جانبه. واستمر شريف مكة في زعامته منفردًا بها إلى غاية عام944هـ/1538م. حين تم تعيين قاضي على الحجاز مع عدم المساس أو التقليل من شأن ومكانة الأشراف[60]. كما لم يهمل السلطان العثماني الجانب الأمني والعسكري بالحجاز، فمن جملة التدابير والإجراءات التي قام بها: إبقاؤه على نظام الجيش الموروث عن العهد المملوكي، مع استحداث صنجقية عثمانية جديدة، متخذًا مدينة جُدّة الساحلية مركزًا لها، وأطلق عليها اسم ولاية الحبش* وعين عليها "حسين الرومي" حاكما بها. ومرتبطًا بوالي مصر "خير بك" وبذلك أصبحت إدارة الحرمين الشريفين تابعة للباب العالي عن طريق أمير الأمراء (والي مصر)[61].

هكذا تمّ التواجد العثماني ببلاد الحجاز التي تمتّعت بحظوة خاصّة لدى الباب العالي، وتمّ الإشراف على إدارة الحرمين الشريفين سياسيّا وعسكريًّا واقتصاديًّا. وكذلك تمت السيطرة على البحر الأحمر (بحر القلزم)

---

[58]) أوليا چلبي، الرحلة الحجازية، تحقيق وتقديم: أحمد المرسي الصفصافي، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999، ص 38 ، 39.

[59]- Hervé Michel, Les débuts de la régence d'Alger de (1518-1566), Paris, 2005, P65.

=وللمزيد انظر، صلاح أحمد هريدي، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (1517م،1805م)، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2012، ص، 146.و(انظر ثريا فاروقي، حجاج وسلاطين، ص،57-59). و(انظر أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ص 233).

[60]) بيات فاضل مهدي، دراسات في تاريخ العرب الحديث في العهد العثماني، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003، ص 119.

*) لم يقدم لنا الكاتب تبريرا عن تسمية مدينة جُدّة بولاية الحبش الواقعة بإفريقيا، اللهم إذا كان الأمر يتعلق بالجانب الأمني.

[61]) صلاح أحمد هريدي، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (1517-1805)، (ع.د.إ.إ) ، مصر، 2012 ، ص 146.

وحماية المقدسات من الخطر البرتغالي الوشيك[62]، الذي عبّر عنه القائد البرتغالي، من خلال إحدى رسائله: بأنّه يود الذهاب إلى "البحرين" ويود انتزاع اسم محمد –صلّى الله عليه وسلم – منها مبرّرا ذلك لملكه قائلا: « إن البحرين يا سيّدي أمر عظيم ومنطقة جدّ غنية حيث يكثر فيها اللؤلؤ»[63]. وهنا يمكننا الإشادة بموقف شريف **مكة** وبقراره الصائب، لما عرض خضوعه للسلطان العثماني طواعية غير مكرهٍ، وقد جنّب الحجاز والأماكن المقدسة وميض السيوف وسيل الدماء، وربّما سقوط المقدّسات في أيدي الصّليبيّين، وسلّم المقدسات لمن هو أهل لحمايتها.

- تعيين شريف مكة وصلاحياته.

رغم بعد بلاد الحجاز عن مركز الإمبراطورية العثمانية، ورغم كونها صنجقية تابعة ومرتبطة بمصر جغرافيّا وبأمير أمرائها إداريًّا، إلاّ أن تعيين أحد الأشراف على إدارة شؤون الحرمين الشريفين كان يتم من الباب العالي مباشرة، وذلك بموجب اقتراح أمير أمراء مصر، وهنا تتجلى حكمة السلطان العثماني - حسب تقديرنا- حيث رفع من مكانة كل منهما: فشريف مكة شرفه بالتعيين المباشر من استانبول ووالي مصر رفع مكانته بالنظر إلى اقتراحه. أمّا عن صلاحيات شريف **مكّة**، فتتمثل في عرض حاجات منطقة الحجاز الأمنية والاقتصادية على الدولة العثمانية، والتي بدورها تدرس ذلك. وهكذا استمر الحال على هذا النمط، إلى غاية أواسط القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[64].

لكن رغم الإشادة بقرار شريف **مكة**، وعلى ما أقدم عليه من مبايعة السلطان سليم الأول، فإننا نتساءل عن الدوافع التي جعلته يقدم ولاءه السلطان العثماني، ويكون سباقا لذلك. لكن المتفحص للوضع آنذاك يلاحظ جملة من العوامل قد تكون وراء ذلك وربما أخرى رآها أمير **مكة** بعين زمانه، ومن العوامل الأخرى نرى ما يلي:

أ- الغارات المتكررة من قبل البرتغاليين عبر البحر الأحمر.

ب- انتشار الذعر بين الناس وتهدّد الحجيج عبر البحر الأحمر.

ج- ارتفاع الأسعار وخاصة المواد الغذائية وعلى رأسها الحبوب.

---

[62]) خليل إنالجيك، التاريخ الاقتصادي ...، مرجع سابق، ص483.

[63]) محمد محمود خليل، عرب البحرين، تاريخ الدويلات المحلية لبني عقيل في الخليج وشبه الجزيرة العربية ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2007، ص 168، ها (3).

[64]) المرجع نفسه، ص 146.

د- اعتماد الحجاز على الهبات، والمؤسسات الخيرية (الأوقاف في مصر والشام وبلاد المغرب وغيرها من البلاد الإسلامية)[65]؛ وبالتالي فمن الحكمة وحصافة الرأي أن يسارع أمير **مكة** والحجاز تقديم الولاء .

ونتيجة هذا الموقف والولاء الطوعي، يكون السلطان العثماني قد كسب الشرعية، والمكانة الرفيعة في نظر المسلمين، وأصبح بذلك خادم الحرمين الشريفين. ومن جهة أخرى تحمل المسؤولية عن حماية البقاع المقدسة، ومن باب قبلي تطهير بحر القلزم (البحر الأحمر) من التواجد الصليبي البرتغالي وخطره[66].

ثانياً: التواجد العثماني باليمن(1539م/1633م)*.

1- موقع اليمن وأهميّته:

إنّ الكلام عن العثمانيّين باليمن وظروف تواجدهم به لا يكتمل ولا تفهم ظروفه إلاّ بعد العروج على موقعه وأهميّته. فاليمن بموقعه الجغرافي كان محل اهتمام – ولا يزال - كل القوى الإقليمية؛ بل وحتى القوى الأجنبية. ونظرًا لعدة اعتبارات فإنّه يمثّل أهمية كبيرة بالنسبة للدولة العثمانية، خاصة على الصعيد الأمن الخارجي؛ وذلك لموقعه بالجنوب الغربي من شبه جزيرة العرب، وإشرافه على باب المندب. فهو البوابة الجنوبية المؤدّية لجزيرة العرب، والمقدّسات الإسلامية؛ وبالتالي فمن سيطر عليه فقد سيطر عليها، وعلى الملاحة بالبحر الأحمر، فضلاً عن كونه قاعدة متقدمة بالمفهوم العسكري.[67] ولذلك لم يُهْمِله العثمانيون من مفكرة تواجدهم.

2- التواجد العثماني باليمن.

وتعود مقدمات التواجد العثماني باليمن إلى فترة بعيدة نوعا ما، عن التواجد الفعلي، حيث بدأ التواجد المعنوي مع دخول السلطان العثماني سليم الأول مصر عام 1517م.

فعلى غرار إرسال شريف **مكة** ولده إلى القاهرة، لتقديم الاعتراف بالتبعية؛ أرسل حاكم اليمن المملوكي "اسكندر" وفدًا إلى السلطان العثماني سليم الأول، لتقديم له فروض الطاعة والولاء؛ فكان القبول والرضا

---

[65]) ثريا فاروقي، مرجع سابق، ص ص 5، 59.

[66]) عيسى الحسن، مرجع سابق، ص 130.

*) تمثل هذه الفترة المرحلة الأولى من التواجد العثماني باليمن.

[67]) سالم أحمد سالم علي، مرجع سابق، ط1، 2009، ص 113.)

ومعهما التثبيت والإبقاء في المنصب[68].إن هذا الولاء والإعلان عن التبعية، تبدو لنا تحصيل حاصل، وذلك بسبب كون اليمن كان أصلا تابعا لدولة المماليك على غرار الحجاز، وبالتالي فإذا كان الأصل وفي موضوع الحال هو مصر المملوكية كانت خاضعة للدولة العثمانية، فالفرع والذي يمثله اليمن سيتبع الأصل، لكن كل هذا لم يتعدى الجانب النظري.

أما فعليا فلابد من انتظار زوال عهد السلطان سليم الأول، وحلول عهد السلطان سليمان المشرّع. ففي عام (922هـ/1526م) وجه هذا الأخير حملة عسكرية بقيادة "سليمان ريس" من أجل ربط اليمن بالدولة العثمانية بواسطة مصر، حسب تعبير الكاتب"سالم أحمد سالم علي"، إلاّ أنّ الحملة فشلت[69]. وإنّ هذا الفشل الذي وقع والدولة العثمانية في أوّج قوتها السياسية والعسكرية يدل في نظرنا على شيئين هما:

الأول: أن الاعتراف وتقديم الولاء، عام 1517م لم يكن إلاّ أمرًا بروتوكوليًّا، وقد أشرنا إلى حتميّة ذلك.

والثانيً: أن اليمن صعب المراس و الترويض، ناهيك عن الاحتواء. فعلاوة على موقعها شبه المنعزل، فهيّ عصيّة على الدّخلاء. فبعد فشل الحملة (السليمانية) الأولى عام 1526م، انشغل الباب العالي عن موضوع اليمن قرابة اثني عشر عامًا أي لغاية (934هـ/1538م)، أين خرجت حملة عثمانية ثانية منطلقة من السويس لإخضاع عدن وعرفت بحملة "سليمان باشا" الخادم، وعلى إثرها تمّ إخضاع مدينة عدن* الساحلية في شهر أوت من نفس السنة[70]. وإعدام حاكمها"عامر بن داود الطاهري" شنقا؛ وبذلك أصبح للعثمانيين موضع قدم باليمن .

---

[68]) سيّار الجميل، تكوين العرب الحديث، دار الشرق، عمان (الأردن)، ط1، 1997، ص، 125. و(انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص، 234. و (انظر:عيسى الحسن، الدولة العثمانية، عوامل البناء وأسباب السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، ط1، 2009، ص 131).

[69]) سالم أحمد سالم علي، مرجع سابق، ص244.

*) عدن= مدينة يمنية ساحلية، بإقليم تهامة بجنوب اليمن، وهي أحد أقدم أسواق العرب. (أنظر: تاج الدين عبد الباقي عبد المجيد اليماني، تاريخ اليمن المسمّى "بهجة الزمن في تاريخ اليمن تحقيق: مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1995، ص31 ها(5). (وانظر: معجم الإسلام التاريخي: جنين ودومنيك سورديل)، وقد وصفها البرتغاليّان: بيريز وباربوسا (ق16م) بقولهما: « تُعدّ المدينة جنة حقيقية وفيها حركة تجارية فائقة لعدد من السلع المهمة، إذ تأتي إليها السفن من كل حدب وصوب....». و(انظر: الحمداني فارق ،الخليج والجزيرة العربية ، ص77).

[70]) سالم أحمد سالم، مرجع سابق، ص245.

كما أوكلت مهمّة المحافظة على التّجارة مع الهند، وحمايتها، وإدارة الصراع مع البرتغاليين، إلى حكام مصر. وفي العام الموالي (1539م) تم توحيد اليمن مع عدن، وضمهما معًا، لتكوين إمارة قوية؛ ودعّم العثمانيون ذلك ببناء الحصون والسيطرة على القلاع القديمة، وبناء أخرى فيما بعد.

لقد استمر العثمانيون في ممارسة سياستهم باليمن، واهتموا بالاحتياطات العسكرية، كما سبق وأن ذكرنا، ثم فرضوا سيطرة تامة وصارمة على قلاع الطوائف المحلية، مع تقديم تنازلات لكل عناصر (مكونات) المجتمع** اليمني في بداية حكمهم[71]. وألغوا الإقطاع السائد في البلاد، وصادروا ممتلكات العائلات الحاكمة، وسيطروا على مداخل الجمارك والأراضي، وأعادوا النظر في التنظيم القضائي و الإداري[72]. وعلى العموم فقد مارسوا سياسة الترهيب مع الإقطاعيين واللصوص والخونة مثل إعدام "عامر بن داود" (الخائن)*** ومارسوا سياسة الترغيب بالتعاطف مع الطبقة البسيطة ضد الإقطاعيين المحليين. لكن رغم هذه السياسات، إلا أن العثمانيين لم يستطيعوا فرض الاستقرار الكاف والشامل على اليمن[73].

3- أسباب وعوامل التواجد باليمن:

وإذا ما أردنا الوقوف على أسباب ذلك فإنّنا نقف على عدّة عوامل وأسباب والتي يمكن فيما يلي:

بعد ما عاد إليها سليمان باشا، من سواحل الكجرات في شهر نوفمبر 1538م أخضع جيزان ومُخا ومناطق أخرى في عام 1539م . وأصبحت اليمن على إثر ذلك وبصفة رسمية ولاية عثمانية[74] وعُيّن مصطفى "باشا النشار"* كأوّل بكلربك عثماني على اليمن بدل "مصطفى بك بتّقلو أوغلي" المؤقت[75]. أما عن السيّاسة العثمانية المنتهجة في اليمن، فقد لخّصها الكاتب إيفانوف نيكولاي في كتابه "الفتح العثماني للأقطار العربية"من خلال النقاط التّاليّة:[76]

**) زيديّون، إسماعيليون، شيوخ قبائل، عائلات، علماء.

[71]) خليل إينالجيك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، ج1، مرجع سابق، ص477.

[72]) ايفانوف نيكولاي، مرجع سابق، ص 133.

***) أُعْدِم عامر بن داود شنقا بتاريخ تشرين الثاني/نوفمبر 1538م بتهمة التعاون مع البرتغاليين.

[73]) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ك1، 1980م، ص 208.

[2]) طقوش، مرجع سابق، ص 219.

[74]) سيّار الجميل،مرجع سابق، ص 127.

*) مصطفى بك النشّار، لقب بهذا اللقب لاشتهاره بالقبض على اللّصوص ونشرهم بالمنشار إلى نصفين.

[75]) إيفانوف نيكولاي،مرجع سابق، ص 133. و(أنظر: عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق).

76) عمر عبد العزيز، مرجع سابق.

1-اعتماد النظام العسكري في حكمها على غرار النظام الإداري العسكري .بمصر[2].

2-توكيل مهمة حفظ النظام وإشاعة الأمن في الأرياف إلى أهل البلد المحليين مشكّلين وحدات عسكرية (حوالي 70% من مجمل القوات الكلية).

3-وربما هذا ما شجّع اليمنيين على التمرد والعصيان وأكسبهم قوة، وبالتالي يكون العثمانيون قد زرعوا بذرة مقاومتهم بسياستهم المنتهجة.

4-محاربة النهب والسلب و المنتشرين، والتصدي للفوضى من طرف البدو على وجه الخصوص[77].

5-ورغم أن أهل اليمن غالبيتهم من الزيديّين وهم فرع من فروع الشيعة، ولكنهم أقرب ما يكونوا إلى السنة فقد قاوموا العثمانيين، واستطاع أحد زعمائهم المدعو"القاسم" عام 1633م طرد الحاكم العثماني من اليمن.

لم يقتصر التواجد العثماني على البر، بل كان أيضا في بحر القلزم، وكانت دوافع وأسباب تواجد العثمانيين في كل من الحجاز وبحر القلزم ثم اليمن عديدة. فمن قائل أن سبب ذلك التواجد يعود إلى تسرب البرتغاليين إلى المحيط الهندي واستيلائهم على بعض الجزر الهامة فيما بين عامي (1506م و 1515م). ويرى آخرون أن التهديد البرتغالي لغزو مكّة والمدينة، ونبش قبر الرسول **محمّد** (ص) سببًا كافيًا. فيما يرى بعض آخر أن طلب السلطان الغوري من السلطان بايزيد إرسال مواد ضرورية لبناء ثلاثين مركبًا لمن الأسباب الصريحة والمباشرة.

وهنالك رأي آخر يتمثل في كون دولة المماليك أصبحت عاجزة عن الوقوف في وجه التهديدات الخارجية وخاصة منها البرتغالية؛ وبالتّالي لا مناص للدّولة العثمانية من مواجهة هاته التّهديدات وهو ما يتطلب سياسة المبادرة من قبل العثمانيّين والتي يفتقدها المماليك في ذات الوقت.

ومهما اجتمعت وتعددت كل هذه العوامل أو اختلفت فإنّها لا تستطيع حجب الطّموح العثماني، والرغبة في التوسع نحو المشرق وجنوبه وبالتالي تكون هذه الرغبة في التوسع لتشبع وتروي ضمأ الدولة العثمانية التي تعيش ربيع قوتها.

لقد ورثت الدولة العثمانية عن الدولة المملوكية مهمة حماية المقدّسات وخاصة عبر البحر الأحمر من أي عدوان بما فيها العدوان البرتغالي، وبالتالي فإن التواجد العثماني بالبحر الأحمر واليمن هو تحصيل حاصل لوجودها بمصر والحجاز. كما أن موقعه (اليمن) المحاذي للمقدّسات وإشرافه على مدخل البحر الأحمر وتوسّطه الطّريق التّجاري بين الشّرق والغرب كان من الدّوافع الهامّة للسّيطرة عليه سواء من قبل المماليك أو

[77]) المرجع نفسه.

من قبل العثمانيين[78]، وذلك من أجل حماية الأماكن المقدّسة من الأخطار الخارجية، والمتمثلة في القوات الأوربية، وعلى وجه الخصوص البرتغالية. وعلى غرار ما قاله أحد الساسة البرتغاليين بتمنيه نبش قبر الرسول **محمَّد** (ص) نجد أن هذا التهديد الخطر والصّريح ليس بالجديد؛ بل هناك قصّة أخرى فحواها تهديد القبر الشريف زمن السلطان "نور الدين زنكي" (511هـ/569ه) وقد كان أبطالها مسيحيون أسبان «20 عدوا » هدّدوا وتوعّدوا بنبش قبر الرسول **محمَّد**(ص) وحمل جسده (رفاته) الطّاهرة ونقلها إلى روما*.

أما هدف البرتغاليين الأول فقد كان نشر الدين النصراني في أرجاء آسيا، ومنافسة المسلمين وانتزاع السيطرة منهم على أسواق التجارة، بحيث لم يكن يهمهم كثيرًا احتلال الهند، أو بعض موانئها إلاّ بالقدر الذي يخدم أغراضهم الدينية ومصالحهم التجارية.

4- نتائج التواجد العثماني باليمن.

إن التّواجد العثماني كان هدفه الاعتراف بالسيّادة العثمانية على البلاد وحماية المقدّسات وليس الهدف منه الاستيلاء على الثروات أو النّشاط الثقافي. والدليل على ذلك أن السلطات العثمانية أقرّت بموجب الصّلح الذي أبرمته مع الأئمة الزيديين - زعماء الحركة اليمنية - بمالهم من الأقاليم لمدة عشر سنوات مقابل الاعتراف منهم بسيادتها في بلادهم. وهذا دليل على أنّ الدّولة العثمانية ليست دولة احتلال .

ومن جهة أخرى إنّ الهدف من التّواجد العثماني ببلاد اليمن -ورغم بعدها-كان حماية الأراضي المقدّسة، وغلق باب المندب الذي يعتبر بوابة الجنوب مع مضيق هرمز للبلاد العربية عمومًا، والمدن المقدسة على وجه الخصوص أمام محاولات التسرب والتوغل للقوى الصليبية، وخاصة البرتغالية. وقد ترجم ذلك أمْرُ السلطان سليمان المشرع ببناء أسطول بحريّ بالسويس والاتجاه به نحو اليمن ومواجهة البرتغاليين هناك.

من خلال الدراسة لتاريخ اليمن، ومقارنته خلال العهد العثماني مع غيره من العهود، نستطيع القول بأن تاريخه ذو ثنائية. فبين ما تميز اليمن بشيوع الأنظمة والأعراف القديمة داخليا؛ فقد تميّز أيضا بصراع القوى الخارجية التي تريد السيطرة والهيمنة عليه. إن هذه الثنائية التّاريخية هي: تاريخ الأئمة الزيديين أكثر مما هي تاريخ

---

[78]) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث ... مرجع سابق، ص ص 92، 93.

*) انظر القصة كاملة في كتاب، أوليا چلبي، الرحلة الحجازية، تر: الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، (د.ط)، 1999، ص ص 121، 122، 123، 124.

العثمانيّين. ولهذا، و بالمقارنة، لم يكن اليمن مثل الأقاليم العربية الأخرى، والتي لم يصل فيها الصراع والمناوأة المعادية للعثمانيين مثلما وصلت إليه في اليمن، وهذا ما يعكسه قِصَر مدّة التّواجد العثماني به.

لقد انقضى القرن السادس عشر الميلادي دون أن يحسم الصراع[79]، والنّتيجة المستخلصة من طوال هذا الصراع هي:أنه لم يصبح في استطاعة العثمانيين المكوث في اليمن والسيطرة عليه فضلا عن الإشراف والتحكم في المحيط الهندي وذلك بسبب كثرة العصيان واستمراره .

5- سياسة الدولة العثمانية المنتهجة بالمشرق العربي.

لقد لاحظ بعض المؤرخين والمهتمين بالتاريخ العثماني عمومًا، وبالمشرق العربي على وجه الخصوص عدة مميزات للسياسة العثمانية بالمشرق ونذكر منها ما يلي:

- اعتراف الدولة العثمانية بالمؤسسات المدنية والعشائرية واحترامها، وعدم التّدخل في شؤونها، ومن الأمثلة على ذلك نذكر:

-إعطاء السلطة الإدارية في جبل لبنان لوجهاء العوائل الدرزية.

-وضع الحجاز (**مكّة** والمدينة) تحت الحكم الذاتي بإشراف الأشراف من أحفاد الرسول **محمد** (ص).

-عدم تدخل الدولة العثمانية في الشؤون الداخلية للعشائر الشيعية في جنوب العراق، وفي مرحلة لاحقة وتحت ظروف معينة قامت سلطة عسكرية مستقلة في البلدان العربية، في دمشق وبغداد، وحتّى بجزائر الغرب، وأسّس المماليك بمصر إدارة مركزية فعلية.

وأيّ ليونة وتساهل وتسامح أكثر من هذا؟ حتّى أن الكثير من المهتمين بالتاريخ العثماني العربي يرجعون حالات التجزؤ والتشرذم والاختلاف التي يعيشها ويعاني منها الوطن العربي اليوم إلى تلك المرحلة ومخلفاتها، رغم الحماية التي وفرّها العثمانيون للوطن العربي من الأخطار الخارجية إلى غاية الحرب العالمية الأولى[80].

وعلى كل حال فإنّ السيّاسة العثمانية ببلدان المشرق العربي اختلفت من بلد إلى آخر، حيث تميزت بلاد الشام المحاذية لبلاد العثمانيين والقريبة من الباب العالي، بالحكم العثماني المباشر. أما مصر البعيدة نسبيًّا عن الباب العالي (جغرافيا) فإن سياسة حكم استانبول لها قد اختلفت عن حكم بلاد الشام. وإذا كان الأمر على هذا النحو بالشام ومصر، فإنّ الأمر يختلف عنهما في الحجاز واليمن اللذان كانا تحت الحكم العثماني اسميًّا،

[79]) سيّار الجميل،مرجع سابق، ص133.

[80]) خليل إنالجيك، التاريخ الاقتصادي... مرجع سابق، ص ص 30 ،31.

وكذلك الحال بالنسبة للعراق ومنطقة الأحساء[81] بالخليج العربي/الفارسي، وهذا ما سبب –حسب رأينا- اختلافا في نوع علاقة الباب العالي بهذه الأقطار واختلاف اهتمامه بها.

وهكذا تميزت السياسة العثمانية بالليونة والتوافق مع الخصوصيات المذهبية والأعراف الاجتماعية لكل بلد، وبذلك أصبحت قوة السلطان العثماني محدودة ومقيّدة[82].

أما المؤرخ عمر عبد العزيز عمر فيرى سياسة الدولة العثمانية والتي تسببت في ظهور الاضطرابات وغياب الأمن تتمثل

على النحو التّالي:

-الاكتفاء بوضع القوانين خاصة في عهدي السلطانين سليم الأول وخليفته سليمان المشرع، وإهمال أي إصلاح في المجال الاجتماعي وبذلك أهمل التعليم والرعاية الصحية.

-ترك المماليك يحكمون مصر بعد إزالة السلطة المملوكية، وكأن شيء لم يتغير.

-إبقاء على طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في الولايات العربية

المبحث الرابع: التواجد العثماني بالعراق والخليج (الأحساء).

أولاً: بالعراق .

قبل الحديث التواجد العثماني بالعراق، والتعرف على الأسباب التي كانت وراء ذلك، وكذلك الترتيبات التي سبقت ذلك التواجد. لابد من التطرق إلى موقع العراق وذلك لأهميته.

1- موقع العراق وأهميته:

العراق جغرافيا: يتموقع بين عالمين (عالم العرب وعالم العجم)، وهو بمثابة نقطة تماس بين مذهبين رئيسين السنّي والشّيعي. وحلقة اتصال اقتصادية بين الشرق والغرب عبر الطرق البرية والخليج العربي الفارسي.* وهو موقع يمثل بعدًا استراتيجيّا واقتصاديا في ذات الوقت[83].

---

[81]) محمد التو نجي،مرجع سابق، ص 8.

[82]) روبير منتران مرجع سابق، ص ص 171، 172.

*) نسبنا الخليج إلى الأمتين العربية والفارسية إيمانًا منّا بأولوية الجغرافية، عن التّاريخ والشراكة في الماء حسب (الحديث الشريف)

2- التواجد العثماني بالعراق.

لقد استغرق التقدم العثماني نحو الخليج حوالي عشرين سنة، قبل أن يستقر به، وكانت أولى خطواته التواجد ببغداد بعد إزاحة التواجد الصفوي عنها عام 1534م[84].

فعلى غرار بلاد الشام ومصر تمت عملية ضم العراق إلى الإمبراطورية العثمانية، لتضاف إلى رقعتها المتمددة، ولتكون إحدى ولايات الأطراف. ويكتسي موقع العراق بين الدولتين العثمانية و الصفوية بعدًا استراتيجيا هاما وعلى جميع الأصعدة . وبهذه المعطيات فهو منطقة تجاذب وعبور وصدام في آن واحد.

إذا كان الصراع بين الصفويين والعثمانيين قد حسم في معركة جالديران 1514م بشرق الأناضول، فإنّه تواصل بالعراق وتمثل في ضمّ السلطان سليم الأول مدينة الموصل وبغداد والبصرة والكوفة وكربلاء[85]، لكن الصفويين استولوا من جديد على العراق، وهذا ما يبدو من خلال توجه الحكام المحليّين للعراق في عام 1526م عن طريق رسلهم إلى السلطان سليمان المشرع برسائل الولاء والطاعة، وكانت بغداد والبصرة وغيرهما تحت سيطرة الصفويين، وبعد هذا حدث وأن انتفض سكان العراق عام 1524م بقياد "ذو الفقار بك"، أحد أعيان لورستان على الحاكم الصفوي فحرّر بغداد منهم ثم سيطر على وسط العراق. و لم يكتف ذو الفقار يقطع العلاقة مع الصفويين، وإنّما راسل الباب العالي، وأرسل له مفتاح مدينة بغداد تعبيرا عن الولاء وطلب الحماية، في نفس الوقت، على غرار ما فعل شريف **مكة** وأصدر أمرًا بالدعاء للسلطان العثماني في خطبتي الجمعة ونقش اسمه على النقود العراقية[86].

ومن جديد إنثال الصوفيون على جيوش ذو الفقار بعدما خانه إخوته المتواطئين مع الصفويين فقتل ذو الفقار واسترجع الشاه طهماسب العراق إلى غاية 1534م[87].

3- الترتيبات التي سبقت دخول العثمانيين.

---

[83] عباس إسماعيل صباغ، العلاقات العثمانية الإيرانية، دار النفائس، ط1، 1999، ص 151.

[84] خليل اينالجيك، التاريخ الاقتصادي ، مج1، مرجع سابق، ص 483.

[85] عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص59.

[86] نيكولاي ايفا نوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516،1574)، تر: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ط1، 1988، ص ص 88 ، 89.

[87] عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي 1516م، 1922م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2009، ص90.

كان على الدولة العثمانية أن تقوم بجملة من الاستعدادات العسكرية والسياسية قبل توجهها إلى العراق وذلك يعود لعدة أسباب ، وأوّلها استحكام العداوة بين الدّولتين وثانيها أن العراق بعيدًا عن إستانبول من جهة وأن تركيبة المجتمع جد معقدة طائفيا وعشائريا. وقد تمثلت الترتيبات والاستعدادات فيما يلي :

- عقد السلطان سليمان المشرع سلما مع آل هابسبورغ* بالنمسا عام 1533م.
- استعادة بطليس (بدليس) وضواحيها من يد الصفويين
- الهجوم على الكزل باش في ربيع 1534م.
- الهجوم على مدينة تبريز في 13 يوليو 1534م.

وبعد هذا قصد السلطان العثماني بغداد مرورًا بالموصل، واستقبله أهلها بالترحاب والسّرور[88].

4- التواجد العثماني الفعلي بالعراق.

نتناول هذا الموضوع في عنصرين وذلك من خلال التواجد العثماني وأسبابه في كل من بغداد والبصرة.

أولا: بغداد .

تواجد العثمانيين في العراق يعتبر في نظرهم استكمالا "سياسيا وعسكريا للتواجد في كل من الشام ومصر، بالإضافة إلى إخماد شرارات الاحتكاك بين العثمانيّين و الصفويين. وكذلك أيضًا انحياز البدليسي إلى الصفويين، ولجوء علامة خان إلى العثمانيين. فكل هذه العوامل جميعها شجعت الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" على احتلال مدينة تبريز عام 1534م، ومنها دخل العثمانيون بغداد في كانون الأول وفرّ منها لحاكم الصفوي "تقلي خان"؛ وبذلك ضمّ العثمانيون المنطقة الممتدة من شمال تبريز إلى غاية أواسط العراق، وألحقت بالباب العالي باستانبول"وقبل التّطرق إلى موضوع التّواجد العثماني بالمنطقة، لابد من توضيح أمر مهم وهو التداخل بين مصطلحي الخليج ومصطلح الأحساء (الحسا) في مدلوليهما الجغرافي.

فبعد مراسلات الحكام المحليّين للباب العالي، وإعلان الطاعة، وطلب الحماية، والتي لم تترجم إلى واقع، إلّا خلال سنة 1534م، حيث توجهت حملة عثمانية بقيادة الصدر الأعظم "إبراهيم باشا"، والذي انطلق بها خلال شهر أبريل /نيسان عام 1534م من حلب، وقصد تبريز الصفوية واحتلها، ومنها توجه إلى بغداد، بعد

---

*) آل هابسبورغ: أسرة حكمت النمسا (1282 - 1918)، وأصبحوا أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدّسة منذ 1438م، وقد ضمّت إمبراطوريتهم معظم أجزاء أوربا الغربية في عهد شارل الخامس المعاصر لسليمان المشرّع، للمزيد أنظر: برنارد لويس استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية تر: سيد رضوان علي، الدار السعودية، ط2، 1982،ص 55.

[88]) نيكولاي ايفا نوف،المرجع السابق، ص 89.

ما ضمّ مدينة الموصل، مرورًا بمنطقة كردستان. وأثناء ذلك لحق به "السلطان سليمان" المشرع، ومن دون عناء دخل العثمانيون بغداد (دار السلام)*، بعدما فرّ حاكمها الذي لم يتلق أي مساعدة من سيّده وحليفه الشاه طهماسب الصفوي، ومنذئذ استقر الحكم العثماني بالعراق، الّذي أصبح مقسّما إلى ثلاثة ايالات وهي: الموصل، وبغداد، والبصرة، وثبتت تبعية العراق إلى الدّولة العثمانية، إلى غاية 1602م. ورغم افتكاك العراق من أيدي الصفويين، فإنّ الصراع بينهما ظلت ناره مستعرة[89].

-ثانيا: البصرة.*

إنّ الحملة العثمانية التي قادها إبراهيم باشا على العراق وشارك فيها السلطان العثماني سليمان المشرع نفسه، لم تحقق التواجد العثماني على كامل العراق ولم تستطع فرض التبعية من قبل مناطق العراق كلها إذ بقيت البصرة وإقليمها عصيَّان على العثمانيين إلى حين، والتي تعد بموقعها مفتاح العراق من الجنوب وميناءً كبيرًا على الخليج العربي الإسلامي، وبسبب موقعها تصارعت عدة قوى منها: العثمانيون والصوفيون والبرتغاليون[90]. كما أن موقعها البعيد عن الباب العالي، وتعرض إقليمها لهجمات الصفويين، واستحكام قبائل البدو والعرب بها قد أخّر الوجود العثماني إلى غاية عام 1538/ 1539م[91].

فالبصرة وما حولها، من أقاليم الأطراف، وذلك بالنظر إلى موقعها بأقصى جنوب العراق، كذلك لبعدها عن الباب العالي، ولذلك تأخّر التواجد العثماني بها نسبيّا. أمّا عن كيفية تّواجده بها فقد تمّ دون إراقة الدماء، عكس التّواجد بالشّام، وذلك بإعلان حاكمها الخضوع إلى الباب العالي طواعية. حيث أرسل "الشيّخ راشد بن مغامس" ولده مانع إلى السلطان سليمان المشرّع (941ه/1534م) معلنا خضوعه للسيّادة العثمانية، وعلى إثر ذلك دخلت القوات العثمانية بقيادة "إياس باشا"مدينة البصرة في 26 ديسمبر 1546م، وأصبحت

---

*) دار السّلام هو اسم من أسماء بغداد ومن أسماءها أيضا: مدينة المنصور، والزّوراء، وهي العاصمة الثالثة للدّولة الإسلامية خلال العهد العبّاسي، احتلّها المغول ودمّروها سنة 1258م.

89) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 92.

*) البصرة: مدينة بجنوب العراق، أسسها الصحابي عتبة بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب عام 14هـ/ 636م، وتتكون من كلمتين فارسيتين هما: (بسا= كثير) و (راه = الطريق) ومعناها كثيرة الطرق (أنظر: الفيروز آبادي: القاموس المحيط).وكانت عاصمة النحو والنحويين و مسرح موقعتي الجمل(656م) وصفّين(657م). و انظر: (Amar D'hina, Cite musulmanes d'orient et d'occident, (E NA L) Alger, 1986, p 19,20

90) الحمداني، مرجع سابق، ص189وما بعدها.

91) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 145. و(انظر، سهيل قاشا، الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني، دار الورق، بيروت، ط1، 2009، ص09).

مركز الحاكم العثماني[92]. وقد لاقت هذه المبادرة الّتي قام بها حاكم البصرة قبولا حسنا من لدن السلطان سليمان المشرع، الذي أنعم عليه بالتثبيت في منصبه، كممثل له وتابعا لبغداد[93]. لكن بعد ستة سنوات تحرّكت نزعة العصيان والتمرّد في نفس راشد بن مغامس، فجاهر بشق عصا الطاعة، والرجوع عن ولائه السابق، فما كان من السلطان العثماني إلّا أن أمر والي بغداد "إياس باشا" إدخال المدينة إلى طاعة الباب العالي من جديد، وقد استمر التواجد العثماني بالبصرة إلى غاية عام 1005ه/1598م حيث خلالها سلّم العثمانيون الحكم إلى زعيم محلّي يدعي آفراسياب [94].

وبذلك يكون العثمانيين قد أمّنوا إلى حد بعيد أنفسهم من الخطر الصفوي من الناحية الجنوبية، والنتيجة أن العثمانيين من خلال تواجدهم بالعراق، قد حققوا جملة من الأهداف وأهمها: السيطرة على الطرق التجارية البرية، خاصة طريق الحرير، والتقدم نحو الجنوب، والوقوف في وجه الزحف البرتغالي ومنعه من الالتفاف على شبه جزيرة العرب[95]، بالإضافة إلى الحد من التغلغل الشيعي والتشيع بالعراق، وتحريض العشائر العربية ضد الدولة العثمانية[96].

ومن خلال ما سبق يبدو أنّ العثمانيين كانوا يدركون ما مدى أهمية العراق والتواجد به، وما مدى الخطر الصفوي[97]. كما أن الترتيبات التي قام بها السلطان العثماني - رغم تفوقه العسكري- خلال تقدمه نحو العراق، تدل على ما مدى إدراكه لاستراتيجيات الصراع، ونتيجة لتلك الترتيبات والقدرة على إدارة الصراع مع الصفويين عن بعد، استطاع العثمانيون كسب ود السكان الذي استقبلوهم ورحبوا بهم، خاصة منهم أتباع المذهب السنّي، وذلك على اعتبار العثمانيين محررين ومخلصين لهم من النّيْر الصفوي[98].

5- أسباب التواجد العثماني ببغداد والبصرة:

[92]) خليل إنالجيك، التاريخ الاقتصادي ...مرجع سابق، ص 483.

[93]) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ص 98، 99.

[94]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي مرجع سابق، ص 317. و(أنظر: علي ظريف ألأعظمي مختصر تاريخ البصرة، تح: عزّة رفعت، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد (مصر)، 2001، ص ص 144،145.

[95]) الحمداني مرجع سابق، ص 145.

[96]) عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص 93.

[97]) سالم أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2012، ص 238.

[98]) يوجين روجان، مرجع سابق، ص43.

إن الأسباب التي أدّت إلى التواجد العثماني بالعراق والبصرة كثيرة؛ ممّا أدّى بالباب العالي إلى تكليف الصدر الأعظم "إبراهيم باشا"* بقيادة حملة عسكرية نحو بغداد سنة 941ه/1534م، ومن أبرز تلك الأسباب ما يلي:

- تحجيم دور الصفويين ودورهم في المنطقة، وكبح تمددهم داخل عالم السنّة.
- الوصول إلى الخليج والتمكن من التواصل مع مسلمي الهند، بتأمين الطّريق إليه.
- السيطرة على الطرق التجارية وخاصة منها طريق الحرير** والمار عبر البصرة وبغداد وحلب.
- بالإضافة إلى الموقع المتميز لبلاد الرّافدين وتجاورها للصفويين، وبالتّالي فإنّ التّواجد العثماني بها هو درء للخطر الصّفوي، واستباق جغرافي

ثانياً: بالخليج (الأحساء).

قبل التّطرق إلى موضوع التّواجد العثماني بالمنطقة لابد من توضيح أمر مهم وهو التداخل بين مصطلحي الخليج ومصطلح الأحساء (الحسا) في مقصديهما الجغرافي. موقع الخليج وأهميّته.

فمصطلح الخليج هو كلمة شاملة تشمل اللسان المائي ابتداء من مضيق هرمز إلى غاية ميناء البصرة، ومصب نهري دجلة والفرات، بما في ذلك حافتي الخليج اليابستين. أمّا"الحسا"فهي المنطقة المقصودة بالدراسة و التي يعنيها التواجد العثماني.

أمّا عن الموقع، فمنطقة الأحساء تقع بالسّاحل الغربي من الخليج أي بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، الممتدة من أرض الكويت شمالا إلى أرض قطر وصحراء الجافورة جنوبًا، وتحدها مياه الخليج من الشرق، وصحراء الصمان من الغرب. وهي وحدة إدارية واحدة بفضل تميزها بالحكم العشائري المتجذّر بين سكانها) .

أمّا بالنسبة لأهميّة موقع الخليج بصفة عامّة، فإنّها تكمن في كونها منطقة ساحلية، وبذلك يمكنها إحداث توازن بين ساحلي شبه الجزيرة العربية، وفي ذات الوقت فهي بمثلبة موقع دفاعي أول متقدم بالإضافة إلي ذلك فهي منطقة حصار الصفويين من ناحية الجنوب و تخفيف الضغط عن بغداد، ومنطقة عبور عامة ولتجارة البصرة مع الهند خصوصا. ناهيك عن ثروة اللّآلئ بها ورغم كل ما تمّ ذكره من أهميّات للمنطقة. إلاّ أنّ العثمانيّين فشلوا في الاحتفاظ بها لمدّة أطول.

---

*) الصدر الأعظم هو الدّماد إبراهيم باشا (صهر السلطان سليمان المشرع). و الدماد تعني الصّهر، وهنا (صهر السلطان).

**) طريق الحرير: طريق تجاري قديم يربط ما بين أقصى آسيا شرقا وأوربا ماراً بالعراق والشام. (أنظر: معجم الإسلام التاريخي لـــ: دومنيك سورديل وآخر، تر: أنطوان الحكيّم، الدار اللبنانية للنشر، بيروت، خريطة30، ص 1058.)

أمّا عن كيفية التّواجد العثماني بالمنطقة فإنّها لم تكن مماثلة تماما للتّواجد العثماني بمناطق الشّرق العربي الأخرى

وفي عام 1550م صارت البحرين والقطيف قاعدة ومركز سنجق عثماني، تمّ إنشاء بكلربكلك الأحساء عام 1552م، وقد شكل ذلك تقدمًا عثمانياً، في مجال التّواجد بالخليج لتصبح المنطقة عام 1555م من ضمن توابع الدولة العثمانية[99]. لكن وبالرغم من كل ذلك، فإن الصراع العثماني البرتغالي بقي مستمرًا[100].

وعلى العموم تبقى منطقة الخليج (الأحساء) إحدى ثغور الدولة العثمانية رغم قلة ثقلها، وقلة التركيز العثماني عليها كالشّام ومصر والعراق، كما أشرنا إلى ذلك آنفًا. وهي آخر منطقة و إيالة ضمّها العثمانيون إلى إمبراطوريتهم بالمشرق العربي، وذلك لبعدها عن الأستانة. وهنا نلاحظ بجلاء أن التواجد العثماني دومًا كان برغبة من زعماء أو من سكان بلاد المشرق العربي، كما كان دومًا في صالحهم .

1- أهمية منطقة الخليج وتأخر التواجد العثماني.

لقد اهتم العثمانيون بمنطقة الأحساء على اعتبارها منطقة ساحلية إستراتيجية، وزراعية، وذات مزايا كثيرة، ويرى عبد الفتاح حسن أبو علية أن اهتمام العثمانيين بالأحساء مردّه كذلك إلى إحداث التوازن بين ساحلي شبه جزيرة العرب.

كما تستمد منطقة الخليج بجزأيها المائي واليابس أهميتها من كونها منطقة قريبة من البحار الشرقية، وبالتالي التصدّي لأي نفوذ خارجي عبر مياه الخليج ودخوله للإمبراطورية العثمانية، كموقع دفاعي أول متقدم . وبالإضافة إلى هذا وذاك تعتبر منطقة حصار للصفويين وتشتيت قواهم عن منطقة بغداد وتخفيف الضغط عنها هذا عن الإستراتيجية. أما من الناحية الاقتصادية فإن أهميتها تكمن في كون منطقة الخليج عموما والبحرين على وجه الخصوص منطقة عبور رئيسية لتجارة البصرة مع الهند، وكذلك مركزً لصناعة اللّآلئ. ورغم كل ما تقدم من أهمية للمنطقة إلّا أن العثمانيين تأخّروا في تواجدهم المبكر بالمنطقة ،كما فشلوا عن الاحتفاظ بها والسيطرة عليها لمدّة طويلة، وبالتالي لم يتم تواجدهم بالخليج مثلما تم ببلاد الشام ومصر وغيرهما. ويعود ذلك في نظرنا إلى يلي:

---

[99]) صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي، (1524م/1581م)، تر: عبد الجبار ناجي، (م.م.د.خ.ع.ج.ب)، بغداد، 1979، ص 59.

[100]) محمد حسن العيدروس،المرجع السابق، ط1، 1992

1. بعد المسافة بين منطقة الأحساء ومقر الباب العالي، وهذا ما أوهن وكلّف خزينة الدولة الكثير وأرهقها.

2. المناوشات المتكررة من الحين والآخر بين العثمانيين من جهة والصفويين والبرتغاليين من جهة أخرى وبالتالي افتقد الاستقرار.

3. قلّة الإيرادات المالية التي لم تكن تغطّى و تسد حاجات (نفقات) الإدارة العثمانية المحلية، الشيء لذي أدّى إلى تدخل الإدارة المركزية ماليًّا.

أ. عدم الاعتماد على العناصر المحلية في تسيير شؤون المنطقة، حيث أن جل الحكام كانوا أتراكًا باستثناء بعض العرب، وهذه السيّاسة المطبّقة بالمنطقة أدّت إلى وقوع عدة اضطرابات وعجّلت بنهاية الحكم العثماني وتقويض تواجده بالخليج.

ب. الموقف السلبي لزعماء القبائل من التّواجد العثماني وعدم رضاهم عنه ممّا جعلهم يتحالفون مع البرتغاليّين. ولقد أدّى ذلك إلي حدوث مناوشات متكررة من حين لآخر، بين العثمانيين من جهة والصفويين والبرتغاليين من جهة أخرى، وبالتالي افتقد الاستقرار[101].

2- التّواجد العثماني بالأحساء.

إنّ حتمية السيّاق التّاريخي تجبرنا على ذكر سبق تواجد البرتغاليّين بالخليج، الذين سيطروا على جزيرة البحرين سنة 1521م، إلّا أنّه لم يكن مرحّبا بهم من قبل أهل المنطقة. ولذلك انتهز سكان البحرين والقطيف تواجد "الشيخ مقرن بن زامل الجبوري"* معلنا خضوعه للسلطان العثماني سليمان المشرع، وطالبًا حماية الدولة العثمانية للتخلص من الاحتلال البرتغالي[102]. فاستجاب العثمانيون لرغبة وطلب حاكم البحرين، حيث توجهوا إلى منطقة "الأحساء" وتم تعيين حاكم عليها برتبة "بايلرباي" بمعنى أمير الأمراء عام 1546م وأصبحت بعد ذلك منطقة الأحساء ايّالة عثمانية مرتبطة بالباب العالي.

---

1) أحمد عبد الرّحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 99.

*) الشيخ مقرن: هو مقرن بن زامل الجبوري، شيخ الجبور بالأحساء، وهو الذي اتصل بالعثمانيين عن طريق أصهاره: أشراف مكة،كما استعان بهم على بناء السفن الحربية في البحرين. (انظر: سالم أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني، مرجع سابق ص249).

102) أوزبران، مرجع سابق ،ص 52.

لم يكتف العثمانيون بإلحاق منطقة الأحساء بالباب العالي، وإنما قاموا بتنظيمها إداريًّا، وذلك بتقسيمها إلى سناجق، مع العمل على تخليص كل المنطقة من الوجود البرتغال[103].

وفي عام 1550م صارت القطيف قاعدة ومركز سنجق عثماني. أمّا عام 1552م فقد تمّ إنشاء بكلربكلك الأحساء، وشكّل إلى جانب القطيف تقدمًا عثمانياً، ليصبح عام 1555م من ضمن توابع الدولة العثمانية[104]. لكن وبالرغم من كل ذلك، فإن الصراع العثماني البرتغالي بقي مستمرًّا[105].

وعلى العموم تبقى منطقة الخليج إحدى ثغور الدولة العثمانية، رغم قلة التركيز العثماني عليها كالشّام ومصر والعراق، كما أشرنا إلى ذلك آنفًا. وهنا نلاحظ بجلاء، أن التواجد العثماني دومًا كان برغبة من زعماء أو من سكان المحلّيّين، وبإلحاح، مثلما هو الحال بالنّسبة لسكان المنطقة، والذين طلبوا النّجدة من العثمانيّين مرّات متتالية في الأعوام: 1526و1528و1529.

وأمام شح المعلومات حول مناوأة الأهالي للوجود العثماني. لم نقف على أي حركة مناوئة ذات أحداث أو زعامة بارزة، رغم الحالة الدفاعية التي بقي عليها العثمانيون إلى ما بعد عهد السلطان سليمان المشرع (1520-1566م)[106].

3- نتائج التواجد العثماني بالخليج[107].

لقد كان للتواجد العثماني بأطراف شبه جزيرة العرب، عموما سواء بالحجاز، أو اليمن، أو بالخليج، أهمية[108] كبيرة ونتائج إيجابية؛ ولنا أنّ ندرك تلك الأهمية من خلال النقاط التالية:

- غلق البحر الأحمر في وجه الملاحة البرتغالية الصليبية السفن، واحتكارها للسفن الإسلامية.
- تأمين الأماكن المقدّسة وحمايتها من الخطر البرتغالي.
- إعادة إحياء الطريق التجاري القديم إلى مصر بعدما خطف طريق رأس الرجاء الصالح (رأس العواصف) الأضواء وصار يربط بين أوربا والشرق.
- انتعاش التجارة بالبحر الأبيض المتوسط خاصة بمدن الشمال الإفريقي*.

---

103) العيدروس محمّد حسن،المرجع السابق،ص 86.

104) أوزبران المرجع السابق، ص، 59. و(انظر: إينالجك، مرجع سابق ،ص 484).

105) العيدروس ، المرجع السّابق، ص 86.

106) إينالجك، مرجع سابق، ص 485.

107) سالم أحمد سالم علي،مرجع سابق، ص 249.

- تحقيق توازن القوى البحرية بالمنطقة بين العثمانيين والبرتغاليين.
- ونتيجة لكل ما تقدّم أدى إلى تقلص النفوذ البرتغالي وأفوله لتبرز قوى جديدة تتمثل في الهولنديين والانجليز والفرنسيين.

4- نتائج التواجد العثماني في بلاد المشرق العربي:

أ. اتساع رقعة الدولة العثمانية التي بلغت في عهد السلطان "سليم الأول"حوالي 6.5 مليون كم^2 ثم باتت حوالي15مليون كم^2 في عهد السلطان "سليمان المشرّع"، لكن بما فيها بلدان المغرب العربي.

ب. الزعّامة الإسلامية: حيث أصبحت الدولة العثمانية مع أوائل القرن السادس عشر، متربّعة على عرش العالم الإسلامي وانعقد لها لواء الزعامة الإسلامية وذلك بعدما كسّرت شوكة دولة الصفويين (الشيعيّة) وأزالت دولة المماليك (السنيّة).

ج. السيطرة على أهم المضايق والبحار الحيوية والهيمنة عليها فصار البحر الأسود بحيرة عثمانية، وباتت مضايق البوسفور والدردنيل في قبضتها، واستطاعت التوسع في غرب البحر المتوسط ثم صالت وجالت فيه، كما حولت البحر الأحمر إلى بحيرة عثمانية صرفة[109].

د. إبعاد الخطر الصّليبي عن الوطن العربي من الجهة الغربية والزحف الشيعي من الجهة الشرقية[110]، وفي ذات الوقت عزل العالم العربي مشرقًا ومغربًا عن العالم*.

أما الكاتب أحمد عزت عبد الكريم في كتابه" دراسات في تاريخ العرب الحديث" حيث يجمل نتائج التواجد العثماني في النقاط التالية[111] :

1. كسر التحالف المملوكي الصوفي من جهة والمملوكي البندقي من جهة أخرى.

2. حماية البلاد العربية من الأخطار والتحرشات الأوربية وخاصة منها البرتغالية بما في ذلك حماية البقاع المقدسة التي كانت مهدّدة صراحة من قبل البرتغاليين.

---

*) مدن الشمال الإفريقي: مصر، طرابلس الغرب وموانئ الشام. (انظر: سالم أحمد سالم علي، إستراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2002، ص 249).

[109]) الشنّاوي: ، مرجع سابق ، ص 157.

[110]) المرجع نفسه ، ص 6.

*) ليس المقصود بالعزل السلبي (السيطرة) وإنما الحماية من التدخلات الخارجية.

[111]) أحمد عزّت عبد الكريم، مرجع سابق، ص ص 23،25.

3. التصدّي للحصار و الضغط البرتغالي على البحار العربية ومنطقة الخليج.

4. اختفاء الكيانات السياسية العربية بدخولها الكيانات تحت مظلة السياسة العثمانية.

الفصل الثالث

الحركات المناوئة للدّولة العثمانيّة

- تمهيد
- المبحث الأول: الحركات المناوئة بالشّام ومصر.
- المبحث الثّاني: الحركات المناوئة بالحجاز واليمن.
- المبحث الثّالث: الحركات المناوئة بالعراق والخليج (الأحساء).
- خلاصة واستنتاج.

-تمهيد.

قبل تناول فصل الحركات المناوئة والتطرق إلى عناصره لابد من الإشارة و التذكير بأهمية المصطلح؛ وهو ما تناولناه في الفصل التمهيدي بالشرح لبعض المصطلحات التاريخية، التي كثيراً ما تختلف عن بعضها البعض، من حيث ألفاظها ومعانيها ،....

وكذلك الحال في هذا الفصل، فإنه لابد من التطرق إلى مفهوم مصطلح الحركات المناوئة* و التي هي بمعنى المناهضة أو المعادية. و هي حركات قام أو يقوم بها شخص أو جماعة معاداة لشخص أو جماعة أخرى أو لسلطة ما، وهو حال موضوع بحثنا. فإذا كانت كلمة مناوئة مصطلح عربي من صميم اللغة العربية ومعناه اللغوي ناهض وعادى، ولا يختلف عن مدلوله اللغوي أيّ كان، فإن الفكر الإداري العثماني يتخذ من كلمة "جَلاَلي" مصطلحاً** للتعبير عن العصيان والخروج عن القانون وعن كل من يناوئ السلطان؛ مع العلم أن جلالي نسبة إلى أحد العصاة الذي ظهر بالقرب من "طوقات" ورفع راية العصيان بمنطقة الأناضول ضد الباب العالي في عهد السلطان سليم الأول (918-927هـ//1512-1520م) وادعى المهدية بين الناس. فالتف حوله من شاكله من: قطاع الطرق وأتباع العصابات، وأحدث بذلك مشاكل وقلاقل كبيرة وكثيرة للدولة العثمانية. (انظر الفصل(3)، المبحث(3)، ورغم تمكن السلطان سليم الأول من القضاء على الحركة الجلالية، غير أن اسمها بقي يطلق على كل العصاة والشاقّين لعصا الطاعة[1].

-أولا:أساليب الدولة العثمانية إزاء الحركات المناوئة.

لم يكن توجه السلطان العثماني سليم الأول صوب المشرق العربي نزهة، حتّى وإن كان في أرض إسلامية؛ و لم تغمد سيوف جيوشه بالرغم من رغبة الكثير من السكان في تواجده، خاصة بالشام ومصر وحتى العراق. و لم يكن التواجد العثماني في مأمن من المناهضات المحلية، رغم ما وفّره من أمن للسكان أمام الأخطار الخارجية، ناهيك تخليصهم من جور الحكام السابقين؛ ورغم ذلك فقد ظهرت وبرزت عدّت مواقف

*) المناوئة: المعادية وهي من فعل نوأ وناء. فناوأ معناها عادى من المعاداة، فقد جاء في الصّحاح لإسماعيل بن حماد الجواهري: ناوأت الرجل مناوأة، وناوأته أي عاديته. ويقال: إذا ناوأت الرجال فاصبر. (أنظر إسماعيل بن حماد الجواهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطّار، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ص79).

**) مثال عن ذلك مصطلح "الحشاشون" (les Assassins)مع تحفظنا على تغيير وتحريف المدلول.

[1]) أوليا چلبي، الرحلة الحجازية، تر، الصفصافي أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، (د.ط)، 1999، ص، ها، (1).

وحركات مناوئة للسّلطة العثمانية. ومهما اختلفت تلك الحركات وتباينت، فإنّها لم تثن الباب العالي علي مواجهتها، وبعدّة أساليب.

ومع ذلك فقد واجه العثمانيون مناوءات مختلفة المصادر والأطراف، ومن مختلف المناطق واختلفت بإخلاف زعمائها حركاتها، وتعدّدت مطالبهم وأهدافهم. غير أن قوّة الدولة العثمانية وعزيمة السلطانين (سليم الأول وخليفته (الابن)سليمان المشرع (1512م-1566م) كانت في النهاية أقوى وأكثر غلبة، وهذا ما تجلّى في المواقف المختلفة التي واجه بها السلطانان تلك الحركات، والتي كانت على شكل تنظيمات إدارية، وعفو على المتمردين، واستمالة بعض المناوئين، أومن يؤثّر فيهم، كرؤساء وزعماء العشائر، والقيام بالحصارات لمناطق التمرّد، ومحاسبة القادة المحليّين ومعاقبتهم؛ ناهيك عن محاربة المناوئين ومنازلتهم، إلى غير ذلك من الأساليب التي اتبعها الباب العالي في تصدّيه لتلك الظّواهر المناوئة له، والتي سنذكرها فيما يلي:

1. التنظيم الإداري:

التنظيم الإداري (التقطيع الجغرافي) : يعد التنظيم الإداري من الإجراءات والمواقف التي وقفتها والأساليب الّتي اتّخذتهاالدولة العثمانية إزاء الحركات المناوئة والاضطرابات المحليّة التي تحدث هنا أو هناك، وفي هذا الصدد يشير فاضل بيات مهدي أن السلطان سليمان المشرع عندما كان متوجها إلى إيران ومرّ بلواء حلب وكانت بها الأوضاع مضطربة فلأجل تهدئتها واستقرارها اقترح عليه الصدر الأعظم المصاحب له تحويل لواء حلب إلى إيالة. فقام السلطان سليمان المشرّع بتعيين عثمان بك أمير سنجق* ملاطية بكلربكي على حلب، وتم ذلك بتاريخ خلال شهر محرم 956هـ الموافق لـشهر شباط/فبراير 1549م[2]. وبهذا الإجراء الإداري تم التحكّم في الوضع وتحوّل الاضطراب إلى استقرار.

2. كسب ود العشائر واستمالتها:

*) سنجق= راية (علم كبير) كان أبيضًا في أول الأمر عند العثمانيين، وفي زمن سليمان المشرع،كانت ألوانه ثلاثة: أخضر وأحمر وأصفر (أنظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، ص 75).كما يدلّ كذالك على مقاطعة إدارية،أقلّ من الإيّالة أو البايلك.

[2]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 182.

إن هذا الإجراء يعتبر إحدى المواقف التي اتّخذتها السلطة العثمانية، وذلك إدراكا منها لتركيبة المجتمعات العربية وهيكلتها، وكذلك لما لتلك العشائر من تأثير على الوضع وبالخصوص ما يتمتّع به زعماؤها، ولهذا لم يغب عن الفكر السيّاسي العثماني محاربة بعض الظواهر الاجتماعية السلبية بالمجتمع ذاته أو ببعض من مكوناته، ولأجل ذلك قامت السلطة العثمانية بالمهادنة والتودّد إلى كثير من العشائر بالبلاد العربية بالشام والبصرة وغيرها ومثال ذلك إقرار

السلطات العثمانية أسرة "مغامس"*- أقوى الأسر بالبصرة- وتركت لها زعامتها السابقة وبالتالي كسب موالاتها وتعاونها على المجتمع المحلّي[3].

3- حصار مناطق التوتر والحركات المناوئة:

تعتبر هذه الطريقة من طرق المقاومة، أو من الخطط المؤثرة على الطرق المضادة، فإذا كانت غير عنيفة في ظاهرها فإنها مؤثرة بطريقة سلبية وذلك بإحداث شلل واختناق للطرف الآخر، وكثيرة هي الوقائع التي طبقت فيها عمليات الحصار المقاطعة.

ويبدو أن السلطة العثمانية بعد ما درست الوضع الاجتماعي والتركيبة العشائرية بمنطقة البصرة، مع الأخذ بعين الاعتبار الموقع والبيئة الجغرافية والبشرية والإمكانات المتوفرة لدى السلطة العثمانية المحلية، ارتأت اتخاذ موقف ضد حركة ابن عليان المناوئة. ويتمثل هذا الموقف في حصار مناطق التوتر، والتمرّد ومنع التعامل الاقتصادي والاجتماعي معها، مع محاصرتها عسكريًّا. فضربت طوقًا ومنعت به انتقال المواد الاستهلاكية من والي البصرة، وذلك ابتداء من 4 جمادى الأولى 973هـ/27 نوفمبر 1565م. ومنعت الأغذية ومختلف السّلع كالأخشاب والأسلحة وغيرها من الوصول إلى البصرة، بالإضافة إلى سدّ منافذ الاتّصال بالسّكان كمراقبة الطرق[4]. وكانت النتيجة تكسير العصيان والتمرّد ضد السلطة العثمانية، وتجريد القائمين به من دعائم القوه. وهذا السلاح الناعم أثبت نجاعته سابقا ولاحقا.

4- محاسبة ومعاقبة الإدارة المحلية.

---

*) مغامس: جدّ مانع الذي أرسله أبوه راشد حاكم البصرة ليسلم مفاتيحها إلى السلطان العثماني عام 945هـ/1538م (أنظر بيات، المرجع السابق، ص 265).

[3]) بيات، المرجع نفسه، ص 318.

[4]) بيات، المرجع نفسه، ص 321.

وهو أسلوب ووسيلة طبقتها السُّلطة العثمانية خلال مواقفها أمام الحركات المناوئة، ونلمس ذلك من خلال الرسالة (الحكم السلطاني) التي وجّهها السلطان سليمان المشرع إلى بكلربكي* البصرة بتاريخ 11 محرم 973هـ/ 8 أغسطس/ أوت 1565م حيث ورد فيه ما يلي[5]:

« إن القضاة والنواب و أمراء السناجق و الصّوباشيين** وأبناء الخواص وغيرهم قاموا بممارسة الظلم والتعدّي على الرّعايا، الأمر الذي أدّى بهم إلى ترك أماكنهم وزراعتهم ». وقد حمّل مسؤولية هذا الأمر إلى بكلربكي البصرة لعدم اهتمامه بذلك، وقد جاء من الحكم : « إن الغاية من تعيين بكلربكي والأمراء والقضاة في الولاية والتي تنشدها العدالة السلطانية هي إشاعة الأمن والنظام في البلاد ونشر الطمأنينة بين الرعايا ».

ثم أصدر السلطان أوامره برفع الظلم والتجاوزات من قبل مسئولي الدولة، وإحقاق الحق بين الرّعايا وإعادتهم إلى أماكنهم وعدم قيام أيّ شخص بأيّ عمل يخالف الشرع الشريف[6].

5- العفو على المتمردين:

إن هذا الموقف وهذه المكرمة لا تصدر إلاّ من قادر قوي، وهنا يبدو أن السلطة العثمانية لما تعفو على مناوئيها، وهي قادرة على البطش بهم يُعدّ من الخصال الحميدة والمحبّبة للرعية، وربما هذا ما أرادته السلطة العثمانية من خلال هذا التصرف، وهذا الموقف عملاً بمقولة العفو عند المقدرة.

وبالفعل لقد مارست الدولة العثمانية هذا الإجراء في كثير من الحالات ويكفي استدلالا على ذلك عفوها على المتمرّديْن: جان بلاط عام 1607م، و ظاهر العمر عام 1774م[7].

6- التّنازل والرُّضوخ للمطالب:

من بين الأساليب التي عالجت بها الدولة العثمانية الحركات المناوئة لها، وتصدت بها لأيّ تمرد أو عصيان هو الرُّضوخ إلى مطالب المناوئين لها، والحاملين راية العصيان. وهي بذلك تنحني أمام بعض العواصف حتى لا تتكسّر، وربما إدراكًا منها من خطورة الموقف، وهذا ما يبدو حقيقة من خلال موقف السلطة العثمانية نحو

---

*) بكلربكي، تعني بك البكوات أو الحاكم العام، أخذ هذا المنصب عن السلاجقة، وأول من تقلده في الدولة العثمانية هو سليمان باشا بن أورخان. (أنظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2004، ص35.)

[5]) بيات، المرجع السابق، ص 320 .

**) الصوباشيين (جمع صوباشي): وهم موظفون مسئولون عن الأمن وحماية البيئة بالمدينة.

[6]) بيات،مرجع سابق، ص320.

[7]) نفسه، ص227.

تلك الحركة التي قام بها العسكر المعسكر باليمن، بسبب تردّي أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، والتي قد تعود إلى الأزمة المالية التي عاشتها اليمن، حيث قام العسكر هناك بثورة ضد السلطة العثمانية المحلية، و لم يكتف العساكر بذلك فحسب بل اغتنموا الفرصة وانحازوا إلى جانب الإمام مطهّر الزيدي، المناهض للوجود العثماني، وتحالفوا معه ضد الولاة العثمانيين في اليمن.

أمام هذا الموقف وهذا الوضع فما كان من السلطة العثمانية إلاّ أن تصدّت لهذه الحركة وإخماد نارها، ولكن كيف ؟وعن طريق من ؟

لقد كلفت الدولة العثمانية "سنان باشا" بالتصدّي لتلك لحركة المناوئة لسلطتها باليمن، واستطاع إخماد حركتهم، ولكن ما كان ليتم ذلك لولا التنازل لمطالب العسكر، وتنفيذ مطالبهم والمتمثّلة في: تحسين حال الجيش، وتحسين رواتبهم ومعاشاتهم وبالتالي تلبية ماطالبوا به. والنتيجة هي أن هذه الحركات المناوئة أُخمدت والاضطرابات توقّفت[8].

7- التحالف السرّي مع الأطراف المناوئة:

كان هذا الأسلوب من بين الأساليب المستعملة من قبل السلطة العثمانية ضد المناوئين لها، حيث كان الباب العالي يلجأ عند اقتضاء الأمر إلى تسليح أحد الولاة أو الجهات المناوئة له ضد طرف آخر مناوئ له، ومؤجّجًا الحرب بينهما، واعدًا كليهما سرًّا باستخلافه مكان الآخر بعد القضاء عليه، وبعد ذلك يقضي على المتبقي منهما، وهذا ما طبقته السلطة العثمانية في بلاد الشام[9].بل طبّقته أماكن أخرى ومنها جزائر الغرب أثناء تصدّيها لأمارة المقرانيين المناهضة لسلطتها بالمنطقة خلال القرن السّادس عشر[10]. وانظر ما ذكره أرزقي شويتام حول الموضوع في كتابه"نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره ص98.

---

[8]) أبو علية، مرجع سابق ، ص 260.

[9]) قسطنطين ميخائيلوفيتش بازيلي، سوريا ولبنان وفلسطين من الناحية السياسية والتاريخية، تر: يسر جابر، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1988م، ص47.

[10]) بومولة نبيل، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني إمارة المقرانيّين في القرن 10ه/16م، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 2013 ص 98. و(انظر: شويتام أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره (1800م/1830م)، دار الكتاب العربي، ط1،الجزائر، 2011، ص 98).

ثانيا :نتائج وآثار الحركات المناوئة.

لا شك أن الحركات المناوئة للسلطة العثمانية بزعامة بعض الأمراء أو الولاة الطامحين، تعد من عوامل التفكك والهدم الحضاري، وتعطيل السلطة على المضي قدمًا في البناء وتطوير السلطنة. وبالرغم من هؤلاء الولاة والأمراء المحليين، الذين يعدُّون جزءا من النظام (السلطة) وخاصة المنخرطين في الملكانات (قطاعات التزام مدى الحياة)، وفي الجغتليك (مزارع التزام) فإنهم قد أصبحوا منفذين. وبالتالي أصبحوا مرتبطين بالسلطة ارتباطًا عضويًّا، ولكن من جهة أخرى فإن هذا التحول الناتج عن الارتباط قد ساهم في تجزئة السلطة العثمانية[11].

السياسة العثمانية ونتائجها.

إنه لمن الصعب الإحاطة بكل جوانب السياسة العثمانية المتبعة والمطبقة عمومًا على الفضاء الجغرافي العثماني الواسع، ببلاد المشرق العربي، وذلك نظرًا لتعدد مجالاتها.

لكن ومع ذلك فإننا نرى من الضروري إبداء ولو صورة موجزة عن سياسة العثمانيين، حتى يمكن ملاحظة ما مدى ملا أمتها مع ما تهدف إليه السلطة العثمانية.

عمومًا فإنّ السياسة العثمانية التي انتهجتها السلطة لمعالجة مختلف المواقف، وخاصة منها ما تعلق بالأوضاع الداخلية، لم تكن دائمًا نافعة ومحققة لأهدافها، وهذا ما لاحظناه من خلال تدخل الباب العالي في محاربته للفساد، الذي ظهر بصفة متكررة من قبل جباة الضرائب، وذلك من جرّاء تلاعباتهم بالسلع والحبوب المسلَّمة من طرف المؤسسات الخيرية وعائداتها، والمخصّصة للأماكن المقدّسة. وفي هذا الصدد صدرت مراسيم لتبديل هؤلاء المتلاعبين من مديري هذه المؤسسات، إلاّ أن هذه السيّاسة الإجرائية لم تُصْلِحْ من الوضع بل كانت ذات نتائج عكسيّة، إذ تسبّبت في استشراء الفوضى وهو ما أدّى إلى انخفاض إضافي في تسليم الحبوب إلى مستحقيها[12].

---

[11]) وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص1، 1988، ص 75.

[12]) فاروقي، حجاج وسلاطين، مرجع سابق، ص 137.

ربما هذه عينة جزئية تبيّن على أن بعض السيّاسات العثمانية كانت بمثابة المثير لبعض الأحداث، وما يقال عن سياسة الدولة في مجال الضرائب يقال أيضًا في مجالات أخرى.

- **الأعيان وعلاقتهم بالسلطة العثمانية**

كان للأعيان في ظل الدولة العثمانية يتمتعون بسطوة كبيرة، فهم أكثر السكان مع الأشراف نفوذًا خاصة في المدن، حيث أصبحت الحكومة العثمانية تتصل بهم باستمرار بشأن المسائل التي تمس سكان المدن بصورة مباشرة. وقد رأت السلطة العثمانية أن تقر هذا النمط الاجتماعي الطبيعي باعتباره نظامًا إدرايًّا الذي يطلق عليه (أعياناللك)، وأخذت تصدر براءات لمن تخلع عليهم هذه الصفة. ونظرا لما لهذا النظام من امتيازات للأعيان راح الكثير منهم يزاولون أعمالهم دون براءة حكومية متحدّين بذلك التقاليد المقررة للسلطة والأطر القانونية[13].

ويبدو لنا أن هذه الميزة والمكانة الاجتماعية التي خلعت على هؤلاء الرعايا من الأعيان من قبل السلطة العثمانية جعلتهم يولون الباب العالي وبالتالي كانوا عونا له وهو ما تجلى من خلال مواقفهم من الحركات المناوئة للسلطة العثمانية وهنا مرة أخرى تتجلى سياسة السلطة العثمانية في إدارة الشؤون الداخلية .

- **موقف الأعيان من الحركات المناوئة.**

بالرغم من مكانة الأعيان الاجتماعية والإدارية، وما يمكن لها من تفعيل دورهم، إلاّ أنهم كانوا سلبيّين أمام الحركات المناوئة للدولة العثمانية، ورغم كون هؤلاء الأعيان من قضاة ومفتين ومدرسين وموظفي الجوامع واسطة بين السلطان ورعاياه وبإمكانهم التأثير المباشر على الرعية إلى جانب الإداريين والعسكريين، إلاّ أنهم لم يسهموا في الحركات الشعبية ضد السلطة العثمانية[14].

ويسبب هذا الموقف ندرك مدى فشل الحركات المناوئة في الاستمرار ضد الدولة العثمانية، وعدم التأثير عليها. إن عدم هذا التجاوب، لم يقتصر على الأعيان فحسب، بل شمل أيضا السواد الأعظم للجماهير،

[13]) أحمد عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص 182.

[14]) عمر عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث مرجع سابق، ص53.

التي كانت موالية للسلطان، وذلك حسب تعبير عبد العزيز محمد الشناوي[15]. وربما هذا ما ساعد الدولة العثمانية على القضاء على تلك الحركات المناوئة بكل يسر. ويمكننا تسمية هذه الفئة من الرّعايا بالتّسمية المعاصرة "حزب السلطة".

المبحث الأول: الحركات المناوئة بالشام ومصر وأسبابها.

أولاً- بالشام:

قبل الخوض في الحديث عن أسباب الحركات المناوئة ومختلف التمردات والثورات عمومًا نود أن نطرح السؤال التالي: هل هذه الحركات المناوئة وحركات التمرد والعصيان والثورات ضد الباب العالي (السلطان)؟ أم هي ضد ولاة الأقاليم المحليين ؟ إن المتتبع لها يجد أنها لم تكن معادية للسلطان في حد ذاته وإنما كانت ضد الولاة المحليين الممثلين للسلطان وبالتالي فهي ثورات مناهضة للسياسات المحلية وممثليها و ليست ضد الباب العالي(Sublime porte).

1- أسباب الحركات المناوئة.

تعود الأسباب التي أدّت إلى مناوأة السلطة العثمانية، ودفعت بعض القوى إلى الثوران والتمرد ضدها كثيرة ومختلفة ومن جملة هذه الأسباب نذكر ما يلي:

ا- السياسة العثمانية.

في كثير من الأحيان تكون سياسة الدولة أو ممثليها ظالمة، أو رعناء، فتسبب التوتر، وبالتالي تحرض على الثوران، و مهما كانت المبررات، وهذا ما ذكره محمد كرد علي* في كتابه خطط الشام: أن توافق خلال ذهاب السلطان من الشام نحو مصر وكذلك خلال إيابه من مصر إلى إستانبول عبر الشام فإن أهل البلاد قد

---

[15]) الشناوي، مرجع سابق، ص276.

*) محمد كرد علي بن عبد الرزاق بم محمد من أصل كردي، ومن أمّ شركسية من قفقاسيا، ولد في دمشق، 1293هـ، 1876م وكنّي بفريد، تعلم في مدرسة "كافل سيبار الأميرية" ثم المكتب الرشيدي العسكري، توظف في قلم الأمور الأجنبية 1892 جُبل على= حب العلم، وشغفً به وكان معجبًا بالعلامة الشيخ الطاهر الجزائري، وعمل في الصحافة، وتنقل إلى القاهرة وغيرها، وعمل في التدريس، وله رحلات كثيرة، وثقافة واسعة وله مؤلفات عديدة بلغت 22 مؤلفًا. (أنظر ونش الحرافشة، فكر محمد كرد علي ودعوته الإصلاحية).

قاسوا وعانوا من تصرفات الجنود العثمانيين الكثير من المظالم، ومن بين هذه المظالم: إخراج الناس من بيوتهم، وترويعهم، والاعتداءات على أعراضهم، وعلى حد قوله: « لم يسلم منهم حتّى الشجر والزرع ». وقد بلغ الضرر بالناس حتى تأسفوا على عهد المماليك؛ وبالتالي نفض النّاس أيديهم منهم، وخاب رجاؤهم في العثمانيين. فبسبب هذه التصرفات تولد الحقد والكراهية والنفور، وبالتالي فلا غرابة من وقوع التمرد والعصيان ضد هذه السلطة[16]. ومن جهة أخرى، فإن حب النفوذ، أو الحفاظ عليه، أو استرجاعه، يعد أحد الأسباب القوية والدّافعة للتمرد والثوران[17]. وهذا ما أشار إليه ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلاّن.

ب- نقص القوة العسكرية.

حيث لم يكن الجيش العثماني نهاية عهد السلطان سليمان يتجاوز ثلاثمائة ألف (300000) جندي، وخمسون ألف منهم فقط عساكر نظامية[18]، وبالتالي نلاحظ أن هذا العدد القليل لا يتناسب مع إمبراطورية مترامية الأطراف، مثل الدولة العثمانية، وتحارب على عدة جبهات، وهذا ما جعل الباب العالي وحتّم عليه تسيير بعض قواته من الأستانة لمحاربة بعض الحركات، كحركة جان بردي الغزالي بالشام، أو بالبصرة.

ج- نقص التموين:

من بين الأسباب الداعية إلى قيام الحركات المناوئة للدولة العثمانية، ما ذكره "بيتر جوشر"، حيث يرى أن أحد أسباب الحركات المناوئة يعود إلى نقص الطعام، مثلما حدث في نهاية القرن السادس عشر (16م) إذا عانت العاصمة استانبول من نقص الغذاء، و لم تستطع تحقيق الاكتفاء الذاتي منه كما لم تستطع توفير العمران اللاّزم؛ خاصة إذا علمنا أن سكانها بلغ40000 نسمة مع نهاية عام 1453م، ومع بداية عهد السلطان "سليم الأول" (1512م) تضاعف العدد*بـــــــــــــــــــ: 700 %، وذلك بسبب تطبيق سياسة العثمنة

---

[16]) محمد كرد علي، خطط الشام، ج2 (الدولة النورية)، ص228.

[17]) ابن طولون الصّالحي، تاريخ الشام مطلع العهد العثماني (1520م-1544م) استنادا إلى مخطوطات نادرة من مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دراسة وتحقيق أحمد إيبش، (د.ت) ص116.

[18]) محمد فريد بك ، مرجع سابق، ص251.

*) نحن نشك في هذا التقدير ونراه مبالغًا فيه فإذا كان في القسطنطينية 28.000.000 نسمة عام 1512م، فكم يكون عدد السكان اليوم؟ علما أنّ عدد السكان بالمدينة لم يتجاوز الستة (6) ملايين نسبة حسب الدليل السياحي طبعة

(التوطين من الأناضول إلى الروم ايلّي[19]). فإذا كانت العاصمة الأستانة مقر السلطان ومركز السلطنة تعاني من نقص الغذاء، فكيف يكون حال و وضع المدن وباقي المناطق الأخر خاصّة البعيدة عن المركز.

د- طبيعة السكان ونظرتهم للآخر:

هذا ما نقله لنا الميرالآي إسماعيل سرهنك عن سكان اليمن بأنهم مجتمع يأنف من كل ما هو أجنبي، وقد سجّل لنا من خلال كتابه "تاريخ الدولة العثمانية". إنّ فشل الحملة العثمانية الأولى على اليمن بقيادة "سليمان باشا الخادم" بسبب مقاومة اليمنيين لحملته، والذين استنجدوا بالبرتغاليين، و لما تأكّدوا من تفوّق القوات العثمانية على قواتهم انسحبوا [20]، وهنا تسقط نظرية الأنفة من الأجنبي- في رأينا - والتي تبنّاها الميرالاي إسماعيل وصف بها اليمنيين. فلو كانوا كذلك لما استقربوا البرتغاليّين (الصّليبيّين) ليبعدوا العثمانيّين (المسلمين)؛ أم أنّ عدو عدوّي صديق؟

إن جل تلك الاضطرابات والفوضى والضجر، وكل تلك الحركات المناوئة للدولة العثمانية، التي ظهرت خلال عهدي السلطانين سليم الأول وسليمان المشرع كانت بسبب أسلوب وطبيعة وسياسات الحكم العثماني المحلّي.

ه- الإبقاء على النظم السائدة بالولايات ونفوذ الزعامات المحلية.

شهد النصف الثاني من القرن العاشر الهجري حركات مناهضة كثيرة في الولايات العربية الآسيوية، وما هو ملفت للانتباه فيها هو انضمام الجيش العثماني إلى البعض منها ،كما حدث في اليمن، إذ تمّ انضمام الجيش العثماني إلى الإمام مطهّر الزّيدي زعيم الحركة المناوئة ، ووقف معاضدًا للولاة العثمانيين هناك. كما قامت ثورات عسكرية بمصر منذ عام (997هـ/1589م)، واتصفت بالعنف وتمثل ذلك في مهاجمة الوالي العثماني "أويس باشا" ذاته بالقاهرة ، بسبب الحقوق الضائعة للعسكر ومن نتائجها نهب بيوت الأعيان والمحلات التجارية.

1994. (انظر: تركيا، دليلفودورز(Fodor's) السياحي، تر: مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم، (د.م) 1994، ص88).

[19]) بيتر جوشر، أوربا العثمانية (1354م-1804م) في أصول الصراع العرقي في الصرب البوسنة، تر: عاصم الدسوقي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط1، 1998، ص146.

[20]) الميرالآي إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988، ص 100.

بالإضافة إلى ثورات عسكرية أخرى عنيفة في ولاية بغداد ، بل فاقت في عنفها عنف ثورات العساكر في كل من اليمن ومصر وبلاد الشام، وكانت كلها مناوئة وموجهة إلى السلطة العثمانية المحلية[21].

2- أنواع الحركات المناوئة ومميّزاتها:

على إثر التواجد العثماني في البلاد العربية، وخلال ثلاث سنوات من بدايته، وقعت سلسلة من الحركات المناوئة العثمانية، واستمرت في الظهور إلى ما بعد عهد السلطان سليمان المشرع. فلقد عرفت كل ولايات الدّولة العثمانية بالمشرق العربي العديد من الحركات المناوئة للدولة العثمانية. فإذا كانت كلها تشترك في مناوأتها للسلطة العثمانية فإنها تختلف فيما بينها من حيث أنواعها وانتماءاتها، وهي كما يلي:

حركات عسكرية:

وهي التي قامت بها مجموعة عساكر من الجيش العثماني بغض النظر عن المطالب المرفوعة والمكان الذي ظهرت فيه، وقد ساعدهم في ذلك نفوذهم على مستوى السلطة مما جعلهم يتحدون الوزراء والولاة المحليين. ومثال عن الحركات العسكرية المناوئة نذكر على سبيل المثال لا الحصر،"حركة وعصيان الإنكشاريّين الذين طالبوا بزيادة العلوفات وهذا ما أفاد وشهد به المعاصر ابن طولون في كتابه: (مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان، تاريخ الشّام مطلع العهد العثماني).

حركات شعبية:

وهي الحركات التي يقوم بها بعض الأهالي بزعامة أحد الزعماء المحليين ومن طبيعة المجتمعات العربية في تكوينها وجود قبائل وعشائر وزعامات محلية ذات نفوذ كبير، وهذه الزعامات المحلية مختلفة الأسس، فمنها من كانت زعامته على أساس طائفي، ومنها من كانت على أساس ديني، ومنهم من كانت على أساس عشائري أو على أساس أسري أو على أساس النفوذ السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي[22].كذلك فإن هؤلاء المناوئين نوعان: مناوئون محليون (رعايا) من أهل البلد، أو عثمانيون سياسيّا، من أصحاب المناصب كالولاة. وهذا ما أوضحناه سابقا في سياق الحديث عن أنواع الحركات المناوئة .

[21]) أبو علية، مرجع سابق، ص ص 258، 260، 261.

[22]) المرجع نفسه، ص ص259.....265.

-المناوئون المحليون:

وهم أبناء البلد أي من السكان الأصليين مثل المتمردان اللذان ظهرا على إثر وفاة والي مصر "خيربك" وأثناء فترة الفراغ الذي عانت منه الولاية حيث بقيت الولاية بعد وفاته دون والي جديد ولمدة عام تقريبًا. وكذلك مثل: المتمرد ابن الحنش وثورته. كذلك تمردات العشائر المحلية المناهضة للدولة العثمانية والتي كانت تستهدف قوافل الحج على وجه الخصوص. وكل هؤلاء وغيرهم سواء في العراق أو في اليمن أو في الشّام فكلّهم من أبناء المنطقة[23].

المناوئون العثمانيون:

ويتمثل هؤلاء في العثمانيين أصحاب المناصب، والذين عينتهم الدولة كولاة بالولايات ومثال ذلك الوالي "أحمد باشا" والي مصر الذي عينه الباب العالي بدل الوالي السابق (خير بك). حيث بعد تعيينه ووصوله إلى مصر، كشف عن نية مناوأته وعصيانه، وقلّب ظهر المجن لسلطانه وصهره. فقام ابتداء من سبتمبر/أيلول 1523م بإجراءات تمهيدية لعصيانه وتمرّده على الباب العالي ومن أهمها ما يلي:

-نزع سلاح القوات العثمانية.

-ترحيل الكثير من أفراد الجيش (المشاة) إلى استانبول.

-إطلاق سراح المماليك السجناء الذي شاركوا في حركة التمرد السابقة.

-الإعلان عن نفسه سلطانًا.

-أمر مؤيديه بقتل ما بقي من القوات العثمانية.

وأكثر من ذلك أمر بصك النقود باسمه وهو دلالة على نية الانفصال والاستقلال[24]. وفي ذات الوقت فإنّ هذه الحركات تتنوع وتختلف أهدافها وهي كالآتي:

1) حركات قام بها المماليك مثل:"جان بردي الغزالي" و"جانم السيفي"، وكان الهدف الأبرز لقيامها أو مبرّرات ذلك هي إعادة السلطنة المملوكية والتي ضاعت و ضيّعت مكانتها مكانة المماليك كطبقة مميزة.

[23]) يوجين روجان، مرجع سابق، ص39.

[24]) المرجع نفسه، ص39.

2) حركات قام بها عثمانيون مناوئين للإدارة العثمانية وطامعين في السلطنة والعرش عن طريق الاستقلال كما حدث في مصر من قبل أحمد باشا الخائن.

3) حركات قام بها البدو، وقوى محلية بالولايات سعت إلى الحفاظ على نفوذها الذي كانت تتمتع به قبل التواجد العثماني.

4) حركات قام بها الانكشاريون طمعًا في زيادة العلوفة والحصول على العلاوات المناسباتية كاعتلاء العرش من قبل سلطان جديد[25]. إن هذه الحركات المناوئة وعلى اختلاف أشكالها وأهدافها، والتي ظهرت ببلاد المشرق العربي مناهضة للدولة العثمانية، قد ظهرت مع بداية التواجد العثماني بالمشرق، ومنها بلاد الشام.

وكما كانت بلاد الشام هي الأولى في استقبال العثمانيين كانت أيضا هي الأولى في ظهور أولى الحركات المناهضة للدولة العثمانية[26]. لكن ومهما اختلفت تلك الحركات وتباينت بواعثها وأهدافها، فإنها تبقى كلها حركات مضادّة ومناهضة بدرجة أو بأخرى للسلطة العثمانية[27].

وفي إطار ما تقدم ستتناول هذه الحركات التي ظهرت ببلاد المشرق خلال عهدي السلطانين سليم الأول (1512م/1520م) وسليمان المشرع (1520م/1566م) مستفتحين بالشام*، والتي ظهرت بها أولى الحركات المنسوبة إلى البدو وتسمى ثورة ابن الحنش (924هـ /1519م)، وتلتها ثورة العربان (925هـ/1519م)، ثم بعدهما حركة جان بردي الغزالي. لكن قبل كل ذلك، نشير إلى باكورة الحركات المناوئة للسلطة العثمانية، والتي ظهرت مع بداية تولية السلطان سليم الأول عرش السلطنة العثمانية، والتي تعتبر مُمَيَّزة عن باقي الحركات اللّاحقة، وهذا لكونها حركة من الأسرة الحاكمة، ومن الطّبقة السّياسيّ

---

[25]) ابن طولون الصالحي الدمشقي، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ الشام في مطلع العهد العثماني (1520-1544)، دراسة وتحقيق:أحمد إيبش، أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، 2010، ص20.

[26]) التونجي محمد، مرجع سابق، ص14.

[27]) إيفانوف نيقولاي، مرجعة سابق، ص77.

*) **الشام**هي: المنطقة التي تشمل سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، وهي الممتدة على شكل قوس من الفرات إلى غزة وخليج العقبة ويطلق عليها منطقة الهلال الخصيب كما تطلق كلمة الشام على مدينة دمشق وحدها كناية عن المنطقة كلها. ومنذ 1864 أصبحت تعرف بسوريا بدل الشام .(انظر: عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914م، أطروحة ماجستير جامعة عين شمس، دار المعارف، القاهرة، 1967،ص64، ها 4).

1. حركة ابن الحنش عام 924 هـ/1518م

لقد شكلت الحركات المناوئة التي قام البدو** أكبرتحد للدولة العثمانية، وقد ساعدها في ذلك نشاطها المتمركز في المناطق البعيدة عن المراكز الإدارية والمتميزة بضعف الوجود العسكري ولهذا كان ردعها ومقاومتها مكلفا، ومن بين هذه الحركات البدوية، حركة ابن الحنش.

تعتبر ثورة الأمير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب البقاع وحماة وصيدا وكلها تقع بالشام[28] عام (924هـ/1518م) أول حركة مناهضة للسلطة العثمانية - حسب إطلاعنا- وذلك لقيامها والسلطان "سليم الأول" في طريقه إلى مصر، حيث ضن ابن الحنش أن السلطان سليم الأول لا محال سينهزم في مصر، ومستغلاً غيابه، فرفع لواء العصيان مع أتباعه، وقام باعتقال بعض المسئولين بالمنطقة بين صيدا وبيروت (بالبقاع).

موقف السلطة العثمانية :

بعد عودة السلطان سليم من مصر ظافرًا، تيقن ابن الحنش أن لا قدرة ولا قبل له على المقاومة، ففكر في الفرار إلى ديار بكر، فرتب الأمر مع أمير طرابلس العثماني "مصطفى بك" طالبًا الصفح والمساعدة على العبور إلى كردستان (ديار بكر)، لكن الأمير اتصل ببكلربكي الشام "جان بردي الغزالي"، الذي قام بإلقاء القبض عليه والتصدي لأتباعه والقضاء على ثورته في مهدها.

ومن الأتباع الذين تم القبض عليهم أربعة من مشايخ العربان (شيخ الجبل، وشيخ نابلس قراجا بن طراباي) وقمرقاز والأمير علم الدين سليمان والأمير زين الدين. فقام جان بردي الغزالي بقطع رأس ابن الحنش وإرساله إلى سلطانه "سليم الأول". أما البقية فقد أطلق سراحهم باستثناء مشايخ العربان، فقد لقوا نفس المصير. واسند السلطان سليم منطقة ابن الحنش إلى "محمد بن قمرقاز" للإشراف عليها و بعد هذه الثورة

**) ليست كل عشائر البدو مناهضة للدولة العثمانية، بل هناك منهم، من ظل على وفائه وولائه للسلطنة، وساهم معها في التصدي للمتمرّدين.

[28]) التونجي، مرجع سابق، ص96.

استقرت الأوضاع وساد الهدوء والأمن طيلة عهدي السلطانين سليم الأول وسليمان المشرع إلى أن ظهرت حركة عشائر الغورسة 975هـ/1567م[29] في عهد السلطان سليم الثّلث.

وعلى إثر هذه الثورة المناوئة للسلطة العثمانية وما آلت إليه نهايتها ظهرت نتيجتان: الأولى وتمثلت في إخماد نارها في مهدها. والثانية: تمثّلت في توتر الأوضاع بنابلس بقيادة بن جيوس، وببعلبك بقيادة ابن حرفوش و لم يغادر السلطان "سليم الأول" أراضي الشام حتى تصدى لهم على مرحلتين.

الأولى: بمهاجمتهم وقتل البعض منهم. والثانية بملاطفتهم واستمالة عواطفهم وتطييب خواطرهم بتخفيف المكوس والضرائب عنهم، وهذا بعدما علم استعداد الشاه الصفوي لمهاجمة مدينة حلب[30]. وهنا نلمس تنوع معاملة السلطان المتغيّرة من الشدّة إلى اللّيونة. وما دامت حركات العصيان التي تقوم بها معظم العشائر المناهضة، كثيرًا ما تستهدف قوافل الحجاج، وهو استهداف ممارس قبل التواجد العثماني؛ وقد شهد على ذلك الرّحالة الإيطالي (لودوفيكو دي فارتيما =L .D. Varthema) عام 1503م، من خلال كتاب الرّحالة الغربيون في المشرق الإسلامي في العصر الحديث[31]، أما خلال التواجد العثماني فقد قامت السلطة العثمانية ببعض الإجراءات وهي:

1. الاستعانة بزعماء العشائر الموالية لها لتقوية عضد الانكشاريين و السباهية.
2. جمع الحجاج في نقطة تجمع واحدة ثم الانطلاق في وقت واحد وقافلة واحدة.
3. تعيين أمير عثماني على رأس القافلة (أمير الحج)*.
4. مرافقة قوة عسكرية لقافلة الحج ذهابًا وإيابًا.
5. كسب ود العشائر البدوية بتقديم لهم مبالغ ماليَّة (الصرّة السلطانية) كل موسم حج.

---

[29]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 147، 148.

[30]) كرد محمد علي، خطط الشام، الجزء الثاني (الدولة النورية)، ص،227. و(أنظر:بيات ، المرجع السابق، ص148) .

31) جمال محمود حجر، الرحالة الغربيون في المشرق الإسلامي في العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (د.ط)، 2012، ص 25.

*) كانت الدولة العثمانية تولي أهمية كبيرة جدّا لقافلة الحج وذلك لأهميتها الاقتصادية والدينية ولارتباطها رأسًا بالسلطان (الباب العالي) وخاصة إذا علمنا أن قافلة الحج الشامي (مركزها دمشق) تضم حجاج الشام، وكردستان، والأناضول، واذربيجان، والقرم، والقوقاز، والجزيرة، وبذلك يكون عدد الحجاج يتراوح بين 30 ألفا و 50 ألفا. (أنظر: عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (1566/1516) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2008، ص153).

6. تغطية نفقات الحجاج واستئجار الجمال من العشائر وتقديم المؤن لهم[32].

ومن خلال ما تقدم نلاحظ أن الدولة العثمانية كانت تقوم وتجابه تلك الحركات المناوئة، والمشاغبة أحيانا، بطرق وأساليب شتّى.

2. حركة العربان** عام (925هـ/1519م).

تعتبر هذه الحركة المناوئة من أطول الحركات نفسا، وهذا من خلال مدتها الممتدة من سنة 1519 إلى سنة 1523م إلا أنها مرت بمرحلتين :

- المرحلة الأولى:

يبدو أن العربان لم ينسوا مقتل مشايخهم، وكما هو معروف عند العرب ما مدى تجذر العصبية القبيلة والولاء لزعيمها، وكذا التصميم على تنفيذ الثأر كلما سنحت الفرصة لأنه لا يسقط بالتقادم في عرفهم[33]. لذلك لم يتوقفوا عن إثارة الشغب والاعتداءات، ومنها مهاجمة قوافل الحج الشامي.لكن نائب الشام "جان بردي الغزالي" تصدَّى لهم، بالتعاون مع نائب غزّة ونائب الكرك، فقتل منهم الكثير، خاصة بعض من مشايخهم ؛ وغنم ما غنم من أموالهم[34]، وهذا ما سيؤسس لتجدد ثورة العربان فيما بعد. وما تعاون نائب الشام مع نائبي غزة* والكرك إلاَ دليلاً على قوتهم وخطورتهم. وهي أكبر من أن تُكَسَّرَ بتخفيف المكوس والضرائب المفروضة عليهم، من الدولة كترضية وإخماد لحركتهم .

وهذه إحدى الأساليب التي اتبعتها السلطة العثمانية في مواجهة الحركات المناوئة.

أسباب حركة العربان:

---

[32]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي،مرجع سابق، ص149.

**) ويقصد بهم البدو، وهم أربعة أصناف: البدو الرحل، وأشباه البدو، والبدو شبه المستقرين، والمستقرين (أنظر محمد عفيفي، عرب وعثمانيون).

[33]) القطب، مرجع سابق، ص، 258.

[34]) كرد محمد، خطط الشام ،ج2، مرجع سابق، ص 228 .

*) غزّة: مدينة بجنوب فلسطين على ساحل البحر المتوسط ونسمى غزة هاشم لضمها رفات جد الرسول (ص). (انظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط29، 1986، ص361).

إذا كانت ثورة ابن الحنش غير واضحة الأسباب على الأقل في حدود اطلاعنا، فإن ثورة العربان التي وقعت بعدها تبدو أسبابها جلية، وهي أسباب اجتماعية في نظرنا ولا غيرها من الأسباب الأخرى. فمقتل مشايخ العرب على يد جان بردي الغزالي، على إثر ثورة ابن الحنش، كان هو الدافع لتلك الثورة و المحرك لها، وكيف لا والأمر يتعلق بالمشايخ. ونحن نعلم مكانة شيخ القبيلة بين أفراد قبيلته، وكذلك العصبية القبلية وتحذرها في المجتمعات المشرقية.

- المرحلة الثانية عام (927هـ/ 1523م):

بعد ما خمدت نار ثورة العربان على يد "السلطان سليم الأول"، وظنت السلطة أنها أطفأتها، فإنها ما فتئت أن استعارت نارها من جديد في عهد السلطان "سليمان المشرع"، وكأنّها جانُ ماردُ. وهكذا ما إن أُقْبِرَت حركة جان بردي الغزالي، حتّى أطلت حركة العربان برأسها من جديد عام 927هـ/1523م بدمشق، وتسببت في فوضى وعصيان

السلطة العثمانية المحلية. و رغم ذلك لم يتأخر موقف الدولة العثمانية المتفاعل مع الحدث وكان ممثلاً في تصدي فرهاد** باشا لحركة هؤلاء العربان لكن رغم إخمادها إلاّ أن نتائجها كانت وخيمة على الطرفين، حيث أصيب إياس باشا بانكسار وجروح وقتل من عساكره الكثير، وكذلك من عربان الجبل ونابلس، وقد اعتبرت من بين الثورات والحركات الخطيرة التي حدثت بالشام[35].

3. حركة الدروز* 930هـ/1524م

**) فرهاد باشا: كان وزيرًا في عهد السلطان سليمان المشرع كما أرسله السلطان لوقف التمرد الذي قام به جان بردي الغزالي بدمشق. (انظر: Van Hammer ، ص 13). وسيأتي ذكره لاحقا.

[35]) محمد كرد علي، خطط الشام، ج2، ص227.

*) الدروز:هم طائفة إسلامية، وإحدى الفرق الشيعية، يتمركزون في منطقة جبل لبنان بالشام، وينتسبون إلى صاحب الدعوة محمد بن إسماعيل الدرزي ذو الأصل الفارسي، وعقيدتهم تدعو إلى تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي (996هـ/1021م) ويختلفون عن المسلمين في الشّعائر منها: الزواج والصلاة،... وينقسم المجتمع الدرزي إلى: عقال وجهّال. (أنظر: عمر عبد العزيز عمر، المشرق العربي، مرجع سابق، ص163، ها(2)). ومحمود كامل المحامي،مرجع سابق، ص200.

بدأت هذه الحركة بالشّوف، وهي المنطقة التي تتمركز بها طائفة الدروز بقوة، حيث أعلنوا عصيانهم وتمردهم ضد السلطة العثمانية المحلية عام 930هـ/1524م، والممثلة في نائب الشّام "خرّم باشا" آنئذ.

أما عن أسباب هذه الحركة المناوئة للسلطة، فإنها ترجع إلى حادثة تعكس تفشّي سوء الأخلاق والفاحشة بالمجتمع، حيث يذكر ابن طولون في كتابه "مفاكهة الخلان في حوادث الزمان"، أن السبب يعود إلى فعل لواط قام به رومي علي صبي درزي وعلى إثر ذلك قام الدّروز بقتل الفاعل الذي تبين أنّه "الصّوباشي**".

أمّا فتيل الأحداث التي نشبت على إثر ذلك، فقد أشعلها نائب الشام - حسب رأينا- حيث قام بحشد نحو أربعمائة نفر من المرتزقة، ودفع لهم أجورهم من حرّ ماله، وتوجه إلى منطقة الشّوف بتاريخ 18 شعبان 930هـ/1524م؛ فقام بنهب القرى وحرقها بعدما بطش بأهلها، وسبي النساء والأطفال؛ وما قفل راجعاً إلاّ بثلاثة أحمال من رؤوس الدّروز المقطوعة[36]. وهنا نلاحظ غياب الحكمة والميل إلى الانتقام، فبدل أن يتقدم الدّروز بشكوى إلى السنجق (الممثل لنائب الشام)، قاموا بتسليط العقوبة بأنفسهم، فحكّما قضاءهم بأنفسهم، ونصّبوا أنفسهم قضاة. و كذلك بالنسبة للنائب الشامي، فبدل أن يعالج الحادثة بحكمة الحاكم الحكيم وعن طريق القضاء، أو عن طريق عقلاء القوم، فإنّه قد قام بما قام به، ليتسبّب بذلك في تلك الأحداث.

4. حركة جان بردي الغزالي.

إنّ حركة جان بردي الغزالي تعد من أبرز الحركات المناهضة للدولة العثمانية، وأخطرها بالشام، وذلك لعدة اعتبارات سنقف عندها لما نتناول هذه الحركة بالتفصيل.لكن قبل الولوج في الموضوع، فإنّ معرفة الوضع قبل حدوث هذه الحركة أكثر من ضروري، وذلك للوقوف على حقيقتها وزعيمها وبالتالي عليها.

**)الصوباشي: هو المكلف بحفظ النظام والأمن في المدينة.(أنظر حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر القاهرة، ط1، 2004، ص 83).

[36]) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ الشام مطلع العهد العثماني (1520-1544)،من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح: أحمد إيبش (د.ت)، ص، 170).

فبعد دخول السلطان سليم الأول بلاد الشام، وتثبت تبعيتها للباب العالي، قام بتعين أحد المماليك ويدعى جان بردي الغزالي[37] كوالي عن دمشق، وعن ما بين المعرّة وعريش مصر*، بتاريخ: يوم الثلاثاء 05 صفر 924هـ/16شباط/فبراير 1518م[38]. فكان عند حسن ظن السلطان، فقد تصدى لكل من أراد الخروج عن الطاعة، وزهد في نشر الأمن والأمان في ربوع ولاية دمشق وفي كلّ ما هو تحت إشرافه، معتمدًا في ذلك على جيشه المتكون من البدو (العربان)، والمماليك إلى جانب الجيش العثماني.

ومن أجل رعاية الأمن والاستقرار وحسن نيابة السلطان واجه كل حركة مناوئة وحسب "نيكولاي ايفانوف"* فإن جان بردي الغزالي يكون قد أفشل على الأقل حركتين مناوئتين بقوله: « وشن حملتين لغزو حوران »[39].

وبفضل حرص جان بردي الغزالي ساد السلم والأمن، إلى درجة انبهار المؤرخ ابن إياس، واصفًا ذلك السلم والأمن بقوله: « وأنّ الحمل والذئب استطاعا العيش معًا »[40].

لكن بمجرد تناهي خبر وفاة السلطان سليم لأول المفاجئة إلى مسامع ولي الشام، وتولي خليفته الأمير سليمان عرش السلطنة، حتى تلاشى ولاءه، وبدا يفكر في التحرك مقلبا ظهر المجن للسلطة العثمانية وبصورة فجائية.

- **الاستعداد لها:**

---

[37]) Hammer Purgstall Joseph Von, Histoire de l'Empire ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours, T4, depuis la mort du prince « Djim» frère de Bayazid II jusqu'à la mort du Selim I (1494-1520) , 1995, P 11.

*) تقول بعض المصادر أن التعيين كان مقابل خيانته للدولة المملوكية وتقديمه خدمات للعثمانيين خلال حملتهم على بلاد الشام ومصر. (أنظر: ابن طولون،تاريخ الشام مطلع العهد العثماني، المرجع السّابق ص116).

[38]) ابن طولون، تاريخ الشام في مطلع العهد العثماني، دراسة وتح. أحمد إ ييش، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (د.ط)، 2009، ص127.

*)إيفانوف نيكولاي:مستشرق متخصص في التاريخ العثماني.

[39]) إيفانوف نيكولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516م/1574م)، تعريب يوسف عطا الله، مراجعة مسعود ظاهر، دار الفارابي، ط1، بيروت، 1988، ص77.

[40]) ابن إياس، مرجع سابق، ص 1033.

اعتمادا على ما تيسّر لنا من المطالعة، فإنّنا نميل إلى القول بأنّ ثورة "جان بردي الغزالي" لم يسبقها استعداد أو تخطيط، والسبب في رأينا، هو أن فكرتها ولدت لدى زعيمها مع وفاة السلطان "سليم الأول"، ولهذا العدم من الاستعداد قام جان بردي الغزالي بمراسلة حاكم مصر "خيربك" يسترشده في أمره*، لكن حكمة هذا الأخير وبصيرته ألهمته تحذيره من مغبة الإقدام على فعل كهذا، بل ذكّره بما بين يديه قائلا: « أما يرضيك إقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك، فإيّاك ثم إيّاك أن تتفوه بشيء من ذلك ». ولما غشّاه الغرور وأفسده الطمع راسل من جديد خيربك مهدّدًا بالزحف عليه إن لم يؤيده، فجاراه مجاراة مخادع، حتى علم وتفطن لذلك نصحاء جان بردي الغزالي، إلاّ أنه عزم وصمّم على ما عزم عليه[41]. أما خيربك فقد كان وفيًّا للباب العالي (كعادته)، وكاتب السلطان الجديد سرًّا، وأعلمه بما يجري، وهذا ما سهّل على السلطان العثماني تجهيز جيش بقيادة "فرهاد باشا" (الوزير) وإرساله لمحاربة المتمرّد الغزالي[42].

- **انطلاقة الحركة :**

انطلقت حركة جان بردي الغزالي المناهضة للدولة العثمانية، مباشرة بعد سماع خبر وفاة السلطان سليم الأول، بتاريخ 22 أيلول/سبتمبر 1520[43]. وتربع خليفته الأمير سليمان على عرش السلطنة، وبعد تلقيه مساعدة من فرسان القدّيس يوحنا، في جزيرة رودس. حيث تحول الهدوء والاستقرار بسرعة إلى اضطراب وفوضى، وتحول جان بردي الغزالي من نائب موالي مطيع، إلى متمرد ثائر شاق لعصا الطاعة. وسولت له نفسه قلب ظهر المجن للباب العالي(Sublime porte)، مغتنما سانحة وفاة السلطان، وصغر سن خليفته الأمير سليمان، ومرتكزًا على آسف وحسرة الجراكسة على ملكهم الضائع؛ ليعلن تمرده في ليلة الاثنين 17 ذي القعدة 926هـ/1520م. بدءا بشن حملة على مدينة حلب وبعد فشله تراجع إلى دمشق حيث قام وحاصر قلعتها بمعية شباب أهل الحارات من: الشواغرة، والصوالحة وميدان الحصى والميادنة (باللسان

*) حسب وجهة نظر "هامر Hammer " فإن جان بردي الغزالي أراد أن يجر معه حاكم مصر، و الدّروز محرضًا ومشجعًا إيّاهم على التمرد والانفصال، فيقول "هامر" « Il s'efforça en même temps d'entrainer dans sa révolte le : gouverneur de l'Egypte ». (Voir : Hammer, op, cit, P 12) .

[41]) أحمد بن زنبل الرّمال محلي

[42]) إنالجيك، مرجع سابق، ص ص 120، 121.

[43])Hammer, cop, cit P 12.

المحلي)، وقاموا بنهب* الحجاج ودكاكينها وحتّى ما بها من ودائع[44]. وكذلك الهجوم عليها وقت الضحى ثم الاستيلاء عليها، وقتل 5000 انكشاري غدرًا بعدما جمعهم .

لقد وقع هلع كبير من شدّة الحادثة، حتّى انشغل النّاس عن صلاتهم بها وانقطعت الطرق، وهرب نائب طرابلس وحماة وقتل الصّوباشي بمدينة حمص وهو ما أشار إليه ابن طولون بقوله:"وأُخِّرت الصلاة على قاضي القضاة زكريا بن محمّد الأنصاري المصري[45]لانشغال الناس بفتنة الغزالي المقدّم ذكرها وانقطاع الدرب المصري. وفي الأخير نودي له بالسلطة بتاريخ 24 صفر 927ه؛ ومن خلال ما تقدم نلاحظ أن هذه الحركة قد مسّت وأثّرت على كل المجالات.

- **إجراءات جان بردي الغزالي:**
- لإبراز مناوأته وتمرده اتخذ جملة من الإجراءات منها:

أ. تلقبه باسم "الملك الأشرف".

ب. ارتداء الملابس المملوكية.

ج. منع المواطنين من لبس الأزياء العثمانية.

د. منع خطباء المساجد من الدعاء للسلطان سليمان يوم الجمعة.

ه. طرد المسئولين والجنود العثمانيين من الشام[46].

- **المواقف المختلفة من حركة جان بردي الغزالي .**

- موقف السكان:

رغم الإجراءات التي اتخذها جان بردي الغزالي على إثر تمرده على سلطانه، إلا أن السكان لم يصطفوا معه في صف التمرد والعصيان، باستثناء الدروز وبدو جبل نابلس، وبعض القبائل؛ وبذلك لم يكن التأييد الشعبي تأييدا عاما.إلى درجة أنّ الكثير منهم اندهش لموقف المتمرد جان بردي الغزالي. وبهذا التأييد الجزئي قام

*) ما نهب حسب ابن طولون قدر بـــ : (60) غرارة قمح، بالإضافة إلى العسل والزيت والسمن والطحين وحتى الحطب.

[44]) ابن طولون ، مرجع سابق، ص ص105، 106. وانظر: كذلك محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، 11، 2009، ص119.

[45]) ابن طولون،المرجع نفسه، ص ص 107،111.

[46]) يوجين روجان، مرجع سابق، ص ص 36، 37، 38.

بشن حملة عسكرية قوامها ثلاثة وعشرون ألف مقاتل واتجه بهم صوب السلطة المحلية بحلب خلال شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1520م. وهكذا نلاحظ أن مناوأة الدولة العثمانية لم تكن شعبية، وإنما هي من قبل أفراد أو زعامات، ولا تفوتنا الإشارة إلى أن جان بردي الغزالي قد تشجع للهجوم على حلب بفضل المساعدات الحربية الخارجية*. وهنا نقف على أحد الأيادي الخارجية .

إن ما يعزّز موقف السكان المعادي لحركة جان بردي الغزالي والرافض له هو أن نائب حلب قارا باشا لما توفي السلطان سليم الأول أقام بحلب صلاة الغائب يوم الرابع عشر من ذي القعدة 926هـ/ 1520م، وخطبوا باسم ابنه سليمان، كما تمت عملية التحصين والاستعدادات. وحسب ابن طولون فإن عامة الناس لم يكونوا نافرين من التواجد العثماني ولا معارضين لسياسة السلطان[47] بل حزنوا وبكوا لوفاته[48].

موقف السلطة العثمانية.

لقد أظهرت السلطة العثمانية حزمها من خلال موقفها من حركة الغزالي المناوئة، وقد ظهر ذلك كما يلي:

لما بلغ خبر تمرد نائب دمشق عن الباب العالي وأعلن شقه عصا الطاعة اتخذ الباب العالي موقفا حازما وسريعا، فأرسل السلطان سليمان جيشين: الأول بقيادة أمير إمارة ذي القدر "علي بك"، والجيش الثّاني بقيّادة الوزير فرهاد** باشا، قوامه أربعمائة (400) انكشاري ومعهم السباهية [49]، للتصدي والقضاء على هذه الحركة، وفي ذات الوقت قام بإجراء إداري موازي للإجراء العسكري وتمثل في تعيين وال جديد على الشام يدعي "إياس باشا" بدل المتمرد "جان بردي الغزالي" المملوكي[50]. لما وصلت التجريدة إلى دمشق والتقى الجيشان بادر إياس باشا بكيل وصب الإهانات للغزالي، مذكرا إياه بأفضال الدولة العثمانية عليه، ومما قال له:

---

*) تمثلت تلك المساعدات في قطع مدفعية أرسلها فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس Rodhs الكائنة بالبحر الأبيض المتوسّط.

[47]) ابن طولون، مرجع سابق، ص116.

[48]) يوجين روجان، المرجع السابق،ص38.

**) عند هامر (Ferhat) ويعني فرحات: والدال عند الأتراك تنطق غالبا تاء مثل مراد تنطق مرات وتكتب باللاتينية Murat أنظر : LALE TU TURKÇE DERS KITABi 1, DIL SET YAYINLARI.

49) ابن كنان، مرجع سابق، ص 237.(و أنظر: Hammer, op,cit, P 13 و(انظر: الشنّاوي، مرجع سابق، ص199).

[50]) اينالجيك، مرجع سابق،ص76.

« لو كان فيك خير كان لأبناء جنسك، فالذي ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير لغير جنسه ياخائن يا فاجر يا غدّار يا مكّار...».

كانت هذه مقدمة الصدام، وبعدها التحم الجيشان ودارت "معركة القابون" بين الفريقين" وكانت الغلبة للجيش العثماني الذي شتّت جيش التمرّد، وهكذا ضاق الأمر على الغزالي فلا هروب يحميه ولا بقاء ينجيه، وكانت نهايته الأسر بعد ما دل عليه أحد أخصّائه يدعى علي بالي، الذي كان قد رباه عنده منذ صغره، فحُزَّت رأس المتمرد "جان بردي الغزلي" وأُرسلت إلى السلطان الجديد سليمان المشرّع بالأستانة، وعلى أثر ذلك تزيّنت البلاد احتفاء بالقضاء على التمرّد كما نال إياس باشا شكر السلطان[51].

- **نتائج تدخل الباب العالي وإحباط التمرد.**

من بين النتائج التي ذكرها "هامر" والناتجة عن التدخل العثماني والقضاء على تمرد الغزالي ما يلي:

أ. القضاء على العديد من المتمردين.

ب. انهزام جان بردي الغزالي وهروبه من المعركة مموها بلباس درويش.

ج. خيانة خادمه الخاص وإلقاء القبض عليه ثم حزت رأسه يوم: 27 صفر 927هـ- 06 شباط/ فبراير 1521م.

د. تعيين "بايلرباي" الأناضول بحلب من قبل السلطان سليمان المشرع.

ه. إرسال فرحات باشا إلى ضواحي قبرص لتثبيت الوضع بها، وكذلك رصد تحركات الجيش الصفوي.

و. ابتهاج السلطان سليمان بما حققه جيشه في القضاء على التمرد[52].

فإذا كان هذا من نتائج وتأثير المواجهة العثمانية لحركة المتمرد جان بردي الغزالي على المستوى الداخلي، فإن آثار هذه الحادثة قد تعدت بلاد الشام وألقت بحرها على حاكم مصر "خاير بك"، فيذكر أحمد بن زنبل الرمال بأن لما آلت إلى ما آلت إليه هذه الحادثة، تكدر حال حاكم مصر، فقام بعتق مماليكه وتبت

[51]) أحمد بن زنبل الرمال المحلبي ص ص 124،125،126،127،128.

[52]) Hammer, op.cit; P14.

وصاياه وأفصح عنها[53]. كما نتج عنها مراجعة السياسة العثمانية بالشام حيث ولأول مرة تقسم بلاد الشام إلى ثلاثة ولايات* وتم تعيين ولاة عثمانيين على المدن الكبرى، بينما بقي الزعماء المحليين على خارج المدن.

ثانياً: بمصر .

1- حركة طومان باي:

بعد معركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك وما آلت إليه النتيجة بين السلطان سليم الأول والملك قانصوه الغوري، توجه السلطان العثماني نحو مصر. وقد صادف أن استخلف قانصوه الغوري بالقاهرة طومان باي خلفا له.

وفي يوم الخميس 29 من ذي الحجة 922هـ/ 1517م التقى الجيشان في الريدانية على مشارف القاهرة، وكما ذكرنا سابقا نتيجة لا نهاك قوة المماليك بالشغب والثورات المستمرة من قبل قبائل البدو، وكذلك امتناع زعماء ومشايخ البدو عن مساندة طومان باي ،ممّا سهّل هزيمة الجيش المملوكي وإسقاط عاصمة المعز (القاهرة) ليدخلها العثمانيون من غير عناء ولكن ما يعاب على الجيش العثماني هاهنا أنّه قام بنهب كل ما بلغته يداه من بيوت الأمراء والطواحين ومخازن القمح والغلال والدقيق.[54] وفي اليوم الموالي دخل من أسر في معركة مرج دابق من القادة والأعيان ومنهم الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله ونائب حلب السابق خير بك والقضاة وغيرهم من أعيان المماليك بصحبة وزراء ابن عثمان، وبعد ذلك نودي بالأمن والأمان وبالبيع والشراء وعلى كل من يحوز مملوكا أن يبلغ عنه وإلا فالعقوبة شنقا. غير أنه ورغم نداء الأمن والأمان، إلا أن الجيش العثماني استمر في عمليات التفتيش والنهب لثلاثة أيام أخرى إلى أن أصدر السلطان سليم الأوّل أمرا بالكفّ عن النّهب والسّلب صباح يوم السّبت الفاتح من شهر محرّم الحرام (923ه-1517م) من على المنابر، وسُمِّيَ بخادم الحرمين الشريفين، وفي يوم الاثنين3محرم 923هـ/ 1517م

---

[53]) نفسه ص ص 124-128.

*) الولايات هي:1) طرابلس وجبل لبنان،2) دمشق، 3) حلب.

[54]) ابن آجا حمد بن محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، صنعه محمد أحمد دهمان.

*) باب الزويلة نسبة إلى قبيلة زويلة التي قدمت مع جوهر الصقلي من الغرب الإسلامي،ويقع بالسور الجنوبي للقاهرة. (انظر: القلعاوي مرجع دار الفكر، دمشق، 1406هـ/1987، ص،106ها،1وص 283.

دخل السلطان القاهرة عبر باب زويلة * أحد أبوابها ليكون ذلك التاريخ نهاية للسلطة المملوكية وبداية للسلطة العثمانية[55].

بدأت حركة طومان باي هجومها يوم الثلاثاء 4محرم 923هـ/ 28كانون الثاني 1517 م ليلا، على قوات السلطان. حيث دار قتال كبير بينهما؛ فقتل الكثير وأحرقت خيام الحامية العثمانية، كما اندلعت صدامات بين السكان والعثمانيين، وبعد ثمانية وأربعين يوما (48) من القتال تغلب العثمانيون، وترك طومان باي القاهرة ودخلها السلطان العثماني يوم 15شباط/ فبراير1517م[56].

لقد كانت نتيجة تلك الصدامات ثقيلة، حيث قدرت بنحو عشرة آلاف قتيل، إلى درجة أن انتشرت الجثث في كل حدب وصوب، حتى نهشتها الكلاب و تمّ الهجوم على كل شيء حتى الجوامع لم تسلم بالإضافة إلى فرار "طومان باي" نحو بركة الحبش (البهنسا) ومنها أرسل يطلب الأمان من السلطان بتاريخ شهر محرم 923هـ/ 1517م. بالإضافة إلى الفساد والنهب الذي مارسه الجيش العثماني. ورغم ما أبداه طومان باي من طلب العفو من لدن السلطان وعن طريق وسيط، إلا أنه كان يعد العدة ويتهيأ للتّمرّد من جديد ومواصلة العصيان، وأمام هذا النهج، قام السلطان بتخييره بين الرحيل مع ضمان ذكر اسمه في الخطبة و إرسال مبلغ مالي له سنويا، أو القتال. ويبدو أنّ العرض لم يكن مغريّا، ولذا اختار مواصلة العصيان بدل ما عرض عليه. وهنا نلمس ليونة السياسة العثمانية وحنكة الباب العالي، خاصة وأنّه لايعدم القوة العسكرية؛ المتمثلة في الجيش الإنكشاري.

استمر طومان باي في مجابهة العثمانيين، مطبقا حرب العصابات وعملية الكر والفر، لكن في يوم العاشر من ربيع الأول 923هـ/ 1517م التقى الجيشان بالجيزة و هزم المماليك للمرة الأخيرة؛ أما طومان باي فقد احتمى بحسين بن الشيخ مرعي وابن أخيه شكر، لكن بعدما أمّناه خاناه وسلّماه إلى السلطان الذي أمر بإعدامه شنقا، بتاريخ 21 ربيع الأول 923هـ// 13 نيسان /أبريل 1517م وانتهت بذلك دولة المماليك[57].

---

[55]) ابن آجا، المرجع السابق، ص285.

[56]) ابن آجا،مرجع سّابق، ص286.

[57]) المرجع نفسه ، ص 287 .

- آثار الحركة والقضاء عليها:

من بين ما نتج عن حركة "طومان باي" ومواجه الدولة العثمانية لها جملة من النتائج التالية[58]:

1. إخماد الحركة والقضاء على زعيمها طومان باي.
2. رد الاعتبار للخليفة المتوكل على الله الذي أصبح صاحب الحل والعقد والأمر والنهي عبر ربوع المصرية.
3. إعطاء الأمان لمن كان متخفيا من الأمراء وأتباع طومان باي وذلك من خلال ورقة أمان كتبها السلطان سليم الأول بيمينه - حسب ما يقال- وعلى إثر ذلك ظهر أربعون أميرا.
4. تقدم جان بردي الغزالي بطلب الأمان من السلطان ودخل يوم الثلاثاء القاهرة عائدا من غزة مع بعض المماليك الفارين منذ معركة الريدانية و"طومان باي" هو من تواطأ مع السلطان سليم الأول حول موقعه مرج دابق.
5. إرسال حوالي سبعمائة مملوك إلى استانبول بعدما تناقلت أخبار حول إمكانية تجمع أتباع طومان باي من جديد.
6. إعادة القضاة الأربعة المفصولين (المأسورين) في حلب إلى مناصبهم بتاريخ 11 صفر 923هـ/ 1517م.

2- حركة الشيخ حسين بن مرعي:

بعد العصيان الذي أعلنه "طومان باي" قام السلطان سليم بالتصدي له من أجل القضاء على حركته، لكن طومان كان عصيا على السلطان، خاصة وأنه كان مُدعَّما من قبل عرب هوارة وبالناجين من معركة الريدانية، وبعد المواجهة تيقن السلطان سليم من قوة المماليك فجنح إلى المهادنة وأرسل رسولا إلى طومان باي عارضا صلحا مشروطا.* إلا أن المماليك كان ردهم قاس حيث قتلوا رسول السلطان ومن معه ورد السلطان على ذلك بقطع رؤوس ستين أميرا مملوكيا كما قتل الكثير من السجناء، وقرر مواجهة طومان باي بنفسه مستعينا ببعض المماليك الذين غيروا ولاءهم من طومان باي إلى العثمانيين واستمر الصراع بين الطرفين إلى درجة بدأ اليأس يدب في نفس السلطان، ولما أحس طومان باي كذلك بنفاد القدرة على المواجهة انسحب نحو البدو ملتمسا العون منهم ومن زعيمهم الشّيخ "حسين بن مرعي" وكان بمعيّة ثلّة من أمرائه، فاستقبله

---

[58]) المرجع نفسه،ص ص 287،294.

*) يتمثل العرض المشروط في: الإقرار بالتبعية للدولة العثمانية من قبل طومان باي وبالمقابل ترك السلطان مصر لـــ:طومان باي كنائب له،) انظر: بيات الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص ص400، 401، ها 16.

مرحبا به، إلاّ أن الشيخ بن مرعي بعدما آواه وتعهد بحمايته سلّمه إلى العثمانيين فقدم بين يدي السلطان سليم الذي أمر بإعدامه بتاريخ 21 ربيع الأول 923هـ/13 نيسان/ أبريل1517م، وبذلك تخلّص السلطان سليم من أكبر زعيم مملوكي قادر على جمع شتات المماليك ضد أي كان[59].

لقد ظن الجميع أن بالقضاء على طومان يستقر الوضع، ولا يستطيع غيره التمرد على الأقل عقب القضاء على طومان باي، وإذا بشيخ العرب حسن بن مرعي يبدي بعض التصرفات المثيرة، فأسرع السلطان بالقبض عليه وسجنه بالقلعة.

وحسب الكاتب أحمد فؤاد متولي، فإن ذلك يعود إلى مطالبة الشيخ حسن بن مرعي بمقابل صنيعه للسلطان أو عدم رضائه بما كوفئ به غير أن الشيخ حسن بن مرعي لما أتيحت له أول فرصة هرب ليلا من سجنه، وقام بجمع وتحريض مواليه ومؤيديه وخاصة الذين كانوا في طاعة طومان باي قبل القبض عليه، و بهؤلاء أشهر تمرّده وثورته على السلطان سليم.[60]

بعدما أعلن حسين بن مرعي تمرده وحربه على السلطان سليم الأول، قام هذا الأخير بتجريد جيش قوامه ما بين الثلاثة آلاف وأربعة آلاف جندي من عساكر الأناضول والانكشارية والشراكسة الموالين للحكم العثماني بالإضافة إلى بكوات العرب ومقدميهم وغيرهم من بقيادة خير بك فهاجم الشيخ حسن بن مرعي المتمرد وأتباعه وبسهولة استطاع تشتيت شملهم أما هو فقد لجأ إلى ابن أخيه الشيخ شاكر بالغربية مسبقا رسالة ليضمن استقباله، إلا أنّ هذا الأخير رفض مضمون الرسالة وقال لحاملها: **« إن الشيّخ حسن هارب من السجن وأنا أصون نعمة السلطان صاحب الدولة وحقه ولا أستطيع إيواءه عندي »**، فلجأ إلى وإلى مصر خير بك حيث أمّنه على حياته* وأرسله إلى موطنه الأصلي، ثم اتصل ** بالسلطان ملتمسا العفو عنه.[61] أنظر الملحق. ومما سبق يتبيّن لنا دور الخيانة في دعم السلطة العثمانية والقضاء على المناوئين.

---

[59]) ابن أجا،المرجع السابق، ص400.

[60]) أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1995، ص 241.

*) رغم ذلك فقد تم شنقه بتاريخ 20 ربيع الأول 925هـ/13 مارس 1519م من طرف إينال السيفي و جانم السيفي جزاء دله على مكان إخفاء طومان باي (أنظر: أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة، ط1 1995، ص 241.)

**) الوثيقة محفوظة في أرشيف طوب قابي سراي تحت رقم: E- 585- 2 (أنظر، أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة، ط1، 1995، ص 241).

[61]) المرجع نفسه، ص، 241.

3- حركة اينال السيفي وجانم السيفي وخدا وبردي*.

يبدو أن الحركات المناوئة بمصر للعثمانيين لم تتوقف بعد، فبعد إخماد حركة الشيخ حسن بن مرعي ظهرت حركة مناوئة أخرى، ويبدو أنها ثورة انتقامية قادها المملوكان جانم السيفي واينال السيفي، إذ تعتبر حركة هذين المملوكين أولى الحركات المصرية المناوئة في عهد السلطان سليمان المشرع. فبالرغم من سيطرة السلطان سليم الأول على الشام و مصر والقضاء على كل ما ظهر بهما من حركات مناوئه، إلا أن ذلك لم يعدم بقاء بعض المناوئين وظهورهم من جديد ولو بعد حين وكما مر معنا سابقا أن من بين بعض المماليك الفارين تم العفو عنهم من قبل الباب العالي، والبعض من

هؤلاء تبوؤوا مناصب عليا في نيابة مصر ومنهم المملوكان المذكوران أعلاه: إينال السيفي و طرباي كاشف** إقليم الغربية*** وجانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم بمصر الوسطى.

فعلى إثر وفاة والي مصر خير بك في يوم 14 ذي القعدة 928هـ/ 05 أكتوبر 1522م، تم تعيين الوزير الثاني"جوبان مصطفى باشا" ومعه خمسمائة انكشاري وعشر قطع بحرية، من طرف السلطان سليمان المشرع، فقام الوالي الجديد بعملية تنظيم وترتيب للأمور بمصر،ومن بينها تسريح الحرس المملوكي، والقوات المغربية (المرتزقة)، وعلى إثر ذلك ثار المملوكان المشار إليهما سابقا، وأشهرا رفضهما لأي حكم من غير المماليك، ناهيك عن إصلاحاته، وأعلنا عصيانهما الصريح عام 929هـ/ 1523م، وقاما بقطع الطريق الرابط بين القاهرة وبلاد الشام[62]. وهنا نلمس رفض المماليك للعنصر العثماني كسلطة مباشرة عليهم، أو لعلها إشارة إلى الاستقلال والانفصال، أو قطع الدعم (الإمدادات) التي قد تأتي من هناك، وبالتالي عزل مصر عن الباب العالي.

-موقف السلطة العثمانية

---

*) خدا وبردي:كاشف الأتفحية لم يذكره "نيكولاي ايفا نوف" وذكره "فاضل بيات" في كتابه الدولة العثمانية في المجال العربي ص405.

**) كاشف: مصطلح مملوكي يعني حاكم إقليم ورتبته أقل من السنجق والتي بالتركية تعنى لواء أو علم أو راية وهنا بمعنى قسم من ولاية.

***) إقليم الغربية: هو المنطقة الواقعة بين فرعي دلتا النيل (أنظر: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1987 ص، 314، الخريطة 147).

62) نيكولاي إيفا نوف، مرجع سابق، ص ص79، 80.

تتمثل السلطة العثمانية بمصر في الوالي**** المعيّن من قبل السلطان العثماني، وهذا الأخير لما علم بما وقع من المملوكين اينال السيفي وجانم السيفي بادر إلى إنهاء وإبطال ما قاما به وديا ولأجل ذلك اختار من رآه كفؤا للوساطة وأرسله إليهما عارضا عليهما إنهاء حركتهما المناوئة سلميا، لكنهما بعدما استقبلا الوسيط ويدعى "الزّيني بركات" فبدل قيامهما بتصرف دبلوماسي ورد الجواب مع المرسول، قاما بقطع رأسه قاطعين بذلك سبيل التفاوض، وقطع حبل الليونة، وأصبح من الحتمية بمكان أن يتّخذ الوالي أسلوب القوة مع المتمردين؛ فحشد حوالي خمسة آلاف من الانكشاريين* والتوفنكجية**، وتصدى بهم لحركة التمرد تلك، واستطاع إلحاق الهزيمة بهما، ومن نتائج تلك المواجهة تم إخماد حركتهما المناوئة ولو مؤقتا، وقتل جانم السيفي قرب الريدانية في حين استطاع إينال السيفي طراباي الفرار والاختفاء[63]؛ وهكذا تم التصدي لهذه الحركة وإخمادها ولكن ليس نهائيا؛ وبعد هذه الحادثة عهد بإيالة مصر إلى "كوزلجة قاسم باشا"، أما مصطفى باشا فقد استدعي إلى استانبول[64]. في حين كان موقف القوى المحلية والمتمثلة في بعض المماليك وشيوخ البدو مدعما لإجراءات الوالي ضد حركة المتمردين والتصدي لها[65].

-إجراء السلطان العثماني:

نظرا لمكانة مصر المميزة لدى الباب العالي، وعلى إثر الحركات المناوئة المختلفة، التي نشبت بها، كان على السلطان العثماني سليمان المشرع أن يولي اهتماما أكبر، ومتابعة أزيد لأوضاع وأحوال مصر، ومن ثمة

****) الوالي بمصر: نظرا لمكانة مصر لدى الباب العالي وما لها من حظوة، فإن حاكمها يتمتع برتبة وزير على خلاف ولاة الولايات الأخرى.

*) الانكشاريون:جمع انكشاري وهي تعريب للكلمة التركية يني جيري (ينكجري) أي الجيش الجديد الذي تأسس في عهد السلطان أورخان الأول وأصبح لهذا الجيش الفضل في قوة الدولة و مجدها كما كان سببا في تقهقرها. (أنظر:محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق إحسان حقي ص، 122.وحسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية،ص161).

**) التوفنكجية: هم المشاة حملة البنادق، من الجيش العثماني.

63) مصطفى الصفوي القلعاوي، صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان، دراسة وتحقيق: محمد عمر بن عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية (د، ط) 2011 ص69.

64) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 406.

65) يوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر، تر: محمد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 2011، ص 39 .

البحث عن تنظيمها؛ولأجل ذلك أرسل صدره الأعظم*** إبراهيم باشا إلى القاهرة، لتنظيم شؤونها، والوقوف على أوضاعها، وبالتالي تنظيمها. إذ بعد حلول إبراهيم باشا بمصر وبعد ثلاثة أشهر من مكوثه، أصدر "قانون نامة مصر" الذي نظم به مصر عسكريا وسياسيا وإداريا واقتصاديا.[66] وقام بإعداد تقرير مفصل عن أحوالها وأرسله إلى استانبول. وبعد*إعداد "قانون نامه مصر(قانون سليمان) " وهو مجموعة من المواد القانونية، تمّ استدعاء الوزير مصطفى باشا إلى استانبول وتعويضه بـــ: «كوزلجة قاسم باشا» واليا على مصر[67].

4- حركة الوالي أحمد باشا (الخائن**)

بعدما قضى نائب مصر العثماني مصطفى باشا على حركتي المتمردين المملوكين جانم السيفي واينال السيفي طراباي، قام السلطان سليمان المشرع بتعيين الوزير "أحمد باشا شاه" يوم 20 شوال 929هـــ//02 سبتمبر 1523م وبرغبة منه والذي كان طامعا في منصب الصدارة العظمى، ولما أسندت إلى إبراهيم باشا، اغتاظ كثيرا وقبل منصب الولاية الذي طلبه في آب/ أغسطس 1523م وبمجرد وصوله إلى مصر صادف بعض الشغب من قبل بعض الأعيان فتصدى لهم وقضى على حركتهم بكل حزم وقسوة، حيث عاقب ضباط الحامية الإنكشارية بإعدام كبارهم وكذلك قائد الانكشارية[68].غير أن هذا التصدي الإيجابي والدّال على الوفاء لن

***) الصدر الأعظم هو نائب السلطان ورئيس الحكومة، ويسمى صدر عالي وصاحب دولت وقد أطلق هذا اللقب منذ عهد مراد الأول واستمر إلى زوال الدولة العثمانية والمقصود هنا هو إبراهيم باشا: صهر السلطان. (أنظر: حسين مجيب، مرجع سابق ص، 83)

66) القلعاوي، مرجع سابق، ص 70.

*) قانون نامه مصر: هو مجموعة من المواد القانونية وعددها 247 مادة، عالجت الشؤون التالية: الجيش، الإدارة، أحوال مشايخ العربان (البدو)، أحوال العمال، أحوال المكلفين بجمع الأموال للدولة، أحوال الشؤون السلطانية في مصر، أحوال الموانئ أحوال خراج الأرض والمساحات، أحوال أمير الأمراء وأحوال الأوقاف، قانون العملة. (أنظر: ماجدة مخلوف، القانون الإداري لولاية مصر في العهد العثماني، مرجع سابق.

67) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص406.

**) وهو ابن أويس بك أحد رجالات الدولة منذ السلطان سليم من أصل قوقازي عرف بالخائن بعد تمرده على الباب العالي والقيام بالثورة في مصر من أجل الانفصال والاستقلال بمصر، تدرب في سرايا السلطان سليم وشارك في قتال المماليك، ثم عين حاكما على روميليا 1519م، ومنح رتبة وزير في عهد السلطان سليمان المشرع. (انظر الصّفحة ،112 من هذا البحث).

68)علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار الإيمان الإسكندرية، (د،ط)، 2003، ص، 407. و(القلعاوي ، مرجع سابق،ص ص69،70).

يدوم إذ سرعان ما بدأ في ترتيب الأمور لحسابه الشخصي ومنها: سعيه إلى كسب الشخصيات المناوئة للدولة، وأغدق عليهم العطايا، وشكل جيشا قوامه 100 ألف مقاتل، واقتحم القلعة بهم محتلا بذلك المواقع الحصينة[69]. وهكذا تمكن الوالي الجديد من السيطرة على الحركة المناوئة (المدافعة) وإبداء تحكمه في زمام الأمور، ويبدو أن هذه المعطيات وهذا الوضع شجعه على التمرد والعصيان حتّى سولت له نفسه ذلك وكان في كانون الثاني/ يناير 1524م. فأمر بعدم ذكر اسم السلطان في خطبتي الجمعة و تعويضه بذكر اسمه، كما أمر بنقش اسمه على السكة، وحاصر القلعة وأسقطها في يد أتباعه عام 930هـ/ 1524م. ولما أراد شرعنة الانفصال والسلطنة على مصر، طلب من القضاة الأربعة* إضفاء الشرعية على إعلانه بالبيعة، وراح دوره وصداه يتعاظمان، حتى قيل عنه أنّ له مستشار شيعي، وربّما هذا ما أثار حفيظة السلطان سليمان المشرّع ضدّه. وهذا ما جعلنا نفسّر طلبه للولاية بأنّه كان من باب الانتقام، عن طريق السلطة، و لم يكن بدافع حب المنصب فقط.

-موقف السلطان من حركة الوالي أحمد باشا:

أمام هذا الوضع وفي إيالة كمصر، وفي عهد السلطان سليمان المشرع، فإنّنا نتساءل عن مصير هذه الحركة؟

حيث قام السلطان بإرسال جيش نحو مصر، ليدعم الجيوش الوافدة من البيرة ودمشق وعينتاب والمجتمعة في المرجة بالشام، في انتظار وصول الجيش السلطاني[70].

وبعدما التقت الجيوش العثمانية سارت نحو مصر لتأديب المتمرد أحمد باشا والقضاء على تمرّده، وأمام هذا الموقف الحازم والصارم للسلطة العثمانية اضطر زعيم التمرد الاحتماء واللجوء إلى الشيخ عبد الدائم بن بقر زعيم عربان الشرقية**. لكن ذلك الاحتماء لم يجديه نفعًا، و لم يغنيه شيئاً عن مصيره المحتوم. فتم الاستيلاء

---

69) بيات،المرجع السابق، ص407.

*) القضاة بمصر أربعة (بقدر عدد المذاهب)، فكل مذهب له قاضيه. فهناك:القاضي الحنبلي، والقاضي الحنفي، والقاضي الشافعي، والقاضي المالكي. وهنا نقف على سيّاسة الدّولة العثمانية اتجاه رعاياها وعلى الحرية الدّينيّة و الثّقافية المنتشرة بينهم.

70) الصلابي، المرجع السابق. ص471.

**) زعيم عربان الشرقية بمصر اعترف له خيربك بالإشراف على إدارة منطقة الشرقية بعد أن أعلن التزامه باستقرار الأمن في منطقته، لكن سرعان ما عاد عربان الشرقية للعصيان. (أنظر: عبد الرحمن عبد الرحيم: المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، تونس، 1990، ص، 253. و(انظر: ماجدة مخلوف، القانون الإداري ...، مرجع سبق ذكره، ص85، ها (1).

على إدارته، ثم ملاحقته إلى غاية القبض عليه، و إعدامه يوم 26 ربيع الثاني 930هـ/06 مارس1524م داخل حمام بالقاهرة، وأصبح من ذلك الحين يعرف بالخائن.

كما تم تعيين جانم الحمزاوي قائدا للإنكشارية[71]، وبذلك يكون الباب العالي قد قضى على ثاني حركة مناوئة خطيرة في رأينا. لكن حسب أوليا جلبي فإن القوات العثمانية التي أرسلت من الأستانة برًّا وبحرًا لقمع حركة أحمد باشا الخائن، وبقيادة إبراهيم باشا المقتول، لم تتمكّن من الوصول إلى مصر، ولكن رغم ذلك تم القبض عليه من قبل أعيان ديوان مصر وأشرافها وعلمائها. وسيق إلى باب زويلة وشنق به[72]. وهكذا تمّ القضاء على التّمرّد داخليّا ومحلّيّا.

من خلال ما سبق وما تعرضنا له من أحداث حول الوالي أحمد باشا، والظروف التي سبقت تعينه وأوضاعه التي آل إليها بعدما وصل مصر وقضى على ما لها من شغب نستنتج أن سبب التمرد الذي أعلنه والتدابير التي اتخذها كلها تنم على الرغبة في السلطة خاصة إذا ما أخذنا في الحسبان رغبته في تولي الصدارة العظمى بالباب العالي، وعليه فإن دافع السلطة كان هو السّبب في تمرده وعصيانه وبالتالي الرغبة في الاستقلال.كما يمكن إدراج عامل الغيرة والتنافس كعامل نفسي خاصة إذا ما أخذنا في الحسبان أنّه أقرب إلى السلطان من إبراهيم باشا (في تلك الفترة)، وكذلك أن كليهما من أصل غير تركي، فأراد أن يعوض ما خسره أمام إبراهيم باشا* في الترقية إلى منصب الصدارة العظمى بالانفصال والتسلطن على عرش مصر.

---

[71]) القلعاوي،مرجع سابق،ص572.

[72]) أوليا چلبي، مرجع سابق، ص242.

*) إبراهيم باشا: مسيحي الأصل من ألبانيا، كان صدرا أعظما في عهد السلطان سليمان المشرع. كلفه السلطان بمهمات كبيرة منها: أرسله إلى مصر على إثر حركة أحمد باشا المناوئة للباب العالي، وأرسله إلى بغداد ،1534م، واصطحبه في كثير من الغزوات وتزوّجه أخته ، ولكن دسائس زوجة السلطان روكسلانه (الروسية) ألّبته عليه، فقتله خنقا، ولذلك أصبح يعرف بإبراهيم باشا المقتول.

هذه أهم الحركات المناوئة التي قامت بمصر والتي استطعنا الإطلاع عليها، والتي ثار زعماؤها ضد السلطة العثمانية وهذا ما بين بداية التواجد العثماني 1517م إلى غاية عام 1525م.**أما ما بعد 1525 م إلى أواخر عهد السلطان سليمان المشرع (1566م)، فقد عاشت مصر خلال هذه الفترة حالة من الهدوء النسبي إذا ما قورنت بالفترة السابقة من بداية التواجد العثماني إلى غاية عام 1525م .

ولقد تميزت هذه الفترة بطول عهدة الولاة المعينين على مصر، وحسب مصطفى الصفوي القلعاوي فإن ذلك يعود إلى أن معظم الولاة المعينين قد كانوا صدورا عظاما، وهو ما أتاح لهم استغلال خبرتهم في تسيير شؤون البلاد والاهتمام بشؤونها. ولكن خلال الفترة المتأخرة من عهد السلطان سليمان (1564م-1566م) أصاب الاقتصاد المصري زلزالا كبيرا، تتمثل في انخفاض قيمة العملة بسبب أخلاطها بالنحاس. وبدأت تظهر الاضطرابات من جديد، وتذمَّر الأهالي. أمّا بعد فترة الدّراسة(1512م/1566م) فقد وقعت أحداث أخرى، منها ما وقع في بداية عهد ابنه سليم الثاني،كمقتل وإلى مصر محمود باشا؛ وهي الحادثة التي عكرت صفوة الحياة المصرية. وكانت بداية جديدة لمرحلة عنف وحركات مناوئة أخرى، ولينتهي القرن السادس عشر بثورات عسكرية قوية)[73].

-أسباب التمرد في الشام ومصر:

من خلال ما مرّ بنا وما استعرضناه من حركات مناوئة فإن الأسباب والعوامل التي أدت إلى قيام تلك الحركات المناوئة للدولة العثمانية ببلاد الشام ومصر، والمختلفة حسب مصادرها ومسبباتها ، فإنه يمكن استخلاص جملة من الأسباب ويمكن نذكر أهمها فيما يلي:

-كره بعض المماليك للأتراك، إذ لم يكن جميع المماليك محبين لهم ولا مؤيدين لحكم العثمانيين.

-عدم إخلاص الكثير من المماليك المعينين من قبل السلطان العثماني مثل: طومان باي وجان بردي الغزالي.

**) توجد هناك العديد من الحركات المناوئة هنا وهناك وأغلبها محلية ويتزعّمها شيوخ العربان (البدو) لكن لم يكن لها طابع الانفصال أو معاداة العنصر التركي ومثالها: مشايخ العرب من بني عمر الذين تصادموا كثيرا مع الإدارة العثمانية (أنظر: مصطفى الصفوي القلعاوي، صفوة الزمان...، ص 76).

[73]) القلعاوي، مرجع سابق، ص 78.

-عدم تتريك أو عثمنة بلاد الشام ومصر سياسيا، وإداريا، وثقافيّا خاصة في عهد السلطان سليم الأول إذ بعض المناطق، لاسيما القبلية منها بقيت كما كانت في الماضي يحكمها مشايخ العرب أو العائلات ذات النفوذ الاجتماعي أمثال: الشيخ علي عمر زعيم عربان الهوارة في صعيد مصر، الذي خلع عليه السلطان سليم الأول إمارة الصعيد وجعل مركزها "جرجا"، والذي سرعان ما ثار ضد الدولة العثمانية. وأحمد بن بقر زعيم عربان الشرقية الذي اعترف له خير بك بالإشراف على منطقة الشرقية بعد أن أعلن التزامه باستقرار الأمن في منطقته، ولكن سرعان ما عاد عربان الشرقية للعصيان[74]، وهذا ما بدا لنا عيبا في السياسة العثمانية. الإحساس بالتميز الثقافي حيث سمح خير بك للمماليك بالتزي بالزي المملوكي والتميز عن العثمانيين، وهذا ما ساعد على الرنو إلى الاستقلال.

أوامر السلطان بإرسال الإنكشاريين و السباهية من مصر إلى الأناضول، وإبعادهم عن أهاليهم وبيئتهم[75]، وهذا ما أثار- في نظرنا- التذمر في الأوساط الشعبية وفي نفوس الجنود أنفسهم.

المبحث الثّاني: الحركات المناوئة بالحجاز واليمن.

أولا: بالحجاز.

بالرغم من كون بلاد الحجاز أقل الأقطار (الإيالات) العربية تواجدا للجيش العثماني، إلا أنها كانت أكثرهم مسالمة وتبعية للباب العالي، خاصة **مكة** المكرمة والمدينة المنورة، وباستثناء مدينة جدة الساحلية وهي الوحيدة من بين مدن الولايات العثمانية التي تتمتع بالاستقلال شبه التام عن الدولة العثمانية، وهذا ما كان الأشراف يحاولون إظهاره والظهور به وبالرغم من أشراف **مكة*** الذين يتمتعون بمكانة خاصة لدى السلطان العثماني خصوصا، ولدى المسلمين كافة على وجه العموم[76]. مع أن هناك صراع بين أهل السنة وأهل الشيعة، فضلا عن رغبة العثمانيين كسب ولاء الأشراف في معظم مدن الدولة العثمانية.

---

[74]) ماجدة مخلوف، مرجع سابق.

[75])القلعاوي،مرجع سابق، ص ص66، 68.

*) أشراف مكّة هم سلالة الرسول (ص) من فاطمة الزهراء (أي من الحسن والحسين) سبطا علي كرّم الله وجهه، ولهم انتشار واسع وكبير مشرقا و مغربا،وكان لهم في ظل الدولة العثمانية وضعا مميزا وخاصا بهم .

[76]) أوليا چلبي،المرجع نفسه، ص43.

لقد كان الباب العالي محافظا على إرسال الصرّة سنويا وبانتظام إلى الحرمين، ومن شدة احترامهم والحرص عليها، كان السلطان نفسه هو من يشرف على إرسالها وعلى قوافل الحج،** الحاملة لها بالإضافة إلى الاعتناء بالحجيج وحاجياتهم من أمن وراحة وتعبد[77].

وبالرغم من كون التواجد العثماني بالحجاز كان تواجدا رمزيا لا غير، وذلك بالنظر إلى العدد المحدود من أفراد الجيش العثماني، إلا أن أشراف مكة قد توجسوا منه خيفة وبذلوا ما يمكن بذله من أجل السيطرة على هذه القوات القبلية المرابطة في **مكة** المكرمة والمدينة المنورة؛ وبالتالي تحقيق ما أشرنا إليه سابقا ألا وهو حبهم للظهور بمظهر الاستقلال عن الدولة العثمانية، أو ربما بسبب تخوفهم من زيادة نفوذها بالمنطقة. إنه نفس التخوف ونفس الهاجس لدى القادة العسكريين المتواجدين بالحجاز، إذ هم كذلك لم يتقبّلوا موقف الأشراف، وخاصة أن هؤلاء الأخيرين (الأمراء) كانوا يحتفظون بقوات خاصة بهم من البدو والأعراب، وهكذا كان كل طرف منهما يعمل جاهدًا لكبح نفوذ وسطوة الآخر،إلى تذمّر أشراف **مكة** وعدم رضاهم من بعض القادة العسكريين العثمانيين هو إلى درجة محاولة إزالة الآخر أو عزله.

إنّ من بين الشواهد على إرسال أمير **مكة** المكرمة "أبو نمّي" سفيره قطب الدين المكّي إلى السلطان سليمان المشرع لتقديم شكواه من قائد القوات العثمانية بيري ريس[78]. وهكذا فحتّى وإن لم يكن بالحجاز حركات منظمة ومهيكلة مناوئة للتواجد العثماني، فإنّ هناك موقفًا مناوئاً له. وهذا ما لمسناه من الجانبين، لكن هذا الموقف لا يعكس شعور السكان (العامة) وإنّما يمثل ويعبّر عن موقف شخصي أو فئوي على أكثر تقدير فهذا الموقف السياسي المناوئ هو أقصى ما وقفنا عليه من مناوئة السلطة العثمانية، لكنه لا يكاد يذكر أمام الحركات المناوئة الأخرى بكل من مصر والشام.

ثانيا: باليمن.

**) قوافل الحج، قافلتان (الشامية والمصرية)، وفي مراجع أخرى أربعة قوافل: (العراقية، واليمنية، والشّامية، والمصرية).
للمزيد أنظر:محمد الشنّاوي، مرجع سابق.

77)محمد عفيفي، مرجع سابق، ص 84.

78) أوليا جلبي، مرجع سابق، ص43.

لقد سبق وأن أشرنا سابقًا إلى طبيعة المجتمع اليمني، وقلنا أنه صعب المراس وكما أشار الكاتب سالم أحمد سالم إلى ذلك بأن الدولة العثمانية قامت بإجراءات خاصة فيما يتعلق بالمجتمع اليمني، ونعني بالخصوص بعض التنازلات لمختلف مكونات المجتمع. فهل هذه الخطوة كافية لتهدئة اليمنيين وضمان ولاءهم وتبعيتهم ؟

إنّه وبالرغم من ذلك لم يكن بالإمكان السيطرة الكاملة والنهائية على اليمنيين، فمقاومة العثمانيين وتكرار العصيان أصبحا من الأحداث الرتيبة والمعهودة مما أعاق العثمانيين عن التقدم نحو المحيط الهندي.

فكان العصيان بالجبال الخاضعة لسيادة الزعماء الإقطاعيين ومشايخ القبائل. أمثال الإمام مُطهر الزيدي "صاحب النفوذ الكبير والذي كان مستقلاً في الأراضي الجبلية الجنوبية.

و لم يدخل في طاعة العثمانيين إلاّ خلال سنة (958هـ/1552م) معترفًا بسيادتهم ومنذئذ باتت هذه المنطقة عمليًّا تابعة للحكم العثماني وبقيادة "أوزدمير باشا" ممثلا عن السلطان العثماني خلال فترة (1552م-1560 م)[79].

1- حركة الجيش العثماني باليمن.

ليس جديدا على الجيش العثماني أن يثور على السلطة بدءا بابتزازه للأمير "بايزيد الثاني" عند تنصيبه ثم المساهمة في التّمرّد عليه وعزله لتولية ابنه "سليم الأول"، ثمّ عصيانه بُعيْد معركة جالديران(1514م). وقد رصد لنا عبد العزيز الشنّاوي عشرين(20) حركة مناهضة للباب العالي منها: حركتان مناهضتان بشكل صريح للسلطانين سليم الأول و سليمان المشرّع على التّوالي.

أمّا في اليمن فبسبب الأوضاع المتدهورة اقتصاديا ونتيجة الأزمة المالية، قام الجيش بثورة مناهضة للسلطة العثمانية، بل وبلغ بهم الأمر أن انحازوا إلى الأمام مطهّر الزيدي وتحالفوا معًا ضدّ الولاّة العثمانيين باليمن. وإزاء هذه الحركة المناوئة فقد قامت الدولة العثمانية وعن طريق واليها سنان باشا بالتصدي لها وإخماد نارها، إلاّ أن ذلك ما كان ليتم لولا تحسين حال الجيش من رواتب ومعاشات، وذلك من أجل إسكاتهم واستمالتهم إليها.

79) إنالجيك، التاريخ الاقتصادي ، ج1، مرجع سابق ص479.

وقد كلفت عملية التصدي لهذه الثورات الكثير من وقت وجهد[80]. وهكذا نرى أن السلطة العثمانية قد واجهت هذه الحركة ليس بالقوة وإنما بتنفيذ المطالب والتنازل للمناوئين، وهذا خلافا لما واجهت به حركة التمرّد التي قام بها أحمد باشا (الخائن) بمصر، وهنا نلمس تنوع مواقف الباب العالي من الحركات المناوئة.

2- حركة عامر بن عبد الوهاب.

بعد عودة حسين الكردي من عدن إلى جدّة، ترك وراءه "برسباي"* نائبًا عنه في مدينة زبيد. لكن برسباي لما لحق به بعض الفارين من الجراكسة إلى اليمن، والتفوا حوله استأنس بهم، وعندها سولت له نفسه القيام بعمل عسكري ليصطفي لنفسه اليمن، بالرغم من وجود عامر بن عبد الوهاب وأولاده وأخوه عبد الملك وهم طامحين ومصرين على استرجاع حكمهم من يد العثمانيين.

ففي يوم الجمعة 06 صفر 923هـ/1517م التقى الفريقان، فريق عامر بن عبد الوهاب وذويه من أولاده وأخيه وأتباعه، وفريق "برسباي" بمعية أتباعه لاسيما الذين جاءوا من مصر، وبعد الصّدام آلت المعركة لصالح "برسباي" بعدما استشعر عامر بن عبد الوهاب بالخيانة من بين أوساط أتباعه مما دفعه إلى الانسحاب.

ليتوجه إلى مدينة المقرانة، تاركا وراءه كل شيء؛ حتى يتمكن من الإفلات من قبضة برسباي، لكن لما كانت القوتين غير متكافئتين وأنّ الهزيمة ظهرت من داخل اليمنيّين، استطاع السلطان المملوكي (برسباي) مواصلة مطاردته لعامر حتى تمكن من القضاء عليه؛ يوم الجمعة 23 ربيع الثاني 923هـ/1517م[81]. وبهذا المآل تخمد أوّل حركة محليّة مناهضة للتواجد العثماني. غير أنّنا نتساءل عن عمر"برسباي"كم كان خلال هذي الأحداث؟

3-حركة أهل عدن.

---

[80]) أبو علية،مرجع سابق، ص260.

*) برسباي هو السلطان الأشرف المملوكي الجركسي من المماليك البرجية، تولى السلطنة على مصر سنة 1422م. (أنظر السيد الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 268.

[81]) قطب الدين بن أحمد النهروالي المكّي، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة المسمّى: "البرق اليماني في الفتح العثماني"، منشورات دار اليمام للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ط1، 1387هـ/1967م، ص ص28،29.

خلال الحملة العثمانية الأولى على عدن والتي قادها سليمان باشا الخادم، حيث بعد وصوله إلى المدينة، قام باستدعاء أميرها عامر بن داود واعدًا إياه بالأمان، لكن لما وصل إليه ألقى عليه القبض، ثم صلبه على سارية من سواري السفن وقتله ظلماً وعدواناً[82]. وعلى إثر هذه الواقعة الأليمة والمؤثرة في نفوس السكان، قام أهالي الأمير الغاضبين ثائرين ضد القائد العثماني وجيشه، وآزرهم في ثورتهم أهالي المدينة. وهكذا توسعت الثورة المناوئة للسلطة العثمانية الممثلة في قائد الحملة العثمانية سليمان باشا الخادم، وهكذا توفر سببان موضوعيان كانا كافيان لقيام هذه الحركة المناوئة وهما:

1. طبيعة اليمنيين الذين يأنفون من كل أجنبي، فإذا كانت قلة قوتهم العسكرية قد أسكتتهم أمام العثمانيين فإن جريمة سليمان باشا الخادم أثارت حفيظتهم.
2. الجريمة التي أقدم عليها سليمان باشا الخادم والتي راح ضحيتها آل طاهر بإعدام أميرهم عامر بن داود ظلما وعدوانا حسب الميرالآي إسماعيل سر هنك.

لكن لما كانت قوة اليمنيين لا تضاهي القوة العثمانية ولا تستطيع مجابهتها، استنجد اليمنيون بالبرتغاليين مقابل تسليمهم مدينة "عدن"، وثاروا ضد العثمانيين بتاريخ 03 آب/أغسطس 1538م. وأمام هذا الوضع من تصرف اليمنيين مع البرتغاليين وفشل الحملة العثمانية الأولى، أمر السلطان سليمان المشرع بإرسال حملة ثانية

عام975هـ/1551م انطلاقا من قاعدة السويس بالبحر الأحمر بقيادة بيري ريس* الذي استطاع افتكاك مدينة عدن من البرتغاليين ثم الاستيلاء على مدينة "مسقط"وهو في طريقه إلى الخليج.[83] وبعد استيلاء العثمانيين على عدن ازداد نفوذهم على أجزاء أخرى جديدة من اليمن، ورغم ذلك لم تخبأ نار الحركات المناوئة.

وظلت تتجدد تلك الحركات من حين لآخر؛ وأشهرها، تلك التي قادها الإمام الزيدي "شرف الدين" وهو ذو مكانة مرموقة وكلمة مسموعة، خاصة بين أتباع المذهب الزيدي*.

---

[82]) الميرالاي إسماعيل سر هنك، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص، 98، و(أنظر: محمود محمد خليل، عرب البحرين تاريخ الدويلات المحلية لبني عقيل، ص168، ها 3).

*)هو محي الدين بيري باشا قائد بحري عثماني،كبير(1500م/1552م) ، جابالبحار والمحيطات أعدم وعمره 80 سنة بأمر من السلطان سليمان المشرّع، بحجة تخاذله(للمزيد، أنظر:أحمد سالم، إستراتيجية الفتح العثماني: ص 107.

[83]) الميرالاي، المرجع السابق، ص100.و(أنظر محمد محمود خليل، عرب البحرين، تاريخ الدويلات المحلية لبني عقيل في الخليج وشرق الجزيرة العربية مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1 2007 ص 168.

المبحث الثّالث: الحركات المناوئة بالعراق والخليج.

أوّلا: بالعراق:

قبل كل شيئ لا بد من التنويه بأن تاريخ العراق بأكمله وخاصة خلال العهد العثماني يرتبط ارتباطا كبيرًا ببغداد بالرغم من تقسيمه إلى أربعة أقاليم، ابتداء من عام1534مفكانت مدينة بغداد لها بصمتها وتأثيرها الواضحين على كافة ربوع العراق وفي كثير من الأحداث ولهذا فلا غرو إذا قيل بأن العراق يقعد أو يقف ببغداد ويتحرك ببغداد ويسكن بها حسب تعبير المؤرخ "فاضل بيات مهدي"*. كما يشهد على أهمية مدينة بغداد ما دونه الأب "دومنيك لانزا" خلال رحلته بقوله: **« إن الباب العالي هو الذي يرسل ويعين باشا الموصل،ولكنه كان حذرًا من إغاظة باشا بغداد »**[84]. فقد عرف العراق منذ مغادرة السلطان العثماني سليمان المشرع له استقرارًا واستتبابًا للأمن، به و لم يشهد أي حركة تمرد، أو عصيان، أو ثورة. وتنعّمت بغداد بالهدوء والأمن، وهذا الاستقرار والأمن مردهما إلى ما يلي:

- خلو بغداد من الصفويين على إثر قدوم العثمانيين إليها.
- وجود قوة عثمانية من الإنكشاريّين تولّت مهمّة المحافظة على الأمن.

و بفضل ما تقدّم أصبحت العراق(بغداد) بذلك إيّالة آمنة، أوتكاد تكون كذلك و لم تشهد بعد ذلك أيّة حركة مناهضة للدولة العلية. أما الأطراف البعيدة عنها كالبصرة، والمنطقة الشمالية الشرقية من العراق "شهرزور" (وفي بعض الوثائق ورد اسمها شهرزول) فإن طابعها العشائري لم ينأى بها عن الصراعات والاضطرابات، لكنها لم تستدع الصّدام مع الجيش الإنكشاري[85]؛ هذا من جهة. ومن جهة أخرى،فقد تميز العراق بوضع متقلب، فهو تارة في يد الصفويين، وتارة أخرى في يد العثمانيين، وأحيانا أخرى تستولي عليه قوى محلية، وبالتالي فإن التواجد العثماني لم يكن تواجدًا متواصلاً.

عند تولّى السلطان سليم الأول السلطنة عام 1512م، كانت العراق آنذاك في يد السلطان "مراد بك" والذي حلّ محلّه على العراق أحد رجاله وهو: الأمير مبارك (بارك). فقام الشاه إسماعيل الصّفوي

---

*) المذهب الزّيدي نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ض) خصّص أتباعه الإمامة في أبناء فاطمة الزّهراء، وفي نظر الزّيديّين،كلّ عالم زيدي هو:سخي، وزاهد، وشجاع.(للمزيد انظر: "الشهر ستاني"، الملل والنّحل، تحقيق: محمّد عبد القادر الفاضلي، المكتبة، بيروت(د.ط)، ص124.)

[84]) سهيل قاشا، الموصل في مذكرات الأجانب خلال الحكم العثماني، دار الورق، بيروت، ط1، 2009، ص9.

[85]) بيات،مرجع سابق ص278.

بتوجيه حملة عسكرية على العراق بقيّادة المدعو "لاله حسن"، فحاصر بغداد وعجز، أميرها عن الدفاع عنها، وتمّ احتلالها عنوة عام 1514م، وفتك بأهلها المسلمين من السنة والنصارى.كما خضعت له عدة مدن عراقية، ثم تركها واستناب عنه نائبًا مخلّفا قسماً من جنوده بها. لكن السلطان "مراد بك"لم ينس هزيمته واستغل انشغال الشاه إسماعيل الصّفوي بحروبه في خراسان، وعاد للمواجهة من جديد، مدعما بالأموال والجيوش من جديد، وتمكن من استرداد بغداد، ولكن بعد سنة وبضعة أشهر استعادها الشّاه مرّة أخرى[86]. وهكذا تراوح العراق بين مدّ وجزر القوى المحلية و الصفوية والعثمانية إلى غاية انكسار شوكة الصفويين ودخول العثمانيين إلى بغداد، عام 940هـ/1534م، دخولاً رسميًّا، من قبل السلطان سليمان المشرع. ولقد أوردنا هذا لنبيّن ما مدى تعرض العراق للتدافع العسكري والسياسي بين قوى ثلاثة، وخاصة التأثير الخارجي المتمثل في الجانب الصفوي وهو ما سنلمسه من خلال تعرّضنا لعلاقة الصفويين بالحركة المناوئة بجنوب العراق.

منذ دخول العثمانيين بغداد عام 940هـ/1534م، واتخاذها مركزًا لإيالة بغداد العثمانية الجديدة، لم تشهد المنطقة إلاّ القليل من الحركات المناوئة للباب العالي؛ ولَعَلَّ إذا ما تساءلنا عن سرّ هذا الهدوء والاستقرار النسبي، فإنّنا نلتمس سببين وجيهين قدمهما المؤرخ فاضل بيات مهدي وهما:

- الأول ويتمثل في كون الوالي الصفوي لما غادر بغداد لم يترك وراءه من الصفويين الذين كانوا يشرفون على الأمن والنظام والدفاع، وهذا لكونه لم يكن يعتمد على الأهالي، لذا فإن العثمانيين لم يجدوا ببغداد من تجب مقاومته .

–الثّاني: ويتمثل في ترك السلطان العثماني سليمان المشرع بعد مغادرته بغداد، قوة من الانكشاريين بها، لتقوم بمهمة حفظ الأمن واستتابه والدفاع عن الإيالة الجديد. فلا عجب إذا أن تعيش الإيَّالة الجديدة الأمن والاستقرار خاصة إذا علمنا أن السلطة العثمانية كانت دائما على استعداد تام للتّحاور مع القوى المحلية* ،وتحاول استغلال كل فرصة لاستمالتهم إليها واحتوائهم.

فبهذه الإجراءات وبهذه السياسة استقر الحكم، والأوضاع في بغداد، باستثناء حركة "ابن عليان". التي تصدّى لها إياس باشا بكلربكي بغداد وحركة الشّيخين:"سيدي عامر"و"يحي الشيخ"بمعية بعض العشائر.لكن

---

[86]) علي ظريف الأعظمي، تاريخ الدول اليونانية والفارسية في العراق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، (د.ط)، 2001، ص ص103،104،105،106،107.

*) وهذا ما قام به السلطان سليم الأول مع طومان باي حاكم مصر بعد مصرع قانصوه الغوري بمرج دابق، فالحوار إحدى خيارات السياسة العثمانية ومن صفات السلطان سليم الأول المسمّى (بـــ:**ياووز** أي: الدموي أو العنيف).

على العموم استمرّ الاستقرار وعمّ ربوع العراق إلى غاية مطلع القرن السابع عشر أين ظهرت حركات تمرّديّة بالأناضول** كان لها الأثر على بغداد[87].

أ- حركة الشيخين: سيدي عامر ويحي الشيخ.

كانت البصرة التي تقع في جنوب العراق تتميز بوضع خاص، ومغاير عن الإيّالات الأخرى؛ وما ميّزها مشكلاتها العشائرية والبحرية، واحتكاكها المباشر بالقوى البحرية الأجنبية بالخليج، وتأثرها بالصراع الأوربي العثماني فيه[88].

فبعد أن خضعت البصرة وعلى رأسها زعيمها راشد بن مغامس إلى السلطة العثمانية خلفه ابنه مانع في حكم المدينة، إلاّ أن هذا الأخير تخلّى عن حكمها تحت ضغط شيوخ وأعيان المدينة، فتنازل كرهًا على منصبه الموروث عن أبيه راشد بن مغامس إلى يحي شيخ ابن عمّه الذي دخل في حلف مع أحد أعيان المدينة ويدعى سيد عامر من قبيلة بني المشعشع الذي أنعم عليه السلطان سليمان المشرع بحكم مدينة زكية من أعمال البصرة والواقعة بينها وبين مدينة واسط.

ففي سنة 950هـ/1545م أرسل حاكم بغداد (إياس باشا) حريم بك، من أجل بناء حصن يمكّن العثمانيين من السيطرة على مدينة زكية، لكن الشيخان سيد عامر ويحي الشيخ تمردا وأظهرا عصيانهما، ولما تدخَّل بايلرباي بغداد خضع سيد عامر للإرادة العثمانية، وصارت مدينة زكية تحت السيطرة المباشرة للعثمانيين، خاصة بعدما رفض إعادة بعض اللاجئين والفارين من بغداد. وبهذا الرفض وعدم الرضوخ كانت نهاية حكمه. وتمت معاقبته بدخول العثمانيين إلى البصرة، بتاريخ 21 شوال سنة 925هـ/ كانون الأول/يناير 1546م بقيادة بلال محمد باشا.* وعلى إثر ذلك الانتصار حولت البصرة من سنجق تابع إلى

**) ويقصد بها الحركات الجلالية وأول زعيم جلالي قاد التمرد بالأناضول وحاربته الدولة العثمانية هو أحمد الطويل (1603م-1607م). و(هنا نذكر بما عرضناه في بداية الموضوع حول أهميته فهم المصطلح ومدلوله بأن "الجلالية" في القاموس العثماني في ذلك العصر تعني العصيان والتمرد ضد الدولة) (انظر: بيات، الدول العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص279).

87) بيات،مرجع سابق، ص278.

88) عبد العزيز نوار،مرجع سابق، ص65.

*) قال عنه المؤرخ اليمني أحمد العرشي الزبيدي بأنه: "ممن أحسن الرّياسة وأدرك السيّاسة وعامل بالعدل الرعية، وتفقّد أحوال المتمسكين بالسلطنة العثمانية". كما تم منحه مكافأة نتيجة انتصاره قيمتها: 200.000 إقجة، على شكل تراقي، وهي مكافأة إضافية إلى الراتب السنوي، وقد ورد ذكرها بالتركية كمايلي:

بغداد إلى بايلربيلك، وتحت سيطرة عثمانية مباشرة، وعين عليها "بلال محمد باشا" حاكمًا جديدًا[89]. الذي مدحه المؤرّخ اليمني الزّبيدي وشهد له بالتّمكّن.(أنظر الهامش).

ب- حركة الأمير علي بن عليان.

تعتبر حركة علي بن عليان المناوئة، ثاني حركة عصيان يقوم به الأهالي، بالبصرة ضد السلطة العثمانية، بمنطقة الجزائر (الأهواز) عام 951هـ/1546م. حيث قام سكان هذه المنطقة بزعامة ابن عليان بحركة تمّرد وعصيان ضد السلطة العثمانية المحليّة. ومن جملة ما قام به المتمردون، هو قطع الطرق المؤدّية إلى البصرة، ومنها إلى بغداد. وقد ساعدهم في ذلك، انتشار العشائر على طول الطريق والتي كانت في علاقة غير حسنة مع العثمانيين[90]. لقد أظهر ابن عليان خلال حركته هذه قوة وبأس شديدين؛ حتّى استعصت على بكلربكي بغداد وعجز عن مجابهتها؛ مما اضطرّه إلى الاستنجاد بالباب العالي. وأمام شدة الخوف من قوة ابن عليان، وبناء على الأخبار المتواترة اليه، استنفر السلطان قوائًا من شهر زور، وديار بكر، وبغداد والبصرة، و حتّى من حلب، عن طريق مراسلة بتاريخ: 27 رجب 973هـ الموافق لـ 17 شباط/فبراير1566م،لمجابهة أيّ حملة قد تُشنّ على البصرة من جانب ابن عليان[91]. وهذا ما يدلّ –من وجهة نظرنا- على قلة القوات العثمانية المرابطة هناك.

لكن يبدو أنّ ابن عليان ومن خلال عيونه، وتقييمه لموازين القوى والمستجدات، أدرك القوة العثمانية وأيقن أن لا قبل له بمقاومتها، فالبصرة بها حوالي ألفان من العناصر التركية، ومدينة بغداد ليست بعيدة ونجدتها أسرع، وبالتالي فإن الرضوخ والتفاهم مع الدولة العثمانية هو الأنجع سبيلاً. فرضخ أخيرًا وهو ملزم بدفع خمسة عشر (15) سكة (Sikké) ذهب كل سنة، إلى السلطة العثمانية، مع إعادة بناء بعض الحصون. وبذلك

«Padisah. Ayas Pasa'ya 200.000 akçe terrakki ve Bilal Mehmet Pasa'ya on herre yiiz bin ake ile Basra vilayetinin beylerbeyligini verdi».

(انظر: سيّار الجميل، تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص130)، نقلا عن: حسن بن أحمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام، تح: الأب انستاس ماري الكرملي، مطبعة الترتيري، القاهرة، 1939، ص 62 .

[89]) أوزربان صالح، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (1534م-1581م)، تر:عبد الجبار ناجي، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1979، ص ص 29، 32.

[90])صالح أوزربان، المرجع السابق، ص92. و(أنظر:بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص ص 277، 279).

[91]) بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مرجع سابق، ص 321.

أخمدت تلك الحركة بالبصرة صلحا بين القبائل العربية بزعامة ابن عليان وبين الدولة العثمانية [92]. وتحول ابن عليان بعد ذلك من ثائر متمرد على السلطة العثمانية إلى مدافع ومنافح عنه وبعد هذا الصلح وهذا التحول لأبن عليان من ثائر مناوئ للدولة العثمانية إلى مدافع عنها،قام بالتصدي لحركة تمرد أهالي الجزائر* سنة 975هـ/1568م في عهد السلطان سليم الثاني خليفة السلطان سليمان المشرع.[93]

لكن رغم التفاهم والصلح الذي أبرم بين السلطة العثمانية وزعيم العشائر العربية (ابن عليان)، ورغم ما أبداه من حسن السلوك، بالدّفاع عن الدولة بتصديه للحركات المناوئة لها، إلاّ أن الدولة العثمانية بقيت متوجسة منه خيفة، ولكي تطمئن نهائيًّا من جانبه، قامت بتعيينه أمير سنجق على الأماكن الواقعة تحت نفوذه، مع دفعه عشرة آلاف (10000) فيلوري إلى خزينة الدولة، مع الاحتفاظ بسبعة من أبناء العشائر رهائن في قلعة البصرة. وبهذا الإجراء عم الهدوء وساد الاستقرار غير أن ما سبق من أحداث وقبل استتباب الأمن، كان التجار قد تأثروا بتأثّر الوضع الاقتصادي[94].

إنّ ما نلاحظه هنا هو الانتقال من عهد السلطان سليمان المشرع (1520م-1566م)**، إلى عهد خليفته السلطان سليم الثاني (1566م-1574م)، مع ميراث الحركة المناوئة. أي: ميراث وضع غير مستقر بالبصرة.

-ثانيّا: بالخليج (الأحساء):

بالرّغم من المخاطر الخارجية المتربصة بالمنطقة، وضعف أهلها أمام خطر وقوّة البرتغاليّين، وبالرغم من استنجاد أهل البلاد ونداءاتهم المتكرّرة للعثمانيين، إلاّ أنّ بعض الزّعماء المحلّيّين للقبائل العربية منهم: مشايخ قبيلة بني خالد، الذين قاموا بحركات مناوئة للباب العالي جرّاء التواجد العثماني بالمنطقة. ومن نتائج وآثار تلك

---

[92]) صالح أوزبران، مرجع سابق، ص92.

*) الجزائر، ويقصد بها المناطق الواقعة قرب البصرة وهي منطقة مستنقعات تكثر فيها الجزر؛و ليست جزائر الغرب :جزائر شمال إفريقية.

[93]) صالح أوزبران، مرجع سابق، ص92.

[94]) بيات، مرجع سابق، ص ص321، 322.

**) انتهى عهد سليمان المشرّع بوفاته بسيجتوار(1566/9/30م)، وأقام عليه جيشه صلاة الميت في يوم: 10/26، في صحراء سيرم (Sirem)، خارج بلغراد، بإمامة عطا الله أفندي. وبعد وصول جثمانه إلى استانبول يوم11/28 أقام شيخ الإسلام أبو السّعود أفندي عليه صلاة الميت.(أنظر:يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، مج2، ص361.

الحركة المناوئة زعزعة الاستقرار العثماني بالمنطقة. ويبدو أنّ العسر المالي الذي كانت تعاني منه السلطة العثمانية بالمنطقة عقّد مهمّتها وعرقل صمودها هناك.كذلك قد أشرنا فيما سبق إلى الاختلاف والتباين فيما بين الإيالات العثمانية من حيث البعد والقرب عن مركز السلطنة، ومن حيث كيفية التواجد العثماني بها، ومن حيث الأوضاع الداخلية لكل ايالة. فإنّ ردود الأفعال الداخلية، ومواقف الرعية من العثمانيين، تختلف من ايالة إلى أخرى كذالك. والحال كذلك بالنسبة لمنطقة الأحساء، التي اختلفت تمامًا عن الإيالات الأخرى، فيما يخصّ موقفها من السلطة العثمانية.

ومن خلال ما اطلعنا عليه من بعض الدراسات والإشارات المقتضبة حول هذه المنطقة خلال العهد العثماني، وبالضبط خلال عهدة السلطان سليمان المشرع، فإننا لم نسجل أي حركة جادّة مناوئة للباب العالي، باستثناء ما أشرنا إليه سابقا، والسبب في ذلك يعود -في رأينا- إلى النّسيج الاجتماعي المميِّز للسكان منطقة الأحساء. حيث كان الحكم بها عشائريًّا، وبالتالي لم يستطع الباشا (الحاكم العثماني) أن يكون له حكما مباشرًا على تلك الإيالة [95]. كما أنّ التواجد العثماني بها لم يكن مركّزا بقدر ما كان عليه في الإيالات العربية الأخرى. وربما لولا الخطر البرتغالي المحدق بالخليج العربي/ الفارسي، ما تواجد العثمانيون بالمنطقة.

خلاصة الفصل الثالث

إن ما يمكن استخلاصه من هذا الفصل حول الحركات المناوئة للسلطة العثمانية هو ما يلي:

- الاختلاف فيما بين هذه الحركات المناوئة من حيث القائمين بها، إذ هناك حركات قام بها السكان وتزعمهم أحد الأعيان البارزين منهم. وهناك من الحركات المناوئة، من قام بها الحكام الذين نصبهم الباب العالي، مثل والي مصر "أحمد باشا" عام 1524م، و "طومان باي" عام 923هـ/1517م.

- الاختلاف فيما بين الحركات المناوئة من حيث الشدة والعنف. فمنها ما أقلق السلطات العثمانية، وأحرجها ومثال ذلك ثورة العربان عام 925هـ/1519م مما أوجب التعاون على إخمادها أو اتخاذ إجراءات من الأستانة بإرسال جيوش من هناك لمواجهتها والقضاء عليها، وكذلك حركة " جان بردي الغزالي" بالشام التي قضي عليها بعد إرسال السلطان سليمان المشرع وزيره "فرهاد باشا" على رأس جيش عثماني من الأستانة.

[95]) عبد العزيز سليمان نوار،مرجع سابق، ص65.

-الاختلاف كذلك فيما بين هذه الحركات من حيث مدة قيامها حيث من الحركات ما تم القضاء عليها بسرعة، ومنها ما طالت مدتها. ومثال ذلك: حركة العربان المناوئة بمصر والتي بدأت عام 925هـ/1519م و لم تخمد نارها إلاّ عام 927هـ/1523م .

-الاختلاف من حيث الأسباب والدوافع. فمن خلال دراستنا للحركات المناوئة للسلطة العثمانية السّابقة الذكر، وقفنا على تباين الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيامها. حيث لاحظنا ما كان دافعه شخصي أو انتقامي وهو ما جسده والي مصر "أحمد باشا" الملقب بالخائن، والذي كان يرنو ويتطلّع إلى الصدارة العظمى، ولما أسندت إلى "إبراهيم باشا"، يبدو أنه اشطاط غيضًا، وانتقم من صهره السلطان سليمان، وأعلن مناهضته للأستانة وعصيانه لسلطانه.

كما لاحظنا أسبابًا ودوافع اقتصادية، ودليل ذلك: تقديم مبالغ مالية (أي: الصرة السلطانية كل موسم حج للقبائل)، واستئجار الجمال من العشائر والقبائل الثائرة مع تقديم المؤن؛ للإخماد ثورة ابن الحنش.كذلك يعتبر سوء تصرف وسياسة بعض الولاة، سببًا في قيام بعض الحركات المناوئة من تمرّدات وثورات ومثال ذلك: حركة الدروز التي قامت عام 930هـ/1524م، فبسبب تصرفات نائب إيالة الشّام الذي عالج الخطأ بخطإ أكثر منه، حيث عِوض معاقبة الجاني "الرومي" من قبل السلطة المحليّة، قام أهل منطقة الشوف (الدروز) بمعاقبته بأنفسهم.

إنّ ما يمكن استخلاصه من استنتاجنا للحركات المناوئة للسلطة العثمانية، مع اختلاف وتباين أسبابها أن هذه الحركات خلال فترة الدراسة لم تكن، حركات مناوئة تهدف إلى الاستقلال أو الانفصال، خاصة تلك التي قام بها السكان أو الزعماء المحليون. فكلها كانت حركات تهدف إلى الانتقام من السلطة المحلية على شكل ردود أفعال أو تهدف إلى فرض نمط ما لأسلوبها في العيش والحياة الاقتصادية والاجتماعية. مع استثناء حركتين اثنتين ذكرناهما.

وعلاوة على كل ما تقدم لم نعثر -فيما اطلعنا عليه- على أي إشارات فكرية مكتوبة أو أراء سياسية تخاطب الباب العالي وتشير إلى فكرة الاستقلال أو الانفصال. والتي لم نلحظها القط في أدبيات تلك الفترة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ، فإن قيام هذه الحركات يعكس الفجوة بين الباب العالي وبينها في كثير من الحالات، وكذلك محدودية إنجازاتها.

بعد استعراضنا لفصل الحركات المناوأة للسلطة العثمانية نكون قد قدّمنا أهم وأبرز الحركات التي ناوأت السلطة العثمانية وعكّرت صفو تواجدها بشكل أو بأخر ببلاد المشرق العربي*، خلال الفترة الممتدّة من1516م إلى 1566م والتي تتوافق مع عهدتي السلطانين سليم الأول وخليفته سليمان المشرّع. وإنّ ما يجدر التذكير ويستحقّ التّنويه به حول الحركات المناوئة هو كونها محليّة من جهة، ومن جهة أخرى اختلافها عن بعضها البعض، سواء من حيث التّوقيت، أو من حيث الزّعامات، التي قادتها، أو من حيث أهدافها. غير أنّه وبالنّظر إلى حجم الإمبراطورية العثمانية وعظمتها، فإنّ تلك الحركات لا تعدو أكثر من زوبعة في فنجال. مع العلم أنّ كلمة زوبعة عربية، وكلمة فنجال عثمانية[96]. وبالتالي فإن الدولة العثمانية لم تتأثر بها

وكخلاصة إحصائية عددية للحركات المناوئة خلال فترة الدراسة (1512-1566م) بالمشرق العربي، فإننا قد سجلنا ثلاثة عشرة حركات مناوئة بالمشرق العربي، باستثناء منطقة الخليج، وقد توزعت على مناطقه بالنحو التّالي:

1-أربعة حركات (04) مناوئة بالشام.

2-أربعة حركات (04) مناوئة بمصر.

3-ثلاثة حركات (03) مناوئة باليمن.

4-حركتان (02) مناوئتان بالعراق

*) الإشارة هنا إلى حركات مناوئة ببلاد المغرب (الجزائر) ضد السلطة العثمانية. (وللمزيد أنظر:شويتام أرزقي، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره (1800 /1830م)، دار الكتاب العربي،الجزائر،ط1، 2011، ص 89 وما بعدها).

96) Mohamed Ben Chenab, mots Turks et Persans conservés dans le parler Algérienne, flites, éd. 2009, p 68.

الفصل الرابع

العلاقات العثمانية الخارجية والحركات المناوئة الداخلية

تمهيد :

- المبحث الأوّل: العلاقة العثمانية المملوكية .
- المبحث الثاني: العلاقة العثمانية الصفوية.
- المبحث الثّالث: العلاقة العثمانية الحجازية .
- المبحث الرّبع : العلاقات العثمانية الأوربية.

تمهيد

إذا كانت الحركات المناوئة للسلطة العثمانية شأنا داخليا، وإذا كانت أسبابها ودوافعها تتعلق بالأوضاع المحلية، سواء كانت نتيجة لسياسة الباب العالي، أو لدوافع شخصية، أو الأوضاع اقتصادية، أو لأهداف سياسية، فإن كل ذلك يدفع إلى التساؤل عن ما علاقة هذه الحركات المناوئة من تمردات وثورات، ضد السلطة العثمانية بعلاقات الدولة الخارجيةَ؟ أو ما مدى تأثير العلاقات الخارجية للدّولة العثمانية على الحركات المناوئة لسلطتها؟

وللوهلة الأولى يبدو أن بين الأمرين بوْنًا شاسعًا، ويصعب الجزم بوجود رابط بينهما، أو النفي بعدمه؛ وهذا ما سنحاول معرفته في هذا الفصل، وذلك بالقيام بمسحة على علاقة الدّولة العثمانية بغيرها من الدّول خلال عهدي السلطانين: سليم الأوّل و سليمان المشرّع.

لم تكن العلاقات العثمانية الخارجية سواء مع دول أوربا أو مع دولة المماليك، ودولة الصفويّين الجارتين، في مجملها على أحسن ما يرام.كما لم تكن كذلك خاضعة لمبدأ حسن الجوار، وعدم التدخل، في الشّؤون الداخلية للدول الأخرى، بقدر ما كانت خاضعة لعدة اعتبارات: كالتحالفات، والطموحات الشخصية، لدى الحكام، والمصالح الاقتصادية، والنزعات المذهبية، وغيرها من الاعتبارات، التي كانت سائدة في تلك الفترة. وكان لها التأثير الفعلي في تحديد نوع العلاقات بينها؛ وبناء على ذلك اختلفت العلاقات العثمانية الخارجية من دولة لأخرى، وهذا ما سنلاحظه في هذا الفصل، الذي سنتناوله في المباحث التّاليّة:

-المبحث أوّل: العلاقة العثمانية المملوكية*:

1. طبيعتها

إن المتتبع للعلاقة العثمانية المملوكية يجدها علاقة تتراوح ما بين المجاملة والود والمؤازرة من جهة، والتآمر والعداء من جهة أخري، وهي بذلك علاقة تبدو في ظاهرها هادئة، ولكن في حقيقة الأمر هي علاقة هشّة ومتقلبة، وهذا على الأقل منذ بداية عهد بايزيد الثاني إلى غاية معركة مرج دابق (1516م).

*) تعود العلاقات العثمانية المملوكية بجذورها إلى (ق9م) .انظر إلى:تقديم رئيس الحكومة التركي: طيب رجب أوردغان لكتاب: أكمل الدين إحسان أوغلي،"الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي"، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2010، ص9. و(أنظر: فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، ص ص44،43).

فعلى إثر فتح القسطنطينية أرسلت التباشير إلى كل من مصر المملوكية وبلاد الحجاز واستبشر بذلك المماليك وتزينت القاهرة تعبيرًا عن السرور والابتهاج والمشاركة[1]، وهوّ ما يدل على حسن الجوار ووحدة الهدف والشّعور، واستمرت العلاقة قائمة على هذا المنوال وعززها وفود السفراء بين الدولتين (انظر: ابن إياس وابن الحمصي: حوادث الزمان، صص430،457 والتعاون والتآزر، ووقوف العثمانيين إلى جانب المماليك للدفاع عن مصر عندما عجزت قواهم أمام البرتغاليين وغاراتهم على السواحل والقوافل التجارية[2]. و لم يتوقف الأمر عند التآزر والتعاون المعنوي، وإنّما كان تآزرا ماديّا ومعنويّا، وقد تجسّد ذلك لما حطّم البرتغاليون أسطول المماليك عام 1509م فاستنجد السلطان المملوكي بالسلطان العثماني الذي أمدّه بالرجال الفنيّين والمواد اللازمة لبناء أسطول جديد بالسويس[3]. وكذلك التعاون بينهما ،سنة 1513م ضد الشاه إسماعيل الصفوي، وذلك على إثر الدعوة الصفوية في كل من بلاد الشام والحجاز، وهو ما أتاح للسلطان سليم الأول فرصة التفرغ لتصفية حساباته مع الصفويين بدءًا بالتخلص من آلاف الأتباع** للمذهب الشيعي بالأناضول[4]. لكن أمام كل هذه المواقف الإيجابية في العلاقات بينهما، فإنّ هناك من الوقائع ما شابها وعكّر صفوها.

2- أسباب سوء العلاقة بينهما.

بالرغم ما ساد بين الدّولتين من علاقات الود والتّآزر، إلاّ أنّ هناك ما عكّر صفوها وأصبغها بصبغة العداء وجعلها تسوء إلى درجة الصّدام العسكري؛ وممّا جعلها كذلك جملة من الأسباب تراكمت منذ عهد السلطان "محمّد الفاتح" إلى أن رجّحت كفّة الحرب بين الدّولتين ومن تلك الأحداث المتسبّبة نذكر:

1) غيثاء أحمد نافع، العلاقات العثمانية المملوكية، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005، ص 229.

2) مصطفى الصفوي القلعاوي، مرجع سابق، ص 63.

3)خليل إنالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر:محمد، الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص، 196. و(انظر الشنّاوي، الدولة العثمانية...، ج1، مرجع سابق، ص 393).

**)المقصود بهم:الكزل باشيّين والذين قدروا بحوالي 40.000فرد. (انظر مبحث العلاقات العثمانية الصفوية، لينبول: تركيا، ص55).

4) مصطفى أحمد عبد الرحيم: مرجع سابق، ص 79.

-اعتراض المماليك وإحداث عقبات أمام السلطان "محمّد الفاتح "عندما أراد توفير المياه عبر طريق قافلة الحجّاج بالشام، وما أعقبها من صراع ومعارك استمرت لمدة ستّة سنوات، ممّا اضطر سلطان تونس*إلى التدخل والتوسط بين الطرفين، ودفعهما إلى عقد هدنة بينهما**.

-فرض المماليك الضرائب على الحجاج القادمين من الأناضول، والبلقان، العابرين عبر الشّام، وكذلك ضغطهم على إمارة ذو القادر الواقعة على حدود الدولتين.

-استضافة الأمير "جم" المنشق عن السلطة العثمانية، واستقباله استقبالا لائقا من قبل المماليك، وهو في طريقه إلى مكّة المكرمة[5]، وهو ما اعتبرته الدولة العثمانية عملا عدائيّا.

فإذا كان الأمير "جم" يعتبر من خلال انشقاقه عن السلطة العثمانية عدوًّا لها، فإن السلطان المملوكي الذي استقبله يعتبر عدوًّا للدولة العثماني على قاعدة صديق عدوّ عدوّي.كما أن ضم إمارة كيلكيا من قبل المماليك اعتبره العثمانيون تهديدًا لأمنهم باعتبار هما أصبحتا متماسّتان. ومن الوقائع والظواهر السلبية الأخرى أيضا تلك التي ساهمت في سوء العلاقات البينيّة هو ما أقدمت عليه دولة المماليك*** من استيلائها على إمارة قليقية (كيليكيا)، وهو ما اعتبره العثمانيون تهديدا لأمنهم، وجعل الدولتين المتاخمتين لبعضهما البعض تحتكّان ببعضهما البعض، و بذلك يكون الصدام بينهما أسرع وأقرب ما يكون[6].

*) هو عثمان باي الذي أرسل أحد الفقهاء يدعى زين الدين ليصلح بين بايزيد وقايتباي وتم ذلك بعد تنازل قايتباي على أضنة وطرسوس لصالح العثمانيين (أنظر: هريدي صلاح أحمد، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (ع.د.ب.إ.إ)، مصر، 2012، ص 113).

**) من نتائج الهدنة:توقف المعارك وإرجاع منطقتي أضنه وطرسوس إلى المماليك .

5) صالح كولن، مرجع سابق، ص 85.

***) المماليك يصنفون إلى: مماليك السلطان، ومماليك القراصنة ومماليك الأشرف قايتباي والمماليك السيفية. (أنظر: ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص 836).

6) مصطفى أحمد عبد الرحيم: مرجع سابق، ص 79.

-التحالف المملوكي الصفوي وهو ما يبرِّر تطبيق مقولة "صديق عدوّي عدوّي "وهو تصرف رفع الحرج الدبلوماسي عن الدولة العثمانية واتخذه السلطان سليم الأول مطيّة لانتزاع الفتوى الشرعية من أفواه علماء الدين[7].

ومن خلال مسار المعطيات بين الدولتين والوقائع التي حدثت بينهما يمكن استخلاص جملة من الأسباب الأخرى التي أدت إلى سوء العلاقة بين الدولتين، ثم الحرب الأخيرة بينهما عامي 1516م و1517م.

- إيواء المماليك الأمراء العثمانيين الفارين من السلطة العثمانية والمنشقين عنها، ومنهم: الأمير (جم) الذي أصبح محل إزعاج وتهديد للسلطة العثمانية[8].
- استقبال السلطان سليم الأول أحد مماليك السلطان المملوكي قانصوه الغوري المسمّى حشقدم شاد الشّون الذي قيل أنّه فرّ إلى ابن عثمان (السلطان العثماني سليم الأول) عبر البحر مع جماعة من المماليك[9].
- الصراع على الإمارات والمتاخمة لحدود الدولتين، حيث قام العثمانيون بالسيطرة على إمارة كرمان عام 1468م، بينما استولى المماليك على إمارة قليقية (كليكيا)، وادعائهم السيّادة على الإمارات التركمانية الحدوديّة.
- اعتقاد العثمانيين أحقيتهم في تبؤ مكانة الريّادة في العالم الإسلامي ولهم الأفضلية في حد نفوذهم على الإمارات الحدودية، خاصة أن ما قام به محمد الفاتح بفتحه القسطنطينية (1453م) أشعر العثمانيين بالعظمة[10].فإذا كان شعور العثمانيين كذلك فإنّه من الطبيعي أن يشعر المماليك بالغيرة وربما بالحسد على تلك المكانة، والخوف في ذات الوقت.

إذا كانت الأسباب السياسية والدبلوماسية هي الظاهرة والمؤثرة عمومًا، في العلاقات بين الدولتين العثمانية والمملوكية، وذلك نظرًا لأهميتها. فإن الأسباب الاقتصادية لا تقل أهمية كذلك. حيث ساءت أحوال الاقتصاد المملوكي، على إثر ركود التجارة بسبب السيطرة البرتغالية، على البحر المتوسط وسواحل بحر

---

[7]) أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1995، ص 85. وأنظر: غيثاء نافع: العلاقات العثمانية المملوكية (1464م/1517م)، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2005، ص 231.

[8]) أحمد فؤاد متولي، المرجع نفسه، ص 91.

[9]) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج3، مرجع سابق ، ص 965.

[10]) خليل إنالجيك، مرجع سابق، ص 82.

العرب. لكن ومهما كانت الأسباب كثيرة لتأزّم العلاقات، بين الدولتين، فإنّ الدافع لاجتياح دولة المماليك والقضاء عليها كان أكثر قوّة لكونه مستمدًّا من اجتماع الصّراعات البينية بالمنطقة - بين العثمانيين والصفويين والمماليك-والتّهديد الخارجي من طرف البرتغاليّين لسواحل شبه جزيرة العرب[11].

المبحث الثاني: العلاقة العثمانية الصفوية:

1- طبيعتها.

كانت العداوة ديدن الدّولتين العثمانية و الصفوية المتجاورتين في علاقاتهما البينية، ومستحكمة بينهما، وقد بلغت درجتها إلى حد قيام الصفويين بإبرام تحالفات مع أعداء الدّولة العثمانيّة من الأوروبيّين[12].

فمع بداية عهد الشاه إسماعيل الصفوي (1499م)، تميزت العلاقة الصفوية العثمانية بشيء من التذبذب والضبابية، لكن غلبت عليها التصرفات العدائية خاصة من قبل الشاه إسماعيل تجاه السلطان بايزيد، ثم من قبل ابنه طهماسب. فمن جملة الخطوات والأعمال العدائية التي قام بها الشّاه الصفوي نذكر مايلي:

-عقد اجتماع لأنصاره من الكزل باش الأناضوليين في ربيع 1500م في أرزينجان، ثم الدّخول إلى مدينة تبريز عام 1501م، وإرسال المحرضين لإثارة القلاقل و الاضطرابات عبر قوافل التجارة العابرة للأناضول[13].

أما السلطان العثماني بايزيد (918هـ/1512م) فإنّ ما اتخذه من إجراءات تجاه الشاه إسماعيل الصفوي أقل ما يُسْتشفّ منها أنّها تدل على عدم الحزم والتساهل، بل وربما الضعف، وقد تمثلت فيما يلي:

- غلق الحدود الصفوية العثمانية مع السماح بمرور القوافل التجارية.

-استقبال السفير الصفوي المطالب بـ "طرابزون"* للشاه إسماعيل.

---

[11]) غيثاء أحمد نافع،مرجع سابق، ص 231، 232.

[12]) أحمد سالم سالم علي، مرجع سابق، ص 237.

[13]) روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، مرجع سابق، ص 164.

*) طرابزون(Trabzon) وتعني: الطّاولة، وهي مدينة في أقصى شمال الأناضول على الساحل الجنوبي الشّرقي للبحر الأسود، أسّسها، الميليتيّون خلال القرن الـــــــــــ:7 ق م ، كانت تحت إمرة الأمير سليم في عهد أبيه السلطان بايزيد الثاني، ولمدّة قاربت عاما. (انظر: الشنّاوي، موسوعة، الدولة العثمانية ...مفترى عليها، مرجع سابق، ص 393 .

2-أسباب تدهور العلاقة بينهما.

إذا كان السّماح للشاه من قبل السّلطان بايزيد باجتياز الأراضي العثمانية بمناسبة عملياته ضد آل "ذو القادر" عام1507م على غرار ما فعل السلطان المملوكي اعتبر مسالمة وتساهلا منه مع غريمه الشاه الصفوي، فإنّ ابنه الأمير سليم والي (طرابزون = Trabzon) كان على النقيض من والده، حيث قام بغارات عسكرية على بعض الأطراف الصفوية[14]، وهو الذي كان يدرك تمام الإدراك الخطر الصفوي والزّحف الشّيعي. ومع هذه المواقف المتناقضة بين الطرفين كان من الحتمية بمكان أن يقع الصدام والمواجهة ولا محيد عنهما، إذ وقعت المواجه الأولى بينهما بقيادة الأمير سليم عام 1508م، ثم تجدّدت عام 1510م، مما دفع بالشاه إلى الاتصال بالبنادقة؛ وبهذه الخطوة يكون الشّاه إسماعيل الصّفوي قد رفع الحرج عن السلطان سليم الأول، ناهيك عن الاستفزازات المتواصلة ، وهو ما يسمح له بكسب التّأييد، إلى درجة استصدار الفتاوى الشّرعية.

إنّ ما أسلفناه في الفقرة السّالفة لم يترك المؤسسة السياسية في الباب العالي وحدها في خندق المعاداة للسلطة الصفوية، وإنّما جرّت معها كذلك المؤسسة الدينية، وذلك من خلال الفتوى الصادرة عن شيخ الإسلام والقاضية بضرورة قتال الشيعة ، وتلى ذلك تبادل الرسائل العدائية والهجومية، وما تضمّنته من كلمات قاسية -كما سنرى لاحقاً -إلى أن حدث أول صدام بينهما، وانتهى بتغلّب العثمانيين على الصفويين، وانتزاع عاصمتهم تبريز، لتستمر بعد ذلك العداوة والصراع بين الطرفين[15].

وإذا ما رجعنا إلى مواقف كل طرف اتجاه الآخر، نجد أن الصفويين قد بذلوا أقصى جهودهم لإثارة القلاقل داخل الأراضي العثمانية خاصة بمنطقة الأناضول المجاورة، وتحريض المتشيعين بها كما ذكرنا آنفا، وبالتّوازي مع ذلك قاموا بالتضييق على أتباع المذهب السّني داخل أراضيهم.

أما العثمانيين فقد كانوا يتطلعون إلى زعامة العالم الإسلامي، وهم أحق بها وأهل لها حسب جملة من الأسباب، أولها وليس آخرها، الذود عن البلاد الإسلامية وشعوبها ومقدساتها، والشواهد على ذلك كثيرة ومنها: تصديهم للبرتغاليين ببحر القلزم وبالخليج العربي الفارسي. ومن هنا كان موقف العثمانيين بالمرصاد للصفويين خاصة بعد رصد الاتصالات السرية بين الصفويين والمماليك، على حساب العثمانيين[16].

ومهما يكن من أمر فإنّ هناك جملة من الأسباب والعوامل كانت مدعاة للعداء العثماني الصفوي، وصورة للعلاقة بينهما لخصها عودة محمد إبراهيم ، وهي كما يلي:

---

[14]) روبير مانتران، المرجع السابق، ص 164.

[15]) عودة محمد عبد الله وإبراهيم ياسين الخطيب، مرجع سابق، ص ص 18، 19.

[16]) إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص65.

1. المشاكل الحدودية بين الدولتين لمحاولة كل منهما القضاء والسيطرة على الإمارات التركمانية والمغولية المجاورة للعراق، وتلك تأرجحت موالاتها بين الدولتين، فازداد التنافس بينهما.
2. سعي الدولة الصفوية إلى تشييع الأناضول، وتحريض المتشيّعين ضد أهل السنّة، والإساءة إليهم خاصّة منهم سكّان الحدود .
3. تشجيع الدولة الصفوية بعض الأمراء العثمانيين على العصيان والتمرّد ضد دولتهم وذلك بتوفير لهم الإيواء وحمايتهم على غرار ما فعله المماليك.
4. التّلاسن اللفظي والمعنوي بين الطّرفين من خلال الرسائل المتبادلة بين السلطانين العثماني الصفوي. بالإضافة إلى حرص الشاه الصفوي على إيجاد القلاقل والاضطرابات داخل الدولة العثمانية[17].

فكل هذه الأسباب وربما غيرها تشابكت وأدت إلى الصدام المحتدم في موقعة جالدران 1514م[18] والتي انتهت بهزيمة الصفويين وعلى رأسهم الشاه إسماعيل الصّفوي، والنتيجة كانت جفل الخيول، وإغماد السّيوف الصفوية إلى حين استيلاء العثمانيين على شمال العراق وديار بكر وأجزاء من أذربيجان وتأمين الحدود العثمانية الشرقية معهم. كما تم تثبيت المذهب السنّي بالأناضول وإحداث توازن بين السنة والشيعة بالعراق، بالإضافة إلى كل ذلك تأزّم العلاقة بين العثمانيين والمماليك، و تطلع الدولة العثمانية إلى قيادة العالم الإسلامي السنّي وحمايته[19]. أما وديع أبو زيد صاحب كتاب الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط فيذكر لنا ثلاثة أسباب يراها كافية لنشوء العداوة بين العثمانيين والصفويين والتي تتمثل فيما يلي:[20]

1. مساعدة الشاه إسماعيل الصفوي الأمير أحمد (أخ سليم الأول) على التمرد وذلك لما التجأ إليه ووفّر له الحماية.
2. التواصل المملوكي الصفوي عن طريق السفراء (القضاء) من إسماعيل الصفوي إلى قانصوه الغوري وهذا ما ذكره المؤرخ المعاصر ابن الحمصي[21].
3. الزحف الصفوي الشيعي المتفاقم على جهة الحدود الشرقية للدولة العثمانية والمتمثل في تزايد النفوذ خاصة بعد الاستيلاء على ولاية شيروان وجعل مدينة تبريز عاصمة للصفويين عام 1501م. وكذلك احتلال بغداد وضم بلاد أذربيجان.

---

[17]) الميرالآي إسماعيل سرهنك، مرجع سابق، ص66.

[18]) عودة محمد عبد الله وإبراهيم يس الخطيب،مرجع سابق، ص 19.

[19]) إسماعيل أحمد ياغي،مرجع سابق، ص65.

[20]) وديع أبو زيد، تا الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2011، ص ص 77،78.

21) ابن الحمصي، مرجع سابق، ص ص 469،473.

4. مراسلات الشاه إسماعيل الصفوي إلى السلطان المملوكي ودعوته للتحالف ضد العثمانيين والتصدّي لهم، ومؤكدًا أنّه عازم على قتالهم ولو لوحده، ومهدّدًا إياه بالمصير الذي سيلقاه إذا لم يتعاون معه. بالإضافة إلى إحداث القلاقل والاضطرابات داخل الدولة العثمانية[22].

فكل هذه الأسباب دفعت بالسلطان "سليم الأول" أن يعقد العزم لقتال إسماعيل الصفوي ومن ورائه الصفويين ولقد ترجم السلطان سليم الأول عزمه بقتل حوالي أربعين ألف (40.000) من الشيعة المتواجدين بشرق الأناضول، وبطريقة سريّة حتّى شبّهتها بعض المراجع، بمجزرة برتملي الفرنسية*، التي وقعت في 24 أوت 1573. لكن حسب تاريخي الحادثتين نجد أن حادثة برتملي الفرنسية لاحقة ومتأخرة عن التي قام بها السلطان سليم، وبالتالي فهذه الأخيرة ليست شبيهة بالثانية، بل الثانية (الفرنسية) هي الشبيهة بالأولى، وهذه المغالطات كثيرًا ما لاحظناها في العديد من الكتب. ولقد تُرجمت تلك العلاقة العدائية بين الدولتين إلى صدامات مسلحة، وقد بدأت بالمعركة الشهيرة التي كان لها أثر كبير في قلب الموازين، وهي معركة جالديران قرب مدينة تبريز بتاريخ (920ه/29 أوت 1517م)، ثمّ تلتها معارك أخرى منها:

1) المواجهة التي وقعت في عهد السلطان "سليمان المشرع" عام 940هـ/1533م والتي من خلالها استولى على المنطقة الممتدة بين أرزروم (Erzurum) وبحيرة (فان:van) واحتلال تبريز وأواسط فارس وجزءًا من العراق.

2) وفي عام 941هـ/1538م تم الاستيلاء على مدينة البصرة بأقصى جنوب العراق، ومنها تم بسط نفوذ الدولة العثمانية على منطقة الساحل العربي للخليج. ثم حملة سليمان المشرع الثانية عشر والأخيرة ضد إيران عام 1553م.

كما أن استقبال المنشقين من الطرفين لهوّ دلالة على العداء المتبادل واستغلالهم كوسائل ضغط، ومثال ذلك هروب "ميرزا" شقيق الشاه طهماسب إلى الأراضي العثمانية عام 954هـ/1547م وحمايته من قبل السلطة العثمانية[23]. وفرار الأمير بايزيد ابن السلطان سليمان المشرع إلى شاه إيران الذي أمر بقتله. لهو كذلك لون من ألوان الصراع والحرب الدبلوماسية بين الطرفين.

وما يدل على شدة العداء والكراهية بين الدولتين، هو تلك الصفات والنعوت التي كان يطلقها العثمانيون على إسماعيل الصفوي، ومنها ما حوته وثائق وكتابات القرن السادس عشر مثل: لقب الصوفي على

---

[22]) الميرالاي إسماعيل سيرهنك،مرجع سابق، ص66.

*) هي مذبحة راح ضحيتها حوالي ستين ألف (60.000) من البروتستانت في جميع أنحاء فرنسا على يد الكاثوليك، وكانت بأمر من ملك فرنسا شارل التاسع، وبناء على تحريض والدته كاترين دي مديس.

[23]) روبير مانتران،مرجع سابق ، ص ص 228،230. و (انظر:إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص65).

الشاه إسماعيل وعلي الكزل باش**كالملاعين وطائفة الملاحدة (جمع ملحد) الملاعين دمرها الله[24]. واستمر العداء بينهما إلى غاية معاهدة أماسيا 1555م بين الدولتين[25]، ثم معاهدة بين الشاه الصّفوي والسلطان العثماني عام 1559م[26].

المبحث الثّالث: العلاقة العثمانية الحجازية.

ليس غريبا أن تعود العلاقات العثمانية إلى بلاد الحجاز إلى ما قبل التواجد العثمانيّ بها، فحتّى وإن لم تكن هناك علاقات سياسية أو اقتصادية بينهما، فإن العلاقة الروحية بين **مكة** المكرمة والمسلمين العثمانيين ثابتة وأكيدة، وذلك على غرار علاقة البقاع المقدّسة بسائر الأقطار الإسلامية.

فرغم شح المعلومات -حسب إطلاعنا- فإنّ العلاقات العثمانية الحجازية، ترجع إلى عهد الأمير العثماني مراد الأول (1362م-1389م)، وذلك من خلال اهتمامه ورعايته بنفسه للسادة والأشراف* الوافدين من بلاد الحجاز على الإمارة العثمانية وقد أكّد على هذا الكاتب محمد حرب من خلال استشهاده بما أوردته مجلة "لجنة التاريخ العثماني" في سنتها الخامسة، ص 244 بصورة براءة، أصدرها الأمير مراد حول عنايته بالسّادة والأشراف في إمارته[27].

فإذا ما اعتبرنا هذه العلاقة في عهده لا تعدو عن علاقة أولية، وضمن الحدود العثمانية باعتبار أنّ اهتمامه وعنايته بالسّادة والأشراف اقتصرت على من هم بالأناضول، فإنّ عهد السلطان بايزيد الأول** (1347م-1403م) قد عرف وجود علاقة عثمانية حجازية بشكل رسمي.

**) الكزل باش:=أحمر الرأس:هو اسم، أطلقه، العثمانيون في(ق:14م)، على التركمان الشّيعة بالأناضول اللذين كانوا يضعون قلانس حمراء على رؤوسهم.(انظر:حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر القاهرة، ط1، 2004، ص111.

[24]) أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة له، القاهرة، 1976، ص 43.

[25]) روبير مانتران، المرجع السابق، ص 230.

[26]) جانين و سورديل، معجم التاريخ الإسلامي،مرجع سابق، ص510.

*) وهم: المنحدرون من نسل الرسول (ص) سواء كانوا حَسَنِيُّون أو حُسَيْنِيُّون.

27) محمد حرب،مرجع سابق، ص 59.

**) بايزيد الأول الملقب بـــــــــ "يلدرم" وذلك لشجاعته، وطاقته في المعارك، وسرعته أثناء القتال. أسره تيمور لنك (تيمور الأعرج) خلال معركة أنقرة (1402م) وتوفي أسيرا في 8 مارس 1403م.

وبعدما كانت العناية العثمانية بأشراف وسادة الحجاز لا تتعدّى حدود الإمارة العثمانية خلال عهد الأمير مراد الأول فإن عهد السلطان بايزيد (الصاعقة)قد عرف إرسال أول "صُرّة"*** إلى **مكّة** المكرمة والمدينة المنورة وكان يوزع بنفسه ألف (1.000) فيلوري ذهبًا سنويّا على كل من ينتسب إلى الرّسول محمد (ص)، مع وقف منتجات بعض القرى على **مكة** والمدينة.

لم تتوقف العلاقات بعد السلطان بايزيد (الصاعقة) بل تواصلت، فالسلطان "مراد الثالث" أوصى بجزء من ماله بوصية مؤرخة في شهر رجب 850هـ/ سبتمبر 1446م إلى الحرمين الشريفين[28]. كما حافظ السلاطين من بعده على استمرار العلاقة العثمانية الحجازية، وهذا ما تظهره مراسلات السلطان محمد الفاتح مع أمير **مكة** عن طريق العالم محمد الزيتوني لما بشّر أهلها ومن حولهم بفتح القسطنطينية ومعه هدايا قيمة من السلطان العثماني. وقد قُرِأت الرسالة أمام الكعبة المشرفة وأمام الملأ وأُرْدِفَتْ قراءتها بالدعاء للسلطان الفاتح ثم رد شريف **مكة** على هذه الرسالة بأخرى وهدايا مماثلة، عن طريق السيد نجم الدين السيوطي[29].

إن هذا التواصل بين سلاطين الدّولة العثمانيّة وأمراء بلاد الحجاز، عن طريق التباشير، والهدايا، ناهيك عن الحجاج لدلالة على الاحترام المتبادل وعلى التعاضد بين سلاطين الدولة العثمانية وأهل الحجاز.

أما بعد التواجد الفعلي للعثمانيّين فقد ازداد التّواصل، واستمر تدفق الأموال الوقفية، والصّرة على المدينتين المقدستين (**مكة** والمدينة)، عبر قوافل الحج وتحت إشراف السلاطين العثمانيّين مباشرة. كما اعتنوا بالجانب العمراني من خلال الترميمات التي قاموا بها وهو ما تضمّنته التقارير الواردة من **مكة**[30]. بالإضافة إلى الأوقاف التي خصّصوها للمدينتين المقدّستين وأهل الحجاز عموما. أمّا العلاقة السيّاسيّة قبل التّواجد العثماني فإنّها لم تكن مباشرة، وذلك لكون بلاد الحجاز تحت المظلة السيّاسيّة للمماليك.

-المبحث الرّبع: العلاقات العثمانية الأوربية.

***) الصرّة: وقد أوردها محمد عمارة في كتابه: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ص 328 "الصرّة الشريفة" وعرفها بأنها "مصطلح مالي في العهد العثماني تمثل الأموال المخصّصة للحرمين الشريفين من أراضي وعقارات موقوفة على الحرمين". أما الأهالي فيطلقون عليها "الصدقات الرومية".

28) محمّد حرب، المرجع السابق، ص 60.

29) أوليا جلبي، الرحلة الحجازية، مرجع سابق، ص ص 33،34.

30) محمّد حرب، نفسه، ص ص 60، 63.

قبل التطرق إلى العلاقات العثمانية الأوربية نرى من الأجدر تقديم ومضة قصيرة ومختصرة عن أوضاع وحالات أوربا[31] قبيل وخلال القرن السادس عشر، وذلك من خلال بعض دولها. وكذلك نظرة أوروبا للدّولة العثمانية.

أولاً:واقع أوروبا قبيل القرن (16م).

بدءا بألمانيا التي كانت خلال القرن الخامس عشر وحتى القرن السادس عشر ممزقة إلى ثلاثمائة وخمسين وحدة سياسية ، وعند البعض إلى 500 وحدة سيّاسيّة حسب يلماز أوزتونا: موسوعة الإمبراطورية العثمانية ، ولا يجمع بينهم سوى الجنس واللغة. أما إيطاليا فكانت مجزأة إلى مناطق يخضع بعضها إلى النفوذ الأجنبي، حتّى أصبحت مسرحًا للصّراع الرهيب الذي نشب بين مملكتي فرنسا وإسبانيا؛ فنتجت عنه حروب شعواء، عُرِفت "بالحروب الإيطالية"[32]، ناهيك عن العداء المستشري بين فرنسا وأسبانيا من جهة، والسّباق المحموم بين أسبانيا والبرتغال في مجال الاستكشافات خارج أوربا من جهة أخرى.

لقد خرجت أوربا من القرن الخامس عشر وودّعته بإنجاز حضاري كبير، واستقبلت به القرن السادس عشر والذي يعتبر تحول سياسي وحضاري تاريخي كبير في العالم، وحدث فارق في تاريخ أوربا والعالم معًا، ألا وهو الاكتشاف الجغرافي للعالم الجديد (اكتشاف القارة الأمريكي) عن طريق البحار الجنوي "كريستوف كولومبس"*، والبحّار الإنجليزي"جون كابوت"، و "جوفاني دافيراتزانو"، و" الأمير فسبوتشي"[33].

أمّا خلال القرن السادس عشر(ق16م) فقد كانت أوروبا في حالت تحوّل وانبعاث، مع استمرار الصراعات البينية، خاصّة بين مملكتي فرنسا وإسبانيا التي استولت على معظم وسط القارّة الأمريكية. ونشبت بينهما حروب كثيرة.وكذلك الصّراع الدّيني بين المذهبين البروتستانتي الحديث، والكاثوليكي التّقليدي.

---

[31]) أجمع الكثير من الباحثين على أن اسم القارة الأوربية مشتق من اسم الأميرة الفينيقية "يوربا" ابنة الملك الفينيقي "آجينور" ملك بلاد كنعان وفلسطين، ولما رآها زيوس كبير آلهة اليونان، أعجب بها وأخذها من شاطئ صور إلى جزيرة كريت، ومن ثمة سُمِّيَت =اليونان باسم "يوربا" وفي عام 500 ق م انتشر الاسم بشمال اليونان (أنظر: صالح محمد أشرف، أصول التاريخ الأوربي الحديث، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ط1، 2009).

[32]) زاكري كرابل، أهل الكتاب، تر أحمد إيبش، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ص 214. وانظر: الميرالاي سرهنك، مرجع سابق، ص 77.

*) بعض الأبحاث تشير إلى السبق العربي في اكتشاف قارة أمريكا، وأخرى تشير إلى السبق العثماني، (أنظر: أنور الجندي، سموم الاستشراق، مرجع سابق، ص 44.

33) صلاح م. س. أشرف، أصول التاريخ الأوربي الحديث ¨Les Actifs de l'histoire européenne moderne¨دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ط1، 2009، ص ص 60،61،63.

وللتّوسّع في هذا الموضوع (انظر:عبد الفتّاح أبو علية، وإسماعيل ياغي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، (د م ج) الجزائر

ثانياً: نظرة أوربا للدولة العثمانية.

لقد كانت ولا تزال الفتوح الإسلامية لقارة أوربا من الجهة الجنوبية الغربية (الأندلس) عام711م بواسطة "طارق بن زياد" ومن الجهة الجنوبية (جزيرة صقلية)** عام 212هـ بواسطة "زيادة الله إبراهيم بن الأغلب" .

وكذلك استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدّين الأيّوبي من الأحداث الماثلة في الذاكرة التاريخية الأوربية، ولذلك نظر الأوربيون إلى الفتوح العثمانية لمنطقة البلقان*** نظرة ريبة وخوف، بل كان ولا يزال كابوسًا يؤرقهم خاصة الشرقيين منهم[34]. واستعاد الأوربيون نظرتهم العدائية المخفاة ومستشعرين(الخطر) المزعوم.

إن ما يُثْبِت ذلك هو تجسيد الأتراك العثمانيين المظهر الحي للإسلام والمسلمين، إلى درجة أن كل مسلم في نظر الأوربيين هو تركي[35]. وهذا يدل على درجة التأثير التركي في الأوربيين مما يبرّر نظرتهم لهم.

فباسم الإسلام فُتِحت القسطنطينية عام 1453م؛ وتحققت نبوءة وبشارة الرسول محمد -صلّى الله عليه وسلم- « **لتفتحنّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش** » صدق رسول اللّه. وباسم الإسلام توغّلت الجيوش العثمانية خلال حملاتها العسكرية داخل أوروبا الشرقية. وباسم الإسلام استغاث مسلمو الأندلس بالعثمانيين[36]. وباسم الإسلام خلّص العثمانيون بعض مسلمي شمال إفريقيا من مخالب الأسبان. وباسم الإسلام حمت الدولة العثمانية المقدّسات الإسلامية بالحجاز من الخطر الصّليبي البرتغالي.

**) صقلية Sicilia : جزيرة إيطالية بالبحر المتوسط، غزاها الفينيقيون، واليونان، ثم فتحها المسلمون (ق 9م)، ومكثوا بها مدة 263 سنة. ثم افتكها النورمان عام 1091م.(أنظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط37، 1998).

***) البلقان: هو المنطقة الشرقية الجنوبية من أووربا وتضم دول يوغسلافيا سابقا واليونان وبلغاريا وألبانيا ومقدونيا والجزء الأوربي من تركيا. ووقعت تحت السيطرة العثمانية في نهاية القرن 14م، وانفصلت عن الدولة العثمانية خلال القرن 20/19م (انظر المنجد في اللغة والأعلام، نفس المرجع).

34) محمّد محمّد قاروط، هموم ومشكلات مسلمي البلقان كوسوفا، مقدونيا، بلغاريا، دار المكتبي، دمشق، ط1، 2000، ص325.

35) أنور الجندي، مرجع سابق.

36) محمّد درّاج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512م/1543م)، شركة الأصالة، الجزائر، ط1، 2012، ص301. و(انظر: يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، 4 أجزاء ، 2013).

وهكذا بفضل ما تقدّم ذكره ترسّخت صورة الإسلام والمسلمين في أذهان الأوربيين. واحتجبت صورة العرب[37].

لم تقتصر نظرة أوروبا العدائية للأتراك فحسب، بل شملت كل شعوب المشرق، فلقد جاء في كتاب حاضر تركيا (L'état présent de la Turquie)، الجزء الأول بعنوان: سبعة أمم غير صديقة وهم: الأتراك، والعرب، والأكراد، و التركمان، و اليزيديون و الدروز، واليهود. وهذه الصورة العدائية المنمّطة للتحالف الأوربي تتّضح بجلاء من خلال ما ذكره محمد درّاج في كتابه "الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس" (1512م-1543م)[38]. وإنّ كل ما سبق ذكره ينمّ على التنميط الأوربي للأمم غير الأوربية ،كما يكشف عن روح صليبية دفينة، في الفكر الجمعي لدى الأوروبيّين.

ثالثاً: واقع العلاقة العثمانية الأوربية.

تدخل العلاقة العثمانية الأوربية في مفهومها العام ضمن نطاق العلاقة بين الشرق والغرب بما فيها من خصائص ومميزات على أساس الاختلاف الدّيني والحضاري والمصالح الاقتصادية المشتركة، غير أن أحداث الحروب الصليبية (1096م/1187م) عكّرت صفو العلاقات وقوّت الاستعداء، ولكن بعد ذلك عاش الطرفان فترة هدوء إلى غاية فتح القسطنطينية عام 1453م من طرف العثمانيين. لقد اكتسبت الدولة العثمانية مركزًا مرموقًا في أنظار الأوربيين وكان بسبب تلك القوة التي أظهرتها على إثر فتح القسطنطينية، وصارت الدولة العثمانية القوة الإقليمية الإسلامية الوحيدة بالمنطقة، إلى درجة وصفها في المصادر الإستشراقية بـــــــــــــ:"رعب العالم". وبذلك أُلقِيت على مسؤوليتها التزامات في المشرق العربي، وفي حوض البحر المتوسط، ناهيك عن التزاماتها في شرق أوربا وحتى آسيا الوسطى، إلى أن غدت فيما بعد مركز للعالم و الدولة المهيمنة عليه آنذاك[39].

كما نجح العثمانيون من خلال ما تقدم في توحيد صورة المسلمين في أذهان الأوربيين وتجسّد ذلك في الوحدة السياسية للمسلمين بقيادة الدولة العثمانية ابتداء من عهد السلطان سليم الأول. (1512م-1520م).

---

[37] صالح محمّد سيد أشرف، مرجع سابق، ص ص 156، 157.

[38] محمّد دراج، المرجع السّابق، ص301.

[39] نادية محمود وآخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، ج11، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1997، صص21، 28.

ونظرًا لما كانت عليه الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر وما تتمتع به من قوة ومكانة، فإن العلاقة معها كانت تعتبر مكسبًا دبلوماسيا وأمنيّا ثمينين. ولذلك تنافست الدول الأوربية فيما بينها على ربط علاقات مع الباب العالي (الحكومة العثمانية). وكل دولة تريد الاستئثار بالعلاقة مع العثمانيين دون غيرها وهذا ما تفسّره محاولة السفيرين البندقي والفرنسي عرقلة وجود سفير مقيم لإنجلترا لدى القسطنطينية وعملا جاهدين على ثني السلطان العثماني على قبول الممثل التجاري الإنجليزي.

إن ما يعنينا أكثر في هذا الفصل هو العلاقات الأوربية، التي سادت خلال القرن السادس عشر، بين الدولة العثمانية، وغيرها من الدول[40]، لا سيما في عهدي السلطانين سليم الأول وسليمان المشرّع. ثم هولندا وروسيا فيما بعد القرن السادس عشر[41] وغيرهم من الدول. والحقيقة أنّ الدول المعنية بالعلاقات العثمانية الخارجية في هذا الصدد هي: البندقية وفرنسا والنمسا، وانجلترا وبالخصوص تلك الدول الأوربية الفاعلة في المسرح العالمي. لكن الدولة العثمانية في حقيقتها كانت ميّالة إلى الانغلاق والتقوقع، حماية لنفسها. ولذلك ضيّقت باب التعامل الخارجي.

لكن بعدما تنبّهت لضعفها في بعض المجالات، وتيقّنت من الخطر المسيحي الغربي، بزعامة "شارل كان"وبعد ما أعلن البرتغاليون نيتهم في نبش قبر الرسول **محمد** (ص)، ونقل جسده الطّاهر. آثرت الانفتاح وأقبلت على الاقتباس والتحالف العسكري والتعاون التجاري[42]؛ لكن هذا فيما بعد القرن السّدس عشر. وبالتالي نشأت علاقات مع بعض الدول الأوربية، إلاّ أنها اختلفت من دولة لأخرى حسب خصوصية كل دولة[43].

فبفضل فتوحاتها وتفوقها البحري جعلت علاقاتها مع الدول مطبوعة بطابع عثماني، نابع من مكانتها ورفعتها في نظر الساسة الأوربيين، ويتجلى ذلك في إجماع ملوك أوربا على تلقيب السلطان العثماني سليمان الأول (المشرع) بسليمان العظيم "Soliman le magnifique"، في حين لم يستخدم السلاطين العثمانيون هذا التوصيف والإكبار مع ملوك أوربا. كما كانت الدولة العثمانية تبرم مع الدول الأوربية هُدنًا ومنح امتيازات بدل إبرام معاهدات، أضف إلى ذلك استقبال الدولة العثمانية سفراء الدول الأوربية بإستانبول

---

[40]) صالح كولن،مرجع سابق، ص59، ها 14.

[41]) دوسن مرادجه (D'hossan Muradjea)، نظام الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في عهد دوسن مرادجه (أي في أواخر القرن 18 وأوائل القرن الـ 19م) تر: فيصل شيخ الأرض رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ بجامعة بيروت الأمريكية، لنيل شهادة أستاذ في العلوم، يناير 1942م.

[42]) أحمد عبد الرحيم مصطفى،مرجع سابق ص 170.

[43]) طارق نافع الحمداني،مرجع سابق، ص68.

دون إرسال سفراء لها[44]. لكن حادثة أسر الأمير (جم Djem) ونقله إلى أوروبا كورقة ضغط قد ليّنت من موقف الدولة العثمانية في التّقوقع، بل ومتّن العلاقات العثمانية مع أوربا الغربية[45].

1: العلاقة العثمانية الفرنسية:

كما ذكرنا سابقا فإن أصل العلاقة بين دول أوربا والدولة العثمانية علاقة عدائية بما في ذلك فرنسا، وهذا العداء هو القاعدة العامة أما العلاقات الودية فهي الاستثناء. وعلى هذا نجد العلاقة العثمانية الفرنسية بدأت بالعداوة فـــــــــ: روبير مانتران (Robert Monterand) يذكر لنا أن ملك فرنسا خلال عام 1494م توجه بجيوشه لغزو نابولي عابرًا جبال الألب، وهو عازم على جعلها قاعدة عسكرية تنطلق منها جيوشه مستقبلا في حملة عسكرية ضدّ الأتراك[46]. ولذلك اعتبر المؤرخون العلاقة العثمانية الفرنسية، والمجسدة في التحالف الذي حدث فيما بعد بينهما، بالحدث الكبير والخطير في تاريخ أوربا، حيث يقول عن ذلك المؤرخ "تيوفيل لافاليه"ما يلي:

« L'alliance de la France avec la Porte Ottoman, alliance qui est très grave événement dans l'histoire de l'Europe, puisqu'elle a été l'accueil de puissance de la maison d'Autriche ».[47]

ويُفهم من هذا القول، أن التحالف الذي وقع بين فرنسا والدّولة العثمانية يعتبر في الفكر الغربي الأوربي (المتعصّب) شيء نشاز، وربما خيانة للصليب والمسيحية. وهذا ما تدعّمه سريّة الاتصالات لكن من وجهة نظر أخرى، فإنّ ما أقدمت عليه فرنسا، وما استطاعت أن تحدثه مع الدّولة العثمانية لشيء إيجابي، ومن جهة أخرى يعتبر من العبقرية السياسية للعثمانيين في ذات الوقت، بل حجر الزاوية في إستراتيجية العلاقة العثمانية الأوربية[48]. وتتجلى هذه الإيجابية، فيما تمتعت به التجارة الفرنسية من حماية من لدن الأتراك، وذلك من

---

[44])ناديه محمود مرجع سابق، ص21 (نقلا عن: تلخيص التاريخ العثماني، تع: شاكر الحنبلي، المكتبة الهاشمية، القاهرة، 1331هـ، ص55.

[45]) Lavallée Théophile, Histoire de l'Empire Ottoman depuis les temps anciens jusqu'à nos jours, Garnier Frères Libraires, éditeurs Paris 1855, p 222.

46) روبير مانتران (إشراف)، تاريخ الدول العثمانية، ج1، تر: بشير السباعي، ج1، (Librairie Athéne Foyard باريس، 1989، ص 160.

47) Lavallée Théophile, ibid, p 220.

48) زاكري كارابل: أهل الكتاب التاريخ المنسي لعلاقة الإسلام بالغرب، تر: أحمد إيبش، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ص215.

خلال ما تحصل عليه تجار مرسيليا من امتيازات بدءا من عام 1507م، من قبل السلطان بايزيد الثاني، والتي ضاعفها ابنه السلطان سليم الأول بعده، ثم حدّدها من بعدهما السلطان سليمان المشرع عام 1528م، والذي استقوت به المملكة الفرنسية على غريمتها إسبانيا وعلى إثر هذا نشأت العلاقة العثمانية الفرنسية بصفة رسمية[49]. أما العبقرية العثمانية فتتمثل - في رأينا - في إحداث توازن بين القوة الأوروبية الممثلة في أسبانيا المعادية من جهة، وبينها هي من جهة أخرى.

تعود بداية العلاقات العثمانية الفرنسية إلى أيّام الصراع الفرنسي مع البلاط النمساوي، وكان فرانسوا الأول* يبحث عن حليف يتقوّى به، ويبدو وحسب الوضع القائم آنئذ، لا يوجد أفضل من الدولة العثمانية القوية، وتطبيقا لمقولة: "عدو عدوي صديق" فالدولة العثمانية عدوة النمسا، وبالتالي تكون فرنسا هي الأليق لذلك، ولتكون أول شريك مسيحي من أوربا للعثمانيين[50].

وللحصول على هذا المكسب قام الملك فرانسوا الأول بمحاولة سرية أولى عن علم الأوربيين وذلك على غرار ما فعلت ملكة انجلترا "إليزابيت الأولى" عندما اتصلت سرّا بزوجة السلطان مراد الأول على حد قول برنار لويس في كتابه استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ص ص178،173. فراسل الأستانة سنتي 1525م، 1531م، لربط علاقة مع الدولة العثمانية؛ ويبدو من خلال الفاصل الزمني بين المراسلتين الأولى والثانية التشبث والإصرار على صداقة العثمانيين، كما أنّ سريّة الاتصال تؤكد فهمنا وتفسيرنا السابق، لما كتبه "تيوفيل لافاليه"، وأوردناه في الصفحة 150 وتقييمه للمعاهدة.

---

49) مصطفى نادية محمود وآخرون: العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، ج1، (م.ع.ف.أ) القاهرة، ط، 1996، ص، 24 .

وانظر: (N. Malki, Bibliographie critique sur L'Histoire de l'Algérie, (xvi^{è} siècle à1830 t ii, cahier Maghrébin d'histoire , N. hors série, juin 1990,université d'Oran, p25.

*) فرانسوا الأول (1494-1547م) الملقب بأبي العلوم، محب للعلوم والعمائر، أسس المدرسة الملكية وأقرّ اللغة الفرنسية لغة رسمية بدل اللّاتينية، اعتنى بالرفاهية والآداب والأخلاق. (انظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق العربي، بيروت، ط37، 1998).

50) ثريا فاروقي، الدول العثمانية والعالم المحيط بها، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2008، ص ص، 248،249.

لقد أثمرت المحاولات الفرنسية سنة 1535م بمفاوضات بين فرنسا والدولة العثمانية وكلّلت بإبرام معاهدة تجارية* خلال فبراير 942هـ/1536م، وكانت نقطة تحول ومنعرج مميز في العلاقات العثمانية بالعالم الأوروبي[51].

وحققت الدولة الفرنسية بذلك مع السلطان سليمان المشرّع (Soliman le législateur) ما لم تحققه مع والده السلطان سليم الأول (1512م-1520م). إلا أن هناك من يحدد أول معاهدة (عهد نامه) بين الدولتين بسنة 1569، وما الاتفاقية الموقعة سنة 1535 إلا مجرد مشروع و لم يوقع عليه[52].

- أهمية المعاهدة:

كما أشرنا سالفا إلى أهمية المعاهدة العثمانية الفرنسية، والتي اعتبرت نقطة تحول وحدث مفصلي، في العلاقات الأوربية العثمانية. فناهيك عن ربطها بين عالمين متناقضين (مسيحي ومسلم)، فإنها حملت في محتواها ما يلي[53] :

- أن يكون لفرنسا سفير في الأستانة وقنصل في الإسكندرية .
- لا تزيد ضريبة التجار الفرنسيين من كل الضرائب لمدة عشر (10) سنوات من إقامتهم الأولى بالدولة العثمانية.
- قبول استعمال الشعوب الإنجليزية، والقطلونية، والصقلية والجنوية، والبرتغالية وغيرها استعمال السفن الفرنسية، وتحت الحماية الفرنسية.وهنا نلاحظ الإتحاد الأوربي المسبق.
- حرّية الممارسة الدينية للفرنسيين.

وبهذه العلاقة بين الدولتين والمعاهدة بين سليمان المشرع وفرانسوا الأول، استطاعت فرنسا التصدّي لاعتداءات شارل كان سنة 950هـ/1543م، كما طلبت المساعدة مرّة أخرى حينما أحست بغضب المسيحيين عنها، بسبب استعانتها بالعثمانيين (المسلمين) على شارلكان (المسيحي)[54]، وبواسطة خير الدين

---

*) اسم المعاهدة: " معاهدة الصداقة والتجارة الفرنسية"، وقد سبقتها منحة المماليك والسلطان محمد الفاتح للتجار الغربيين تسهيلات كثيرة تعود إلى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد.

[51]) نادية محمود مصطفى وآخرون: العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ط1، 1997، ص 27 . و(تيوفيل لفاليه، ص، 230). وانظر:Jean Marie carré، رحالة وكتاب فرنسيون في مصر T4e (1517م-1840م)، القاهرة، ص ص10).

52) أنطوان الحكيّم ، الحماية الفرنسية للأقليات غير المسلمة في السلطنة العثمانية، مجموعة باحثين، الأقليات والقوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516، منشورات الجمعية التاريخية اللبنانية، الفنار، لبنان 2001، ص 38.

[53]) دوسون مرادجه (D'ohsson.M)، سفير دولة أسوج في الأستانة (ت1807): نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في مرجع سابق.

[54]) الميرالاي إسماعيل سرهنك،مرجع سابق ، ص 92،93.

بربروس وأسطوله[55]. استمرت العلاقة العثمانية الفرنسية لتتعزّز بمعاهدة تجارية ودينية عام 1538م، وبموجبها أصبح لفرنسا الحق في حماية الأماكن المقدسة بفلسطين؛ وقد تمت بين السلطان سليمان المشرع والسفير الفرنسي "لافورست" باستانبول[56].

فإذا كان هدف فرنسا من علاقاتها مع الدولة العثمانية هو الإستقواء على خصومها الأوربيين ومنهم النمسا، وإذا كان إبرام هذه المعاهدة هو الحصول على امتيازات من دولة عظمى كالدولة العثمانية آنذاك، والتي هي الأخرى قد حقّقت هدفا أكبر بكثير مما حققته فرنسا، ألا وهو منع أوربا من التكتل مجتمعةَ ضدها، وهوّ ما أشرنا إليه سابقا بالعبقريّة العثمانية سيّاسيّا ، وبذلك تجنبت أيّ عدوان عليها؛ وهذا ما رأته وتوخته الدولة العثمانية في تحالفها مع فرنسا، التي كانت أكثر الدول الأوربية تقربًا من المشرق العربي، وذلك منذ عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد وشارلمان.

وإذا ما حاولنا تقييم نتائج العلاقة العثمانية الفرنسية، فإننا نجدها إيجابية خاصة لفرنسا، وذلك من خلال تأمين سواحل فرنسا الجنوبية من الاعتداءات الأسبانية و الجنوية، وذلك بفضل الأسطول العثماني[57] (الجزائري) بقيادة خير الدين بربروس، وذلك بتاريخ 20 جويلية 1543م[58].

لكن عدم دخول جمهورية البندقية في هذا التحالف ومعاداتها لهما بالإضافة إلى عدم تقبل الرأي العام المسيحي هذا التقارب الإسلامي المسيحي، أدى إلى تراجع ملك فرنسا خشية تهمة المروق عن المسيحية وبالتالي فشل هذا الاتحاد[59].

كما أثارت تلك المعاهدة تنافسا كبيرًا بين إنجلترا وإسبانيا للظفر باتفاق مع الدولة العلية على غرار مملكة فرنسا[60]. أما من ناحية الدولة العثمانية فقد كانت أكثر إجحافا في حق العثمانيين خاصة البنود (4،5،6،7)[61] من المعاهدة.

---

[55]) رفاعة رافع الطهطاوي: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 2010، ص214، ص 218 .

[56]) Soheil Kash : L'un et multiple dans l'Empire Ottoman, minorités et nationalités dans l'empire ottoman après 1516, par groupe de chercheurs s'appartenant d'histoire de faculté des lettres et sciences humaines de l'université libanaise, Liban, 2011, P 43.

[57]) انظر الملحقبعنوان "مساعدة الأسطول العثماني لفرنسا" رقم 14.

[58]) Hervé Michel, les débuts de la régence d'Alger de 1518 a 1566, carbet numérique, Paris, 2005, P P114, 84.

59) محمد فريد بك ، مرجع سابق، ص 234.

2: العلاقة العثمانية البندقية.

تعتبر العلاقة العثمانية مع البنادقة من أقدم العلاقات العثمانية الأوربية،[62] حيث ترجع جذورها إلى ما قبل القرن الخامس عشر، وبالضبط إلى عهد السلطان محمد الفاتح. حيث لما أراد فتح القسطنطينية كان لابد عليه من تكسير الجبهة الأوربية المتحالفة وشق صفّها، وبالتالي يولّد من شقها ضُعفًا، ويكسب من ضُعفها قوة. ومن أجل ذلك استغل الصراعات القائمة بين البنادقة والنابوليّين والجنويّين في إيطاليا، وأعطى امتيازات تجارية للبنادقة والجنوبيين، حسب ما ذكره المفكّر التركي "صالح كولن بقوله: « وبفضل هذه العبقريّة السياسية وقفوا إلى جانبه عند فتح للقسطنطينية عام 1453م[63]». غير أن هذه العلاقة وهذه الامتيازات التجارية التي أوردها "صالح كولن" لم يبيّن لنا سبب إنشائها، أو مناسبة وقوعها، وكيف تمت؟ هل بناء على معاهدة دبلوماسية مكتوبة؟ أم نتيجة نهاية حرب بين الدولتين ؟ غير أنّ الحقيقة المؤكدة هي كونها جاءت تتويجًا لستة عشر سنة من الحرب والتي تمت عام (873هـ/1470م)[64].

أما بعد فتح القسطنطينية وبالضبط عام 1454م، فقد سمح السلطان محمد الفاتح للبنادقة بإرسال باليوس* إلى استانبول بصفة دائمة، مع منح امتيازات تجارية وجمركية لهم، بذلك أصبحت البندقية مرتبطة بالدولة العثمانية عبر معاهدة تجارية وبواسطة سفيرها** المقيم باستانبول، ومن بين ما نصّت عليه المعاهدة هو: "عدم تقديم أي دولة مساعدات أو حماية لدولة أخرى معادية للدولة الثانية مع التخلي عن إسكندر وكرويا (Croya) ودفع مبلغ قدره (100.000) ذهب وجزية سنوية قدرها (10.000) ذهب"[65].

وفي عام 1499م ودعت الدولتان القرن الخامس عشر بحرب بينهما، وكذلك الشكاوي المتبادلة بينهما حول القرصنة من قبل الدولة العثمانية وسوء معاملة الرعايا العثمانيين من طرف البنادقة. رغم ماسبق ذكره

---

[60])مصطفى أحمد عبد الرحيم،مرجع سابق ص95، ها(1).

[61]) قيس جواد العزّاوي، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الدار العربية للعوم، بيروت، ط2، 2003، ص19.

[62]) Lavallée Théophile ,ibid, p232.

و(أنظر: خ إنالجيك، التاريخ الاقتصادي، ...مرجع سابق مج1، ص 65).

[64]) الميرالاي إسماعيل س، مرجع سابق، ص 52.

*) باليّوس: مصطلح جرى على الألسن خلال العصور العثمانية للدلالة على السفير البندقي في استانبول.

**) السفير البندقي المقيم "بارتلمي مارتشيللو Bartholomé Marcello وهو أول سفير في استانبول.

[65]) دوسون مرادجه، مرجع سابق، ص، ص 202،200.

فإنّ مع مطلع القرن السادس عشر أصبح للبندقية قنصلا دائمًا بإستانبول، وهو "أندريا جريتي بايل" لتتميّز العشرية الأولى من ذاك القرن بالعلاقات الطّيبة والودّية[66].

أمّا في عهد السلطان سليم الأول فقد ابتدأت العلاقة بين البلدين بإبرام اتفاقية عثمانية-بندقية عام 1517م، لتكون ضمانًا لاستمرار الامتيازات التي تحصل عليها البنادقة خلال عهد المماليك، واستمر الحال إلى أن جاء عهد السلطان سليمان المشرع الذي أبرم معاهدة أخرى مع البنادقة عام 1521م، والتي جُدِّدت عام 1534م[67]. ثم أضيفت اتفاقية سلام أخرى بينهما، وتمت عام 1540م، وبموجبها منح السلطان العثماني عهد أمان (Capitulation) مميز للبنادقة[68]. ويلخص الكاتب تيوفيل لافاليه Lavallé Théophile سنوات السلم بين الدولة العثمانية والبندقية بخمسة وثلاثين سنة[69]. وحسب تقديرنا فإن هذا النوع من العلاقات الودّية بين الطرفين قد فرضه تعادل موازين القوى خاصّة البحريّة، وهوّ انعكاس للتّواجد العثماني والحضور القوي، بالبحر الأبيض المتوسط.

لكن فيما بعد عرفت العلاقة بينهما تدهورًا كبيرًا، وتحولت إلى صدامات عسكرية،[70] واستغلت البندقية في عدائها للدولة العثمانية كل الوسائل، مثل الوجود العثماني بشبه جزيرة المورة، فقامت بتأليب رأي سكان جنوب البلقان على السلطة العثمانية وتهييج الثورات الداخلية .[71] وهكذا نلاحظ التّذبذب وعدم الاستقرار في العلاقات بين الدولة العثمانية ودولة البندقية.

3: العلاقة العثمانية الروسية.

منذ أمد طويل كانت روسيا تنظر إلى الدولة العثمانية نظرة غير ودية، بل نظرة مصلحيه صريحة، ويتضح هذا من خلال حاجة روسيا الحيوية لمضيقي البوسفور والدردنيل، اللذان تحتاجهما لمصالحها السياسية والعسكرية والتجارية بالإضافة إلى موانئ البحر الأسود. فمن الناحية السياسية تعتبر الدولة العثمانية دولة عظمى. وبموقعها الجغرافي وحضورها السياسي حجبتها عن المسرح العالمي.

---

[66]) روبير منتران، مرجع سابق ص ص 160،161. و(انظر معجم التاريخ الإسلامي، جانين وسورديل، ص 510).

[67]) علي أحمد صلاح هريدي، تاريخ مصر الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر 2012، ص 242 . و(انظر: الشنّاوي، العثمانيّون من قيام الدولة ...مرجع سابق، ص 169).

[68]) روبير منتران، ج1، المرجع السابق، ص227.

[69]) Lavallée, Théophille ,ibid, p 233.

[70]) روبير منتران، المرجع السابق، ج2، ص 361.

[71]) الميرالآي إسماعيل، مرجع سابق ، ص 51.

أمّا من الناحية الدينية فإن المذهب الأرثوذكسي بالمشرق العربي والبلقان كان مرتكزًا وسببًا لروسيا، بأن تحاول التدخل في الشؤون الداخلية، وتثير التعصب الديني، وإضعاف الانتماء والارتباط بالدولة العثمانية. ولا يقل الجانب الاقتصادي أهمية عن الجانبين السياسي والديني، والذي يتمثل في ما تفرضه الدولة العثمانية من رسوم على البواخر الروسية، ومصادرة بعض السلع التي تحتاجها والعابرة عبر مضايقها[72]. ومن خلال ما سبق، فإنّه يفهم من أنّ التذرع الديني لروسيا من أجل التدخل والعبث في داخل الدولة العثمانية، من شأنه التشجيع على ظهور المناوئين للسلطة العثمانية.

- **جذور العلاقة.**

بدأت العلاقات العثمانية الروسية منذ افتكاك العثمانيين مدينة كافا* من يد الجنويين عام 1475م وسيطرتهم على التجارة مع مدن الشمال بدل الجنويّين، فنشطت التجارة العثمانية الروسية**. وفي أواخر القرن الخامس عشر حدث تقارب كبير بين بايزيد الثاني والأمير ايفان الثالث***، وقد تجسد هذا التقارب الكبير عندما وقف السلطان العثماني "بايزيد الثاني" داعمًا خان القرم "مانغلي جيراي" ضد أعدائه، وبهذا الدعم، توطدت العلاقة أكثر بين استانبول وموسكو. ووطدتها السلع العثمانية الصادرة من مدينة "بورصة"العثمانية، و كذلك البضائع القادمة من أوربا نحو الروسيا.

وما يدل على ذلك السعي والاتصال بين الدولتين هو بعثة "ايفان الثالث" إلى حكام مدينة أزوف العثمانيين لإقامة علاقات صداقة، ومساعي خان القرم لدى السلطان العثماني لانتزاع امتيازات تجارية لروسيا عام 1495م، وكذلك رسالة الأمير "ايفان الثالث" بتاريخ 31 أغسطس 1492م. وفحواها العلاقات التجارية والامتيازات[73]. ورغم كل ما تقدم فإن العلاقة بين الدولة العثمانية ودوقية موسكو* لم ترق إلى علاقة

---

[72]) خضر خضر، تطور العلاقات الدولية من الثورة الفرنسية وحتى بداية الحرب العالمية الأولى (1789م/1914م)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، (د.ط)، 1998، ص187.

*) كافا: مدينة ساحلية ومرفأ نشيط على البحر الأسود ومركز عبور للسلع بين أوربا وموسكو.

**) كانت روسيا خلال القرن الخامس عشر تسمى: دوقية موسكوفي الكبرى.

***) إيفان الثالث: أمير موسكو وروسيا 1462م/1505م ، هزم التتار ووضع أسس الدولة المركزية (أنظر: منجد اللغة والأعلام، دار الشروق، بيروت، ط37، 1998.

[73]) خليل إنالجيك: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، مج 2، تر: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، ص408،409.

*) دوقية موسكو: اسم مقاطعة جغرافي يقابل الإمارة الكبيرة (انظر: يلماز أوزتونا، المدخل إلى التاريخ التركي، تر: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، ط1، 2005، ص317).

مباشرة مع الباب العالي. بل كانت تتم عبر وساطة خان القرم ثم تطورت إلى علاقة صداقة إلى أواخر عهد السلطان بايزيد الثاني (1512م)، حيث اتّسمت بتبادل السفراء والهدايا[74].

-تغيّر طبيعة العلاقة.

مع بدايات القرن السادس عشر، استمرت العلاقة التجارية العثمانية الموسكوفية (الروسية)، لكنها تأثرت سلبًا بتغير علاقة القرم بموسكوفيّة (روسيا)، وإرساله سفيرًا إلى موسكو، وعرضه صداقة الدولة العثمانية، غير أن تلك المساعي لم يكتب لها النجاح، حيث تحولت العلاقة التجارية والدبلوماسية إلى عداء والتي استمرت إلى غاية وفاته واعتلاء الأمير سليمان عرش السلطنة[75].

اعتلى السلطان الجديد عرش الدولة العثمانية، وكان من المأمول تغير العلاقة العثمانية الروسية إلى الأحسن، لكن العكس هو الذي حدث، إذ أنّ السلطان كان أكثر صرامة من سلفه، وازدادت العلاقة تأزُّما خاصة بعدما علم بتخطيطات روسيا، عن طريق حاكم القرم[76]. وهي إحدى الإمارات التابعة للدولة العثمانية مثل: الأفلاق والبغدان وأردل وكريم[77]. واتّضحت من خلال التدخلات الروسية في المناطق الإسلامية السنية الواقعة شمال الدولة الصفوية وجنوب روسيا (منطقة القفقاس)، بعدما تقرّب الشاه الصفوي "طهماسب" من الأمير "ايفان الكبير" أمير روسيا، واستمالته إليه ثم حرضته على استعداء الدولة العثمانية ومحاربتها[78]، وهكذا تحوّلت العلاقة إلى عداوة واستمرّت حتّى إلى ما بعد عهد السلطان سليمان المشرع (1520م/1566م).

4: العلاقة العثمانية النمساوية.

لقد تحدّدت طبيعة العلاقة العثمانية النمساوية بناء على علاقتيهما بالمجر، حيث حدث نزاع بين ملك النمسا* فرديناند، أخ شارل كان الشهير وبين "جان زابولي" أمير ترانسلفانيا الذي نصّبه السلطان المشرع على بلاد المجر عام 1527م. وتجسّد ذلك في 29 من شهر فبراير 1529م عبر معاهدة ناصرت فيها الدولة العثمانية المجر على حساب النمسا. وهذا ما أجّج العداء بينهما والذي مورس من خلال حملة السلطان العثماني

---

[74]) محمد فريد بك ، مرجع سابق، ص 13 .

[75]) إنالجيك: المرجع السابق، ص410.

[76]) نفسه، ص410.

[77]) نفسه، مج2، ص22.

6) أحمد سالم سالم علي،مرجع سابق، صذ 238.

*) النمسا باللغة التركية Nemçe وهي محرفة من كلمة Neymats السلافية، وتعني الأخرس (أنظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة فهد الوطنية، الرياض، 2000).

**)بودا: مدينة مجرية تقع على ضفّة الوادي وتأسّست على الضفّة المقابلة مدينة جديدة تسمّى"بشتة"وأصبحت المدينتان فيما بعد مدينة واحدة، هي:"بودابست".(انظر: أوزتونا، موسوعة تا. الأمبراطورية العثمانية، ج4 ، مرجع سابق، ص 686.

ومحاصرته مدينة بودا** المجرية المحتلة من قبل النمسا، بتاريخ 13 أيلول/سبتمبر 1529م، ثم هاجمها في الشهر الموالي. ولا يهمنا كيف آلت المعركة بقدر ما يهمنا استمرار العداء، وتجدد الصدام العسكري بين الدولتين (النمسا والدولة العثمانية)، خلال ربيع 1531م.

لكن في سنة 1533م حاولت النمسا الصلح مع الدولة العثمانية للمرة الثانية إذ أرسل أرشيدوق النمسا "فرديناند" سفارة إلى الباب العالي، بقيادة "جيروم دي زار"؛غير أنّ هذا المسعى باء بالفشل، بسبب رفض السلطان العثماني الصلح، مبديّا وقبوله بالهدنة ، وهذا يدل حسب تقديرنا على الشعور بالتفوق وبالتالي التّفاوض من مركز القوة من قبل السلطان العثماني، فهو يقبل باستراحة محارب ولا يرض بغمد سيفه.

استمر الحال هكذا بين الدولتين إلى غاية إبرام أول معاهدة بينهما في الأستانة عام 1544م وهي هدنة كما اشترطها السلطان العثماني ولمدة سنتين ثم مددت لخمس سنوات أي لغاية 1548م مقابل جزية سنوية قدرت بثلاثين ألف (30000) ذهب[79]، وبقيت الأوضاع بينهما لا حرب ولا سلم.

واستمر الحال كما هوّ بين الطرفين من نهاية عهد السلطان سليمان (1520م /1566م) ، ثم امتدت إلى بدايات القرن السابع عشر حيث[80] تم عقد معاهدة بين الأرشدوق النمساوي دودولف الثاني والسلطان العثماني أحمد الأول (1603م-1617م) ولمدة عشرين (20) سنة[81].

5: العلاقة العثمانية البابوية .

إن الحروب والحملات العسكرية المتتالية خلال القرون الوسطى بين العالم الغربي المسيحي والعالم الإسلامي لا تزال تُذكر بشيء من المرارة والمتعة أحيانا، والتي أججت نارها قوى ورؤية مسيحية حاقدة، وقد كانت المؤسسة البابوية، La papauté هي المحرك والمحرض، وهذا نظرا لما للكنيسة وللبابا من مكانة في المجتمع الأوربي، وتأثيرهما عليه وعلى سياسته.

إن العداء الضّامر من قبل "البابا" وكنيسته للدولة الإسلامية ما يفتأ أن يظهر كلما سنحت الفرصة. ولذلك نجد البابا إينوسنت الثامن قام بحملة عامّة وتعبئة الرأي المسيحي ضد الأتراك، مستغلا نقل اللاّجئ

[79]) دوسون مرادجه،مرجع سابق، ص205.
[80]) صالح كولن،مرجع سابق، ص149.
[81]) دوسون مرادجه،المرجع السابق، ص205.

المعارض الأمير "جم"* إلى روما في مارس 1489م وتأهّب في ربيع نفس السنة لشن حملة صليبية، غير أن مشروعة العدواني أُبْطل بسبب موت ملك المجر بتاريخ 1489/04/06[82].

ونظرا لهذا الوضع قام السلطان العثماني بعملية استباقية تمثلت في تكليف السفير العثماني بعقد اتّفاق سريّ بروما بتاريخ 1489/11/30م، وقد نصّ على:"تعهد الباب العالي" بموجبه يتمّ تسليم معاش الأمير "جم" للبابا. وعدم الهجوم على أيٍّ من روما أو جزيرة رودس أو البندقية[83]. واستطاع الباب العالي تفويت الفرصة على المتربصّين بالدّولة العثمانية، والمتّخذين من قضيّة الأمير "جم" ورقة ابتزاز وعصا في أيديهم ترفع أنّى شاءوا .

6: العلاقات العثمانيّة الهولنديّة.

تعود العلاقات بين العثمانيين والهولنديين إلى وقت بعيد، حيث يرجعها خليل إنالجيك إلى بدايات القرن الخامس عشر وكان سبب بدئها رجلا يدعى "جوزيف ناسي" الذي استخدمه السلطان سليمان المشرع في العمل المصرفي على اعتبار أنّه متخصّصا ، والذي صار فيما بعد مستشارًا رئيسًا للباب العالي[84].

وقد تمثلت العلاقة بين الدولتين حسب خليل إنالجيك، في التسهيلات التجارية، والتي تمثلت في السماح للهولنديين، جلب البضائع، وكذلك تحميلها إلى مرافئ البحر الأسود؛ مثل: طرابزون، وكافا، ومن دمياط، إلى الإسكندرية[85]. ويبدو أن حسادًا كثيرون لهولندا، وقد بدا بغضهم للعلاقة الطيبة بينها وبين الباب العالي من الدول الأوربية المنافسة لهولندا، وهذا ما تجلى في التقرير السري الذي صدر عن الدول المنافسة. وبلغ يد السلطان العثماني ضدّ الهولنديّين، محاولة تعكير الجو بينهما، و جاء فيما معناه: «...وأنّ صادرات هولندا من توابل وأقمشة وزيوت يمكنها إلحاق الأذى بالاقتصاد العثماني»[86].لكن كل ذلك لم يؤثر في العلاقة بين الدولتين، والتي ستتوج فيما بعد بمعاهدة صداقة وتعاون.

---

*) توفي الأمير "جُم "المعارض للسلطة العثمانية بنابولي ونقل جثمانه إلى بلاده في مايو 1499م وبوفاته أُسقطت ورقة الابتزاز الأوربي.

[82]) ر .منتران،مرجع سابق، ص159.

[83]) نفسه، ص159.

[84]) خ. إنالجيك، مرجع سابق، ص530.

[85]) نفسه، ص534.

[86]) المرجع السابق، ص 532.

7: العلاقة العثمانية البرتغاليّة*.

قبل الخوض في طبيعة العلاقة بين العثمانيين والبرتغاليين خلال عهد السلطانين سليم الأول ومن بعده سليمان المشرع، نود الإشارة إلى أن هدف البرتغاليين هو نشر الدين المسيحي بآسيا، ومنافسة المسلمين تجاريا[87].

وبالرغم من عدم وجود أي اتّصال بين عاصمتي الدولتين - حسب إطلاعنا- إلاّ أن الاحتكاك بينهما موجود إلى درجة التنافس بل وحتّى التصادم بين قوتيهما البحريتين.

إن مطلع القرن السادس عشر كان انطلاقة البرتغاليين خارج أوربا، وبداية سيطرتهم على البحار بقوتهم البحرية المتنامية. واكتشافهم للمسار البحري الجنوبي، والموصل إلى البحر الأحمر، وإلى الشرق الأقصى وتوابله.كما كانت نفس الفترة تمثّل المرحلة الثانية، من مراحل التمدّد العثماني عبر بلدان المشرق العربي، وبالتالي التواجد عبر المياه العربية (البحر الأحمر، الخليج العربي الفارسي، وبحر العرب)؛ ومن ثمة فإن حتمية تصادم الطرفين من حتمية التقاء المصالح. فالبرتغاليون المسيحيون يهدفون إلى إقامة محطات بحرية، والحصول على موارد اقتصادية خاصة بالمشرق والسيطرة على الطرق البحرية التي كانت تحت السيطرة الإسلامية، هم بذلك يحاولون جاهدين منافسة الأسبان. والعثمانيون الذين كانوا يهدفون إلى التواجد ببلدان المشرق العربي وحماية البقاع المقدسة المهددة من قبل البرتغاليين[88]. وأمست كل قوة منهما تبحث عن احتلال المواقع الإستراتيجية لملاحتها وتجارتها، وتواجدها. أما مجالات التنافس والصراع، ففي البداية ومع بداية التواجد العثماني بالمشرق العربي، فقد كان مسرحه البحر الأحمر، وباب المندب .

أمّا بعد التواجد العثماني بالعراق وبالخصوص بعد ضم البصرة عام 951هـ/1546م فقد تحول مسرح الصراع إلى الخليج العربي الفارسي. ومن بين ما قام به البرتغاليون هو هجومهم على العثمانيين بالخليج سنة 1546م، مغتنمين فرصة طلب بعض أمراء القبائل المحليين التدخل العثماني.[89] وقد أشرنا إلى هذا في مبحث التواجد العثماني بالخليج (الأحساء).

لقد حاول العثمانيون تحويل التباعد والعداوة اللذان ميّزا العلاقة بينهم وبين البرتغاليين إلى سلام و تقارب، وذلك بعد ضم البصرة إلى إمبراطوريتهم؛ والهدف من ذلك هو ما استدعته الضرورات الاقتصادية

---

*) البرتغال دولة نشأت منذ القرن 16م، وتنطق باللسان التركي برتكيز Portekiz. (أنظر: سهيل صابان، مرجع سابق).

[87]) صالح أوزبران، مرجع سابق، ص 55 .

[88]) المرجع نفسه، ص55 وما بعدها .

[89]) محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية، دار النفائس، بيروت، ط1، 2007، ص 230.

وبالخصوص الأهمية التجارية عبر الخليج العربي الفارسي*. ومن خطوات التقارب التي بادر بها العثمانيون هي إرسالهم رسولا** إلى الحاكم البرتغالي (ممثل الملك) مانويل دي ليما (Manuel de Lima) بهرمز والذي بدوره كتب تقريرًا إلى حاكم الهند عن الوضع السائد في كل من الحسا وحصن القطيف وكذلك عن نيّة وتحركات العثمانيين بالمنطقة. وهذا هو النّص بلغته الأصليّة (البرتغاليّة) .(نقلا عن: صالح أزبران:" الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي1524\1581م".

«A sete de Julho vico o seu embaixador com hua carta para mim o qual embaixador ne hum arabio mercador que se chama hagy Fayat. A determinacao de ayaz baxa era Fazer Baçora muito pespera de marcador»[90].

« إنّ إياس باشا الموظف العثماني الرئيسي في العراق مصمم على أن يجعل البصرة مرتعا أو مركزًا مربحًا للتجار. وفي الوقت ذاته، فإنّ العثمانيين جدّوا إلى أن يوطّدوا أنفسهم على سواحل الخليج العربي ».

أما عن رسول الحاكم العثماني "بلال محمد باشا" فقد حمل رسالة محتواها يتضمن نوايا السلطة العثمانية في العراق. وبالتالي طي صفحة الماضي[91]. وبالمقابل فقد أرسل نائب الملك المقيم بالهند كاندي دي روموندو (Cande de Remondo) رسولاً إلى الباب العالي يدعى انطونيو تكسيرا (Antonio Teixeira)، وتقابل مع السلطان العثماني، ويبدو حسب خليل محمود محمد فإنّ البرتغاليين كانوا في حاجة إلى سلام مثلما يحتاجه العثمانيون إلى تأمين الطرق التجارية مع تحفيز المرسول البرتغالي على فوائد استجابة الملك البرتغالي لعرض السلطان العثماني؛ وما ينشأ عن ذلك من علاقات صداقة بين القوتين (البرتغالية والعثمانية)[92].

لكن ورغم هذه المبادرة العثمانية فإنّ البرتغاليين لم يستجيبوا لها وحجتهم في ذلك تواجد العثمانيين في الخليج الذي رأوا فيه تهديدًا لمصالحهم[93].كحجّة البنادقة على تواجد العثمانيّين بشبه جزيرة المورة اليونانية

---

*) "العربي الفارسي" صياغة مركبة من عندنا وذلك إيمانا منّا بالحق المشترك للشعبين العربي والفارسي في الخليج مع علمنا أن الجغرافية الطبيعية سابقة على التاريخ البشري (الإنساني).

**) الرسول هو، أحد التجار الكبار ويدعى حاج فياض.

[90]) أوزبران، مرجع سابق، ص ص 32،34.

[91]) المرجع نفسه، ص32.

[92]) خليل محمود محمد، عرب البحرين...، مرجع سابق ص55.

[93]) أوزبران، المرجع السابق، ص39.

تاريخاً. ولذلك استمر التوتر بين الطرفين؛ مما أسفر عن صدامات بين القوتين، في مياه المحيط؛كالصدام الذي وقع في شهر شباط/فبراير 1565م، ثم في عام 1566م، وهو العام الذي توفي فيه السلطان سليمان المشرع تاركا العلاقات العثمانية البرتغالية متوترة[94].

8: العلاقات العثمانية الأسبانية.

لم ترتبط الدولة العثمانية بعلاقة مع دولة إسبانيا إلاّ خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر وبالضبط عام 1578م، حيث عقدت معاهدة بين الدولتين حضرها ووقّعها السفير الأسباني بالأستانة وذلك بعد مفاوضات عسيرة [95]. ويبدو من خلال البحث الذي قدمه عبد الرحيم بن حادة الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط الذي انعقد بمراكش أيام 24، 25 مايو 2002م تحت عنوان السفر في العالم العربي الإسلامي" حيث يشير إلى نوع العلاقة العثمانية الإسبانية المضطربة فيقول: « ارتبطت الدولة العثمانية والمغرب بإسبانيا بعلاقات متراوحة بين القطيعة والتقارب الدبلوماسي، فبالنسبة للعلاقة العثمانية الأسبانية فقد تميزت بالفتور تارة والمواجهة تارة أخرى، ومنذ عقد اتفاقية الهدنة التي إبرامها السفير الإسباني بالأستانة في مطلع القرن السادس عشر، حاولت إسبانيا أن تتقرب من الدولة العثمانية، وقد ترجمت هذه النزعة في عدة مناسبات »[96].

وممّا تقدم يفهم من أن الفترة السّابقة لسنة 1578م تميزت بعدم ارتباط البلدين بأي علاقة صداقة أو ود، بل كانت علاقة عداء ، خاصة وأن فرنسا عدوة أسبانيا كانت مرتبطة بعلاقة حميمية وتحالف مع الدولة العثمانية كما سبق وأن ذكرنا. غير أنّ ما تجدر الإشارة إليه أنّه وبالرّغم من العداوة بينهما والتّحالف الصّريح بين الدّولة العثمانيّة ومملكة فرنسا (عدوّة اسبانيا) فإنّ هذه الأخيرة لم تتدخّل في شؤونها الدّاخليّة .

9: العلاقة العثمانية الإنجليزية.

رغم المكانة التي تحتلها الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر على المستوى الدولي عموما وعلى المستوى الأوربي على وجه الخصوص وبالرغم التسابق الذي كان يسود كثير من الدول الأوربية من أجل ربط

---

[94]) خليل محمود محمد، المرجع السابق، ص65.

[95]) Braudel, Fernand, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, librairie Colin, Paris, 2éme éd. 1966, P 432.

[96]) عبد الرحيم بن حادة، سفيران مسلمان في مدريد (مقال) في كتاب: السفر في العالم العربي الإسلامي التواصل والحداثة، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط1، 2003، ص47.

علاقات مع الدّولة العثمانيّة ، رهبة ورغبة[97]، إلاّ أن العلاقة الانجليزية العثمانية بقيت معظم مدة القرن السادس عشر (16م) غير موصولة، رغم المحاولات (السرية) التي قامت بها الملكة "إليزابيت الأولى"كما أشرنا سلفا في حديثنا عن العلاقة العثمانية الفرنسية.

لكن رغم ذلك لم تعدم الساحة الدبلوماسية بعض المحاولات في إيجاد علاقة ما مع الدولة العثمانية من الجانب الإنجليزي، وهذا يتضح من خلال محاولة أخرى قام بها"أنطوني جنكنسن"Antho Jenkinson"

و الذي حاول أن ينال حظوة مقابلة السلطان سليمان المشرع (1520م-1566م)، وربما لم تكن هي المحاولة الوحيدة -ما دام الأمر يتعلق بمقابلة السلطان العثماني-.حيث يذكر المؤرخ علي أحمد صلاح هريدي في كتابه تاريخ مصر الحديث والمعاصر أن السيّد "أنطوني جنكنسن" استطاع الظفر بمقابلة السلطان سليمان المشرع بمدينة حلب، وخلال ذلك تمكن من الحصول على موافقة السلطان العثماني على السماح للتجّار الإنجليز بالاتّجار داخل الممتلكات العثمانية.

لكن يضيف نفس المؤرخ بأن هذا الامتياز لم يفتح بابه و لم يستفد منه الإنجليز إلاّ بعد زوال عهد السلطان سليمان المشرع، أي لم يتحقق ذلك الامتياز إلا سنة 1581م[98]، وهذا ما يؤكده برنارد لويس (Bernard Lewis) كذلك حيث حاولت انجلترا تكوين علاقة مع الدولة العثمانية وفشلت في ذلك، إلى غاية عهد السلطان مراد الثالث (1582م)؛ أين تجسدت بعد المحاولات العديدة ومنها الاتصالات السرية للملكة إليزابيث الأولى* بزوجة السلطان العثماني "مراد" مع إرسال الهدايا من أجل تليين الموقف العثماني[99]. وهكذا فبالرغم من كون انجلترا دولة أوربية بامتياز، إلاّ أنها لم تحظ بعلاقة مع الدولة العثمانية خلال أهم فترة من فترات القوة العثمانية (1512م/1566م).

10: العلاقة العثمانيّة البولنديّة.

بالرغم من عدم الاستقرار الذي ساد العلاقة البولندية العثمانية أواخر القرن الخامس عشر، إلا أن السلام كان هو الميزة الغالبة والنهائية فيما بينهما، على الأقل مع مطلع القرن السادس عشر. فيبدو أن ملك بولندا "جان ألبيرت" قد كان في حاجة إلى سلام مع الإمبراطورية العثمانية، فبالإضافة إلى العلاقة السلمية التي

---

[97]) صالح كولن، مرجع سابق، ص59.

[98]) علي أحمد صلاح هريدي،مرجع سابق، ص242.

*) إليزابيث الأولى (Elisabeth 1) (1533م/1603م) ابنة هنري الثامن ملكة انجلترا سنة 1558. (انظر: المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ط29، 1986 ص 66).

[99]) برنارد لويس، استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية، تعريب: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1982، ص 173، 178.

تربطه بالدولة العثمانية أيام السلطان بايزيد الثاني من خلال معاهدة عام 1490م، قام بتجديدها لمدة ثلاثة سنوات (03) عام 1493م. لم تدم هذه العلاقة السلمية ، بحيث لما هاجم ملك بولندا ملدافيا ودخلها بقواته، فما كان من أميرها "ستيفان" إلا أن يطلب العون والمساعدة من السلطان العثماني، فأرسل هذا الأخير عن طريق البحر مساعداته المتمثلة في عدة حملات مدمرة لبولندا وأهمها حملة عام 1498م، وعلى إثر ذلك طلب ملك بولندا الصلح مع الإمبراطورية العثمانية، لتكون العلاقة بينهما علاقة سلام مع مطلع القرن السادس عشر[100].

خلاصة الفصل الرابع :

من خلال استعراضنا للعلاقات العثمانية الخارجية، توصّلنا إلى أن هذه العلاقات كان لها تأثيرا على الإمبراطورية العثمانية، وحتّى وإن لم يكن تأثيرها ظاهريّا، فإنّه ولاشك تأثير غير مباشر وذلك على المستوى العسكري والدّبلوماسي؛ غير أن ما يعنينا منه هو ذاك التأثير الذي له علاقة بالحركات الدّاخلية المناوئة للباب العالي. والنّاتج عن تلك العلاقات؛ التي لاحظنا تباينا في تأثيرها على الأوضاع الدّاخلية، وفي هذا الصّدد وقفنا على نوعين مختلفتين من علاقات الدولة العثمانية الخارجية.

- العلاقات العثمانية مع بلدان الشرق (دولة المماليك والدولة الصفوية)، والتي تميزت خلال نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالتوتر والعداء. وتسبّبت في التحريض وتشجيع المناوئين و التدخل المباشر كاستقبال المنشقّين عن الباب العالي. مثلما فعل الشّاه إسماعيل وبمنطقة الأناضول قبل التّواجد العثماني بالمشرق العربي. ونفس الشّيء بالنّسب لدولة المماليك، التي آوت واحتضنت الأمير "جم" الذي أصبح ورقة ضغط وتدخّل فيما بعد.

- أما بالنسبة للعلاقات العثمانية الأوربية عموما والتي تميزت في عمومها بالعدائية، نظرا للرّوح الصّليبيّة المتغلغلة والاتفاق الضمني على محاربة العثمانيين؛ ويبرز ذلك بشكل جلي عندما تسوء العلاقة، ولذلك كانت في عمومها تبحث عن أي ذريعة للتّدخّل في الشّؤون الدّاخلية للدّولة العثمانية، وبالتّذرع بأي حجة ومنها: تدخل فرسان القدّيس يوحنّا من جزيرة "رودس"وتقديمهم يد المساعدة للثّائر"جان بردي الغزالي".كذلك التّدخّل البرتغالي ومساندته لـــــ"آل طاهر"باليمن، خلال حركتهم المناوئة للسلطة العثمانية المحلية، والتي اندلعت على إثر إعدام أحد الزّعماء اليمنيّين والحال كذلك بالنّسبة للبنادقة الذين هيّجوا أهل البلقان، ضدّ الدولة العثمانية، والتي استخدم فيها كوسيلة ضغط على الباب العالي. في حين نسجّل تميز العلاقة الفرنسية العثمانية التي تميّزت بالود إلى درجة التّحالف. ويبدو أنّ معاهدة الامتياز التي أحرزتها المملكة الفرنسية

1) روبير مانتران، ج1، مرجع سابق، ص 160.

و المبرة سنة 1536م. وهكذا يبقى الوضع بين معادي متربص، ومعادي متدخل، ومتحالف مؤقت إلى غاية نهاية فترة الدّراسة (1566م).

غير أن ما يجب الإشارة إليه هو أن هذه الدول المعادية للدولة العثمانية، حتى وإن لم تبد تدخلها في شؤون الدولة العثمانية داخليًّا، فإن عداءها في حد ذاته عاملا مشجعا على إثارة الفوضى الداخلية، وتشجيع المعادين لها من الداخل،كتحالف ضمني وغير معلن. وعليه فإن طبيعة العلاقات العثمانية الخارجية لاسيما مع دولة الصفويين وبعض الدول الأوربية كالبندقية، من شأنها أن تثير الاضطرابات، حتّى ولو كانت غير مباشرة وغير صريحة.

خـــاتمـــــة

خاتمة واستنتاج

إنّ التّاريخ العثماني الممتد على ما يزيد عن:600 سنة، يحتوي على الكثير من الأحداث السلبية والإيجابية. ومن بين الأحداث المسجلة، تلك الحركات المناوئة للسلطة العثمانية، ونخصّ بالذكر تلك التي حدثت خلال الإطار الزّمني (1512م-1566م)، والمكاني بلاد المشرق العربي(مجال الدّراسة).

ومن خلال بحثنا في الموضوع والإطّلاع على ما قع تحت أيدينا من مصادر و مراجع، وقفنا على جملة من النقاط المتعلقة بالدولة العثمانية وعلاقتها بعناصر موضوع البحث. وخرجنا بجملة من الحقائق الاستنتاجات.

أوّلا:

أنّ فترة الدراسة (1512م/1566م) والتي تغطّي النّصف الأول تقريبا من القرن السّادس عشر هي فترة التّفوق العثماني. وبعبارة أخرى أرى إنّها الزّمن العثماني بلا منازع ولا منافس.

أنّ المجال الجغرافي لموضوع الدّراسة (المشرق العربي) كان يعاني من فوضى وعدم الاستقرار داخليّا؛ ومن مضايقات وتهديدات وأخطار خارجية: سواء كانت من نيران صديقة (شرقية) أو كانت من نيران عدوّة (غربية).

أنّ السلطة العثمانية خلال فترة الدراسة عرفت سلطانين من أبرز وأعظم سلاطين الإمبراطورية العثمانية، وهما:

السلطان سليم الأول (1512م/1520م) والسلطان سليمان المشرع (1520م/1566م). فإذا كان الأول قد أرسى مراسي الإمبراطورية وبسط سلطانه على ثلاثة قارّات ؛ فإنّ الثّاني قد سما بها إلى سنم التّحضّر وعلياء الحضارة، "فذاك الشبل من ذاك الأسد"أو "من شابه أباه فما ظلم".

أنّ التّواجد العثماني بالمشرق العربي كان مطلوبا ومنتظرا ومرحّبا به. وقد درء عنه أخطارا كثيرة محدقة، وجنّبه التّغوّل الأوربي، وبالتالي الاحتواء، أو على الأقل أخّر حركة احتلال بلاد المشرق العربي لعدّة قرون.

ثانيّا:

أنّ فترة الدّراسة قد عرفت جملة من الحركات المناهضة للسلطة العثمانية، رغم ما بلغته هذه السلطة من قوة وتفوّق خاصّة على الصّعيد الخارجي، وأنّ هذه الحركات قد ظهرت في كل ايالات المشرق العربي. وقد تنوّعت واختلفت في الزّعامات، و الأهداف، والفترات، والأسباب، والمواقع. غير أنّها لم ترق إلى زعزعة السلطة العثمانية المحلية، ولا الباب العالي.

أمّا من حيث الزعامة فتتمثّل في ثلاث (أصناف) وهم :

- بعض المماليك الذين أرادوا استرجاع السلطة المملوكية، التي ضاعت من بين أيديهم، وأصبحت بأيدي العثمانيّين، كما حدث في الشّام.

-رجال دولة عثمانيين الذين حملهم حب السّلطة، و الانتقام على شق عصا الطّاعة، كما حدث في مصر.
-بعض البدو والأعراب الذين يريدون الحفاظ على مكاسبهم الاجتماعية والاقتصادية؛ ويريدون الإبقاء على نمط حياتهم ونفوذهم الذي ألفوه منذ العهد المملوكي، كما حدث في الشّام ومصر.
-بعض العائلات والقبائل كآل طاهر باليمن.

أما من حيث أهداف تلك الحركات، وبالنّظر إلى زعاماتها، فكانت في أغلبها ضد بعض السيّاسات أو بعض تّصرّفات السّلطات المحلية، مثل رفع الضرائب، أمّا القليل منها، فكان هدفها التمتّع بصلاحيات أكثر، وأوسع من قبل الزّعماء المحليّين، وربما الانفصال عن الباب العالي، كما حدث في الشّام، على إثر وفاة السلطان العثماني "سليم الأول"، وكذلك لما تمّ تعيين "أحمد باشا"حاكما على مصر، في عهد السلطان "سليمان المشرّع"؛ لكنها تبقى محدودة وغير مؤثّره، ويرجع ذلك إلى عدم التفاف الرّعايا حولها،ممّا سهّل التّصدّي لها وإخمادها.

واعتمادا على ما تقدّم، فإنّ هذه الحركات المناوئة، في غالبها حركات مطلبيه، ذات طابع اجتماعي واقتصادي، وفي ذات الوقت فهي ليست متكافئة ومتساوية في الشدّة والأهميّة، وهذه الفروق نلمسها بين ثورات المماليك والبدو. ومن النّتائج التي لاحظناها أيضا، أنّ هذه الحركات لم تخاطب الباب العالي مباشرة، وهذا ما يؤكد الطّابع الاجتماعي والاقتصادي لتلك الحركات، وينفي عنها اللون السّياسي. و لم تنافس أسرة آل عثمان على عرش السلطنة، التي لم تتأثّر بتلك الحركات، واستطاع الباب العالي الحفاظ على تاج السلطنة خلال مدّة الدّراسة، وأن تستمر الدّولة في أداء واجباتها داخليّا وخارجيّا .

كما استخلصنا من هذه الحركات المناوئة ببلاد المشرق العربي– رغم اختلافاتها – أنّها في المحصلة إحدى علامات الحيوية لأصحاب تلك الحركات.

كما اختلفت مواقف السلطة العثمانية في التصدّي لها، فتراوحت من: اللّين إلى الشدّة إلى لإغراء إلى الرّضوخ وتلبية المطالب، إلى حبك الدسائس والتّحالفات لضرب البعض بالبعض، واستطاعت في كل الأحوال القضاء عليها وإخماد نارها.

من حيث السياسة المنتهجة عموما في معاملة الرّعية فكانت تتميّز- في رأينا- بالحكمة واللّين، وبعد النّظر السّياسي، مطبقة بذلك شعرة معاوية (بن أبي سفيان)، وعلى هذا الأساس استطاعت أن تشق طريق الحضارة.

أمّا فيما يتعلّق بمواجهة الحركات المناوئة لها؛ فمن خلال تتبّعنا لمواقف الدّولة في مواجهة تلك الحركات توصّلنا إلى أنّها مواقف متغيّرة ومتنوّعة، وهذا - في رأينا - من الحكمة السّياسية وما تقتضيه. فمن خلال الأساليب التي واجهت بها تلك الحركات، يمكن تشبيهها بالطّبيب الذي يصف الداء لمرضاه ويختار لكل مريض دواء خاصّاً به، فبهذا المبدأ عالجت الدولة العثمانية ظاهرة الحركات المناوئة لها، خلال تلك المرحلة من الدّراسة، وتنوعت مواقفها تجاه تلك الحركات: فمن سياسة القمع بالقوّة العسكرية، إلى سياسة التّودّد

والاستمالة، أو سيّاسة دعم جهة موالية ضد جهة أخرى مناوئة ورمي الصّراع بين الأطراف، إلى سياسة الامتثال والاستماع إلى مطالب المناوئين وتلبية رغائبهم عندما تقتضي الضرورة.

وممّا تقدم فإنّ السياسة التي انتهجتها الدّولة العثمانية كانت لصالحها، إذ استطاعت أن ترغّب وترهّب وأن تقترب من المناوئين وتبتعد عنهم لكي تستطيع مواجهة أي حركة مضادة لها وتقضي عليها.

ثالثا:

أنّ العلاقات الخارجية للإمبراطورية العثمانية،رغم كون بوصلتها في يد العثمانيّين، إلاّ أنّها لم تكن دوما في إطار رغبتها، وهذا من بديهيات العلاقات السّياسات الخارجيّة. ومن خلال تتبّعنا لسياسة الإمبراطورية العثمانية خلال فترة الدّراسة، لاحظنا رغبة الدّول المعادية للدولة العثمانية في الحرص على التّدخل في شؤونها، والعبث بأمنها. إنّ هذا هو ما لمسناه من خلال التّعاون الذي تمّ بين البرتغاليّين و آل طاهر المناوئين السلطة العثمانية المحليّة باليمن. كما وقفنا على المساعدات التي قدّمها فرسان القدّيس يوحنّا لجان بردي الغزالي، زعيم الحركة المناوئة للسلطة العثمانية بالشّام. بالإضافة إلى تحريض البنادقة سكان البلقان على الثوران ضد السلطة العثمانية.

بهذا نكون قد حاولنا الإجابة عن التّساؤلات التي طرحناها في مقدّمة الموضوع، لكن دون أن ندّعي الإحاطة التّامة. وإنّنا على يقين أنّ الموضوع مازال يحتاج إلي بحث أكثر تعمق، ومن المؤكّد أنّ هناك من الباحثين من سيفيض فيه أكثر، خاصّة إذا ما توفّرت المصادر المتخصّصة في الموضوع.

لكن، ومع ذلك، فنحسب أنّنا أثرنا إشكالية هامة وإن كانت تمثّل حُصيّة من جبل، في تاريخ الإمبراطورية العثمانية، واجتهدنا في الاقتراب من الإجابة عليها بما استخلصناه من عشرات المصادر والمراجع، وبما استشهدنا به من وثائق مدعّمة. ويبقى يقيننا ثابتا أنّ أعمال الباحثين متكاملة.

جدول تلخيصي للحركات المناوئة وزعمائها

العهد	إسم الحركة	زعيمها	مكانها	زمانها	نتيجتها
عهد السلطان سليم الأول 1520/1512م	حركة طومان باي	طومان باي	مصر	جانفي – أفريل 1517	شنق زعيمها وإخماد الحركة.
	حركة حسين الشيخ مرعي	الشيخ حسين مرعي	مصر	بعد حركة طومان باي	إخمادها وشنق زعيمها .
	حركة عامر بن عبد الوهاب	عامر بن عبد الوهاب	اليمن	صفر- ربيع (2) 923هـ 1517م	أُخمدت
	حركة ابن الحنش	إبن حنش	البقاع، حماه، صيدا	924هـ/1518م	قطع رأس زعيمها وإخمادها
	حركة العربان	حاكم دمشق	دمشق	925هـ/1519م	أُخمدت
	حركة جان بردي الغزالي	جان بردي الغزالي	منطقة الشوف	926هـ /1520م	قتل زعيمها وإخمادها
عهد السلطان سليمان المشرع 1566/1520م	حركة إينال السيفي، وجانم السيفي	إينال السيفي، وجانم السيفي	مصر	929هـ/ 1523م	إخمادها
	حركة الدروز	الدروز	منطقة الشوف	930هـ/1524م	أُخمدت
	حركة الوالي أحمد باشا (الخائن)	الوالي أحمد باشا	مصر	يناير – مارس 1529م	أعدم زعيمها وإخماد الحركة.
	حركة أهل عدن	أل عامر بن داود	عدن (اليمن)	أوت 1538م	فشل العثمانيين.
	حركة الشيخان سيدي عامر ويحي الشيخ	الشيخان سيدي عامر ويحي الشيخ	زكية (العراق)	950هـ 1945م	عزل حاكم زكية وتحويل البصرة من سنجق إلى بيلر بايلك
	حركة الامير علي بن عليان	الامير علي بن عليان	البصرة	951 هـ / 1546م	اخماد الحركة ودفع غرامة سنوية.
	حركة الجيش العثماني	الجيش العثماني المرابط باليمن	اليمن	958هـ /1551 م	إرضاء الجيش وتهدئته بتلبية مطالبه.

الملاحق

ملحق: رقم (1): خريطة
الإمبراطورية العثمانية خلال القرن 16م في أوج اتساعها

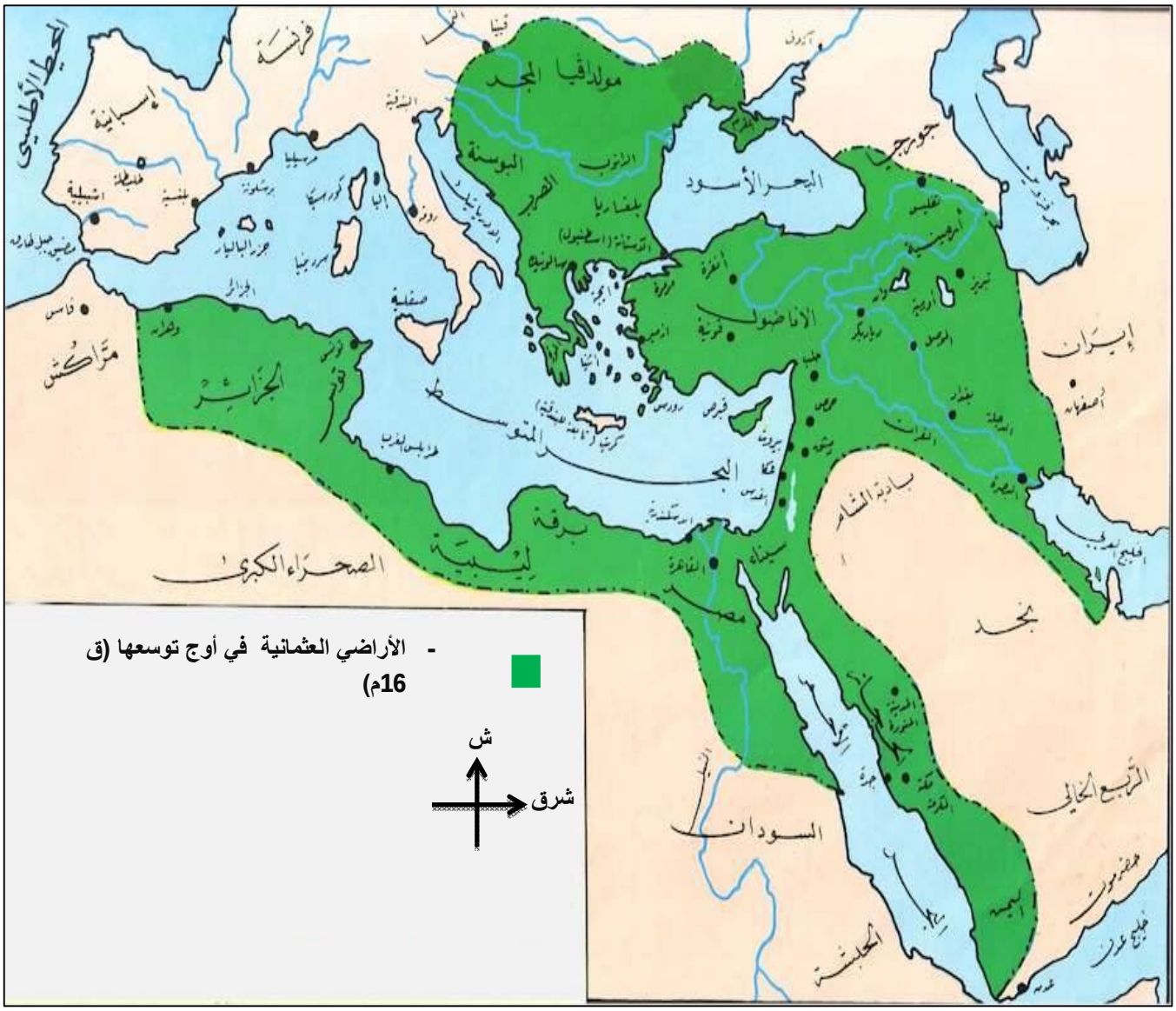

خريطة الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر نقلا عن حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ط1، 1987، ص ص، 164، 165. (بتصرف)

ملحق رقم (2) صورة السلطان العثماني سليم الأول (1512م/1520م).

منمنمة قديمة تمثل السلطان ياوز سليم خان الأول
فاتح بلاد الشام

نقلا عن كتاب : تاريخ الشام في مطلع العهد العثماني، 1520م/1544م، استنادا إلى مخطوطات نادرة في مكتبة الدولة Staatsbibliotchek في برلين، من كتاب مفاكهة الخلال في حوادث الزمان لإبن طولون، دراسة وتحقيق، أحمد ايبش، أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1 2010، ص، 370.

ملحق رقم (3): صورة السلطان العثماني سليمان المشرع (1520م/1566م)

لوحة زيتية قديمة تمثل السلطان سليمان خان القانوني

نقلا عن كتاب : مفاكهة الخلان، مرجع سابق، ص، 372.

ملحق رقم (04): خطاب السلطان سليم الأول إلى حاكم القرم.

قال السلطان سليم لحاكم القرم بمناسبة وعده بمساعدته ضدّ أخيه أحمد المناوئ له :

« لم نأت إلى إسطنبول حبًّا في السلطة، بل لكون والدنا مريضًا ومسنًّا، وكونه قد أحال جميع العمال والوزراء، وقد انتهز أعداؤنا هذه الفرصة فأوقدوا نيران الفتن والثورات، أمَّا أشقائي فقد اتبعوا أهواءهم وهم غير قادرين على دفع بلاء الأعداء . إن غايتنا هي حفظ وصيانة الدّين والدولة، غير أنّ بعض رجال الدّولة بذروا بذور الشقاق، بين والدي وبيني، ما العمل؟ لقد كان هذا هو قدرنا، وإلا فلم يكن من المناسب لنا التوجه مع الجيش ضد والدنا »[1].

التّعليق:

هذا الخطاب يمثل تبرير من السلطان لما أقدم عليه من توليه عرش السلطنة رغم موقف أبيه السلطان "بايزيد" الرافض.

1) أحمد أق كزندي، وسعيد أزوتورك مرجع سابق، ص، 196.

ملحق رقم(05): عن أوضاع مصر قبل التّواجد العثماني من خلال مقدمة قانون نامه مصر.

« وبينما كانت مدائن وبلدان العرب أراضيها فائضة المراضي ومهبط الأنوار القلبية لله سبحانه ، فصارت هي منبع حياة الإيمان بيضاء جامدة بالكر والغم، وفي شتات ظلمات ظلم وعدوان طائفة الجراكسة التي هي في شيطنة الأبالسة، وتعرى رعايا حمى المملك من لباس العافية، وخلت مذرات معيشتهم من استراحة حبّه حصاد معتبرة... وبظلمهم صار أعز الناس أذلة بقيد المذلة، ومَلَكَهُمُ الزهو بأنفسهم في مرآة العجب بالنفس ، وأسرفوا في شرب خمر الغرور والأنانية ، وثملوا بالكبر والاغترار. فالأغنياء والفقراء الذين توطّنوا وتمكّنوا في البلاد الظاهرة سواء في مصر القاهرة أو مضافاتها ، فإنهم في دائم الأوقات، كانوا يعانون أسى البلاد وتحت وطأة فتنة العسكر والعناء »[2].

التعليـــــق

هذه مقدمة قانون نامه مصر، والتي فيها وصف من قبل الصدر الأعظم إبراهيم باشا للحالة التي آلت إليها مصر تحت حكم الشراكسة، وظلمهم وهي بمثابة تبرير لوضع قانون يحكم ويسير مصر. و تمثل هذه الزيارة وصدور قانون نامه حدثا فارقا بين عهدين ما قبل قانون نامه مصر، و ما بعده .

2) ماجدة مخلوف، قانون إداري لولاية مصر، مرجع سابق، ص 72.

ملحق رقم: (06)رسالة ابن علوان (ت 936هـ/1530م) إلى السلطان سليم الأول.

«...وفي هذا الزمان شاع الظلم ولذلك صار متعينا على ولي الأمر دفعه و إزالته وإقامة حدود الله...ولو أن الله سخر مولانا السلطان و أزال هذه البدعة الشنيعة الموجبة لحلول غضب الله تعالى وسخطه على أهل تلك الناحية ويكون لك في صحيفة حسناته »[3].

التعليق: هذه شكوى من أحد أعيان بلاد الشّام، للسلطان العثماني (سليم الأوّل)؛ يكشف من خلالها معاملة السلطات المملوكية؛ ودعوة مبطّنة له، من أجل القدوم.

3) مهنّد مبيضين، الفكر السياسي الإسلامي والإصلاح، التجربتان العثمانية والإيرانية، الدّار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008 ص، 19.

ملحق رقم (07) رسالة شيوخ القبائل العربية إلى السلطان سليم الأول.

«من أجل حفظ وصيانة أرواحنا وأموالنا وعيالنا ومن أجل حماية وأمن ديننا، نقدم لكم طاعتنا، ونرى ضرورة حكمكم من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية وتأسيس العدالة ».[4]

التعليق:رسالة مناشدة ثانية للسلطان العثماني ودعوة صريحة للتّدخل، وفيها دغدغة للعاطفة الدّينية.

4) رسالة من القبائل العربية منها قبائل: خرفوش، وابن سعيد، وبني إبراهيم، وبني سائم، وبني عطا، وشيوخ مدن صفد، وغزة ، وأشراف حلب ؛ موجودة بمتحف "طوب كابي" تحت رقم: E.1019،11634/26: نقلا عن: أحمد آق، وسعيد أوزتورك: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، استانبول،(د.ط)، 2008، ص،223.

-ملحق (08): رسالة أهالي حلب إلى السلطان سليم الأول:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى مولانا السلطان عز نصره...

« يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي، بدون استثناء طاعتهم وولاءهم - طواعية- لمولانا السلطان عز نصره. وبإذنهم جميعا،كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان عهدالأمان، وإذا تفضّلتم بالتّصريح لنا بالاطمئنان فيطلب الأمان لأرواحنا وأموالنا وعيالنا، فإنّنا نقبض على الشّراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم. وجميع أهل حلب مستعدّون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرّد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خلّصنا أيّها السلطان من يد الحكم الشركسي، أحمنا أيضا من يد الكفّار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، أنّ الشّريعة الإسلامية، لا تأخذ مجراها، هنا، وهي معطّلة. إنّ المماليك إذا أعجبهم أي شيء يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالا أو نساء أو عيالا، فالرحمة لا تأخذهم بأحد ، وكل منهم ظالم. وطلبو منّا رجلا من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا، ونريد قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزير من عندكم أيّها السلطان صاحب الدّولة، مفوض يمنح الأمان لنا و لأهلينا ولعيالنا، أرسلوا لنا رجلا حائزا على ثقتكم يأتي سرّا ويلتقي بنا، يعطينا عهد الأمان ، حتّى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء ، وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين» .

التعليق: بالرغم من عدم تأريخ هذه الرسالة، إلا أن سياقها يدل على سبقها لدخول السلطان سليم الأول لبلاد الشام 1516م وما محتواها هو تأكيد على أنها تخاطب السلطان سليم باسم أهالي حلب وليس فقط من أعيانها وأن إهمال المماليك للدين الإسلامي وظلمهم هو الدافع إلى طلب الغوث والأمان في نفس الوقت من السلطان العثماني.

ملحق (09): خطاب السلطان سليم الأول لطومان باي بعد معركة الريدانية.

« أنا ما جئت عليكم إلاّ بفتوى علماء الأمصار، و أنا كنت متوجها إلى جهاد الرافضة* والفجّار**، فلمّا بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر إلى حلب، واتفق مع الرّافضة واختار أن يمشي إلى مملكتي التي هي موروث آبائي وأجدادي، فلمّا تحققت، تركت الرافضة ومشيت إليه ».[5]

التعليق:

إن هذا الخطاب يحمل أكثر من دلالة ورسالة فهو يخاطب سلطان المماليك "طومان باي" ويحمل المبررات الشرعية لدخول السلطان العثماني إلى مصر ومحاربة المماليك من عدة جوانب:

- **الأول:** أنه مسلم وتقي ولا يقوم بأي عمل إلاّ وفقا للدين ورأي العلماء.
- **الثاني:** أنه جاء لدرء الخطر وجهاد الكفار(الرّافضة) عن أراضي المسلمين(السنّة) بما فيها مصر.
- **الثالث:** أن الملك الغوري تحالف مع الشيعة (أعداء السنة) ضد الدولة العثمانية.
- **الرابع** : أن الملك الغوري كان البادئ بالظلم والاستفزاز.

وبهذا فقد قدّم السلطان العثماني سليم الأول تبريراته لدخول بلاد الشام.

*) الرافضة يقصد بهم الشيعة.

**) الفجار ويقصد بهم البرتغاليّين.

5) الحسن عيسى: الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009، ص:127.

ملحق :(10): مرسوم السلطان سليم الأول لأهل دمشق في بشارة النصر وأخذ مصر.

«قدوة الأمراء الكرام، وعمدة الكبراء الفخام، ذو القدر والاحترام، كافل مدينة الشام، دام عزها، وأقضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين، معدن الفضل واليقين (...) مولانا قاضي القضاة بالشام المحروس (...) لعلمكم الكريم أننا توكلنا على الله (...) وتوجهنا بعساكرنا وسناجقنا وأعلامنا وجيوشنا و (...) فوجدنا طومان باي الذي تولى سلطنة مصر وأقام جام بردي الغزالي كافلا للشام وجهزه إلى غزة (...) وكان قد تقدمنا قدوة الوزراء العظام و(...) سنان باشا (...)، ثم إن ركابنا الشريف جد في السير (...) وسرنا نرحل من مرحلة إلى مرحلة (...) فلما وصل إليهم خبر توجه ركابنا الشريف (...) فجمعوا عساكرهم السيفية و الجلبان، و(...) وسائر البلاد من المكاحل و(...) والسلاح (...) وحفروا خندقا في الريدانية، فوصل ركابنا الشريف (...) يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة إثنين وعشرين وتسع مائة، وقت الغداة، (...) ولما وقف الصفان (...) وإصطفا الجيشان (...) وغنى فيهم السيف (...) ثم ولوا منه منهزمين (...) وأما غالب العسكر المخذول فداسهم عسكرنا تحت قوافل الخيول، وإستمرت الحرب (...) وصارت عساكرنا غالبة، وأقمنا بعد هذه المعركة في الريدانية أربعة أيام (...) ثم إلى جزيرة بولاق (...) و إستمرت الحرب بين عساكرنا (...) وبينهم ثلاثة أيام (...) من الصبح إلى العشاء وبعون الله قتلنا جميع الجراكسة (...) وأطاعنا جميع العربان والمشايخ والأكابر (...)، وبعد هذه الفتوحات العظمى أردنا أن نعلم رعايانا (...) ليأخذوا حظوظهم من هذه البشرى (...) كتب في أوائل المحرم، بمنزلة جزيرة بولاق »[6].

التعليق: هذا المرسوم السلطاني **(العثماني).** حيث وردت مراسيم على يد أربعة من الهجانة في يوم الجمعة سادس صفرسنة932 هـــ/ 1517م تبشر بنصر ابن عثمان على الجراكسة. وفي يوم السبت سابع صفر قرئت، ودار مبشرو الأروام على بيوت الأكابر والحارات، الطبول والنايات.

6) ابن أجا، مرجع سابق، ص ص 290،291، 292. (وأنظر: ابن الحمصي، ج3 مرجع سابق، ص ص 527، 527 وأنظر: عبد العزيز نوار، مرجع سابق ص 596).

ملحق رقم (11): فرمان السلطان سليم الأول خاص برهبان شبه جزيرة سيناء وأديرتهم.

فرمان السلطان سليم الأول المؤرخ في 11-19 يوليو/جويلية 1517م/21-29 جمادى الثانية 923هـ يقضي الفرمان الشريف السلطاني عالي الشأن، والطغراء الخاقاني، النافذ بالعون الرباني، بأنّ: (طائفة الرهبان والقسّيسين المعنيين بالفرمان الحائز قدرة القدر، الساكنين والمتمكنين في جبل طور سيناء*، وقد اعتادوا قِرَى وإكرام كل صادر ووارد على أديرتهم، فإنّه يحظر على طائفة الأعراب الدخول إلى شؤونهم أصلاً، كما ينبغي التسامح في حقوقهم ورسومهم وأحكامهم وعشورهم، وبساتينهم، وحدائقهم، وثمارهم، ونخيلهم، وزيوتهم، وحقوقهم في البلاد الطورية والشامية والمصرية، وعدم التعرض أصلا إلى أوقافهم وبيوتهم وبساتينهم ومزارعهم في جزيرة كريت وجزيرة قبرص، كذلك التسامح في الحقوق الديوانية التي تحصل عن الصابون والزيت الجبلي والنذور والصدقات التي تصل لإليهم من جانب البر والبحر المالح ومن طرف البحر العذب ومن الثغور الإسلامية، الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وبولاق، وقطية وغزة ويافا وبيروت وصيدا وطرابلس واللاّذقية وسائر النواحي المصرية والشامية، ولتجري زيارة عماماتهم في القدس الشريف وفق العادة القديمة، وألاّ يعارضهم أحد غيرهم في دفن موتاهم، وإذا ظهرت لهم حقوق وثبتت تجاه أحد فليحصّلوها بسرعة بغير قصور، وعلى حاكم الوقت أن يمنع من يريدون التدخل بغير وجه ويردهم)[7].

التعليق: هذا الفرمان يقر حقوق طائفة الرهبان المسيحيين القاطنين بشبه جزيرة سينا. ويشكل ضمانة لهم في ممارسة حقوقهم وحمايتها . وهو ملزم حتى على من يأتي بعد السلطان سليم الأول. ومن محتواه تتضح سياسة الدولة العثمانية تجاه رعاياها من غير المسلمين.

*) هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى عليه السلام بشبه جزيرة سيناء بمصر. (أنظر: تفسير أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ج4).

7) مخلوف ماجدة: القانون الإداري ...، مرجع سابق، ص 40، ها (1).

ملحق رقم (12): رسالة طلب العفو من خير بك الوزير إلى السلطان سليم الأول عن طريق زينل باشا.

- نص الرسالة:

«جناب صاحب العزّة حضرة الباش نائل المنى، أدام الله تعالى معاليه إلى يوم النصب والحساب دعوات صالحات مسكية الفوحات وتسليمات زاكيات وردية القسمات تفوح وتلوح من الإخلاص المحض ومن فرط نسبتها إليك ».

بعد إهداء قوافل التعظيم ورواحل التكريم وإتحافها ينهي الضمير المنير ما يأتي : ...إذا صدر أمان بخصوص قضية الجراكسة الذين [هربوا] إلى الصحراء، بينما السلطان صاحب الدولة عزه نصره فيها [مصر] ، فسيرى خيرًا وقد فذت أوامره الشريفة، وإذا أطلق سراحهم، فإنهم سيمرغون الوجوه جميعًا عند مجيئهم وقد أتى قانصوه العادلي المعروف وزمك مقدم الألف المشهور وبعض الجنود، وأعلنوا عبوديتهم خالصين مخلصين لسلطاننا صاحب الدولة، وقالوا: « الحمد لله، فبينما كنّا نستحق القتل، خلص سلطاننا صاحب الدولة المحبوسين من السيف نظرًا لهذا القدر البين من خيره، وأعطى الأمان لمن كان بالصّحراء، وانتشلنا من تحت الأرض، وأتى بنا إلى الأرض. إننّا نعلن عبوديتنا للسلطان صاحب الدولة من قلوبنا وأرواحنا، رؤوسنا على الأرض فداء في طريق السلطان صاحب الدولة ».

ودعوا لكم وأثنوا عليكم.

أضعف العباد خايربك الفقير[8]

التعليق :هذه رسالة مترجمة من التركية إلى العربية. بعث بها خير بك إلى الوزير "زينل باشا "يلتمس من خلالها توسط الوزير لدى السلطان "سليم الأول" العفو وإعطاء الأمان إلى الجراكسة الهاربين.

8) الوثيقة محفوظة في أرشيف، طوب كابي - سراي، تحت رقم : ج E 5594 وصورتها رقم 16. (نقلا عن:أحمد فؤاد متولي،الفتح العثماني للشام ومصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1414هـ/1995م، ص 379).

الملحق(13): تعليمات السلطان سليمان المشرع إلى حاكم مصر محمد باشا(1555/1553م)

« وزيرنا محمد باشا حامي مصر والمدافع عنها، عند وصول خطّنا الشريف والمصحوب بالتهاني، ومن خلاله عليكم بإرسال ما عليكم خلال كل السنوات إلى مقامنا الأميري (العالي) مبلغ ستة مئة ألف (600000) بياسترا إلى الخزينة السنوية من بايلكم، وإذا تعذر عليكم تحصيل المبلغ ذهبًا تقبل تسديده جزءًا منه بالبياسترا وبمثله من البارا (Parats)».

علما بأنّ خمسمائة (500) من أوجاقنا سيخصّصون لحماية الأموال ومثلهم يقومون بخدمة حجاجنا الميامين القاصدين مكة المكرّمة. أمّا بالنسبة للحرب التي نحن بصدد وخوضها فعليكم أن تختاروا من بين المجندين بمصر ألف ومائتين (1200) جندي يتميزون باليقظة وأهلية الحرب (يقظين محاربين) وترسلهم تحت قيادة أمير يجمع ما بين الخبرة والشجاعة والمهارات العسكرية وأنتم مسئولون على ذلك.

أذكركم بأن تحملوا إلينا المبالغ الواجب إدخالها إلى الخزينة، واحرصوا على أن يتم الإرسال في وقته (فتراته) المحددة.حافظ ودافع على ولاياتنا ولا تكلوا أبدا في (إنهاء) تنفيذ وإتمام أوامرنا على اختلافها. تشدد فيالواجبات واحكم بصرامة المجندين المصريين مع مقابة من يستحق العقاب من الضباط.لا تنسوا بالخصوص إرسال مخصّصات مدينة مكة المشرفة في الوقت المحدد (Les aumones) الصدقات والواجبات **et les Ravances)** واحرص على وصول مخصّصات الفقراء من غير نقصان الأشياء الهامة (الضرورية) ولا يعانون من أي شيء.وانتبه في التطبيق وبكل قوة في تنفيذ أوامرنا وكن في مستوى إرادتنا العليا، وسأحكم على ما مدى خدمتكم لي واهتمامكم، وعلى كونكم حريصين»[9].

التعليق: تحتوي هذه الرسالة على تعليمات من السلطان العثماني إلى والي مصر، وفيها يظهر حرص السلطان على متابعة مجريات الأوضاع؛ منها: خدمة الحجاج وجمع الضرائب والاستعدادات للحرب ومخصصات فقراء مكة وتنفيذ الأوامر.

9)نقلا عن: ج.مارسيل: مصر منذ غزو العرب إلى السيطرة الفرنسية، (د.ت)، ص ص42، 43.

ملحق : رقم (14) نص عن مساعدة الأسطول العثماني لفرنسا ضد مملكة إسبانيا

« L'an mil cinq cens quarante troys et le Vendredi xx[e] de Juillet,environ vespres, l'armée du grand Turc conduite et amenée par Barbaraisse, est venue et arrivée en ceste ville comme fustes, galliotes et troys grosses nefz chargées d'armes et d'artilleries, et à l'arrivement d'icelle les galleres du Roy estans Vingt Six les alarent recullir au dessoubs du chasteau d'If, à grand trionfe, et toutes tirarent par deux Foys plusieurs pièces d'artillierie et en après tirarent les galeasses et autres navires de Roy estans Treze, lesquelles estoient aux ysles et aussy ledit salutation Auxquelles galeasses navires et chasteau ; lesdictes galleres, galliotes, Fustes et nefz dudict Grant Turc rendirent leur salat ce que Faysoit ung merveilleux beu veoyr ».[10]

Note : Arrivée de la flotte ottomane

10) Hervé Michel ,ibid, p,114.

قائمة البيبليوغرافيا

قائمة البيبليوغرافيا:

أوّلا:المصادر:

- **القرآن الكريم.**
- **الحديث الشّريف.**
- **الوثائق العثمانية:**
  - وثيقة رقم 11634/26، E1019 قصر طوب كابي سراي
  - وثيقة رقم E-5594قصر طوب كابي سراي، نقلا عن:أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشّام ومصر، الزّهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1 1995.
  - وثيقة رقم E-585-2قصر طوب كابي سراي، نقلا عن:أحمد فؤاد متولّي، الفتح العثماني..المرجع السّابق.
- ابن إياس محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري: المختار في وقائع الدّهور، الإسكندرية، 1960.
- البدليسي شرف خان ابن شمس الدين، شرف نامه،ج1،ج2، تر: محمّد على عوني، مراجعة يحي الخشاب، دار الزمان، دمشق، (ط2)، 2006.
- ابن بطّوطة، محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم اللواتي الطنجي: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار، شرح وتهميش طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2007.
- الجبرتي عبد الرحمان، عجائب الآثار في التراجم والأخبار،ج1، الغزو العثماني لمصر، إعداد و تح: عبدالعزيزجمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة، (دت).
- جلبي أوليا، سياحة نامه مصر، تر: محمّد علي عوني، تح: عبد الوهّاب عزّام، وأحمد السّعيد سليمان، مطبعة دار الكتب و الوثائق القومية، القاهرة، 2003 .
- ـــــــــ،الرّحلة إلى مصر والسّودان والحبشة، مج: الأول، تع: حسين مجيب المصري وآخرون ، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2006.
- ابن الدّيبع عبد الرّحمن بن علي الشيباني الزبيدي، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، تح: محمد عيسى صالحية،(م.و.ث.ف.آ.)، الكويت، ط1،1986.
- الوزان حسن بن محمّدالفاسي (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، تر: محمّد حجي ومحمّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.
- ابن الحمصي أحمد بن محمّد بن عمر الأنصاري، حوادث الزّمان ووفيات الشّيوخ والأقران، 3أجزاء، تح: عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، ط1، 2000.
- ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ الشام مطلع العهد العثماني (1520-

1544م)، تحقيق: أحمد إيبش (د.ت).

- ابن كنّان محمّد بن عيسى، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تح: عباس صبّاغ، دار النفائس، بيروت، ط1، 1991.
- المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.
- قطب الدّين حمد بن أحمد النهروالي المكّي، غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة، المسمّى البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات دار اليمام للبحث والتّرجمة والنشر، الرّياض، 1967 .
- القلعاوي مصطفى الصفوي، صفوة الزمان في من تولى على مصر من أمير و سلطان، تح: محمّد عمر عبد العزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2011.
- القلقشندي أحمد بن عبد الله: مآثر لأنافه في معالم الخلافة، تقديم و تعليق: شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، (ط3)، 1997 .
- ابن الملا أحمد بن محمد، المنتخب من تاريخ الجنابي، الدولة العثمانية من النّشوء إلى سلطنة مراد الثالث (1214م/1587م)، دراسة وتح: رابعة مزهر شاكر، (م.ح.د.ج.ن.ت.) ، الأردن، ط1، 2013.

ثانيا : المراجع :

- ابن أجا أحمد بن محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار صنعه محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1406هـ/1987م.
- إبراهيم ناهد، بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية و أثر الغرب الأوروبي فيها، (1789م-1807م)، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، 2006 .
- إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانيّة العليّة المعروف بالتحفة الحليميّة في تاريخ الدولة العلية، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004.
- أوزتونا يلماز، المدخل للتاريخ التركي، تر: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، بيروت،ط1، 2005 .
- ايرام لابيدس، تاريخ المجتمعات الإسلامية، الجلد الأول، تر: فاضل جتكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 2011.
- إيفانوف نيكولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية، (1516م-1574م)، تع: يوسف عطا الله، مراجعة و تقديم: مسعود ظاهر، دار الفارابي، بيروت، (ط1)، 1988.
- أحمد آق كوندز وسعيد أوزترك، الدّولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، 2008 .
- أحمد سالم سالم علي، السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ال 16م،

مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 2011.

- ـــــــــــــــ ، إستراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د ط)، 2012.
- أحمد سينو، الأكراد الأيزيديون في العهد العثماني دراسة تاريخية سياسية دينية اجتماعية اقتصادية، دار الزمان للطباعة والنشر و التوزيع، دمشق، ط1، 2012.
- أكمل الدّين إحسان أغلي، الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، تقديم طيب رجب أوردغان، تع: صالح سعداوي، دار الشروق، (ط2)، 2012.
- ـــــــــــــــ، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول (ارسيكا)، 1999.
- الأسكندري عمر وآخرون، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني مع نبذة في أخبار الأمم التي اتصلت بمصر إلى ذلك العهد، مطبعة المعارف، مصر، (د.ط) 1920، ص11 ، ص230
- أحمد عبد الرّحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق ، القاهرة ، ط4، 2010.إ
- أحمد عزّت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النّهضة العربية، بيروت، 1970.
- أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج2، تر: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتّوزيع، بيروت، 1986 .
- الأعظمي علي ظريف، مختصر تاريخ البصرة، تق وتح: عزة رفعت، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد (مصر)، (د.ط)، 2001.
- باز يلي قسطنطين ميخائيلفيتش: سوريا و لبنان و فلسطين تحت الحكم التركي من الناحيتين السياسية والتاريخية، تر، يسر جابر، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط1، 1988.
- باموك شوكت، التاريخ المالي للدولة العثمانية، دار المدار الإسلامي، تع: عبد اللطيف الحارس، طرابلس، 2005.
- بوجلخة عبد اللطيف، الدولة العثمانية ،دار المعرفة، الجزائر، 2005.
- بيْهم محمّد جميل، فلسفة التاريخ العثماني أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، مكتبة مركز البحث للتاريخ و الفن و الثقافة الإسلامي، استانبول، 1954.
- بيات فاضل مهدي، الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية حصرا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (ط1)، 2007.
- ـــــــــــــــ، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في ضوء الوثائق و المصادر العثمانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، (ط1)، 2003.
- بنت جعفر بن صالح الغازي، دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية (الجيش الجديد) ، دار القاهرة، ط1، 2007.

- بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية ، تر: أمين فارس، دار الأنيس للنشر والطباعة، وهران، الجزائر،(د.ط) ، 2011م/2012م.
- برنارد لويس، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية، تع: سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر و التوزيع، الرياض، ط2، 1982.
- جان ماريه كاري، مختارات من كتاب رحالة و أدباء فرنسيون في مصر، تر: صونيا نجا و رشا صالح، منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ،ط1،2006.
- الجيعان شرف الدين يحي بن المقرين، كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة،2007.
- جمالمحمودحجر،الرحالةالغربيونفيالمشرقالإسلاميفيالعصرالحديث،دارالمعرفةالجامعية، (د.ط)، 2012.
- درّاج محمّد، الدخول العثماني إلى الجزائر و دور الإخوة بربروس 1512م/1543م ، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، (ط1)، 2012.
- الدّغيم محمود السيد، أضواء على البحرية السلامية العثمانية الحضارة الإسلامية وعالم البحار(بحوث ودراسات)، منشورات إتحاد المؤرخين العرب ، القاهرة، ط1، 1992.
- الهاشمي عبد المنعم، الخلافة العثمانية، دار ابن حزم، بيروت، 2004.
- هريدي صلاح أحمد، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (1517م/1805م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الإسكندرية، 2012.
- زاكري كارابل، أهل الكتاب التاريخ المنسي لعلاقة الإسلام بالغرب، تر: أحمد إيبش، دار الكتاب العربي بيروت،2010.
- زليتنر جان كلود، طرابلس ملتقى أوروبا و بلدان وسط إفريقيا (1500م/1795م)، تر: جاد الله عزّوز الطلحي، الدّار الجماهيرية، ط1، 2001.
- أبو زيدون وديع،تاريخ الدولة العثمانية من التّأسيس إلى السّقوط، الأهلية للنّشر والتّوزيع، بيروت،2011.
- الحمداني طارق نافع، الخليج والجزيرة العربية بين القرن ال16م والقرن الـــــــــ20 م، بيت الوراق، بغداد، ط1، 2011.
- حتيِّ فيليب، وآخرون، تاريخ العرب ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، (ط13)، 2009.
- طقّوش محمّد سهيل،تاريخ العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار بيروت المحروسة، ط1، 1995.
- ـــــــــــــ، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت،

(د.ط)، 2008.

- ـــــــــــــ، تاريخ الدّولة الصّفويّة في إيران، دار النّفائس، بيروت، ط1، 2009.
- يوجين روجان، العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر،تر: محمّد إبراهيم الجندي، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ط1،2011.
- اليافعي صلاح عبد القادر البكري، في جنوب الجزيرة العربية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 2004.
- اليماني تاج الدين عبد الباقي عبد المجيد الناطور، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح: مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، 1985.
- كوثراني وجيه، الفقيه والسلطان جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية القجارية، والدولة العثمانية، دار الطليعة للنشر و التوزيع، بيروت، ط2، 2001.
- المازمي أحمد بن يعقوب، البلوش وبلاد هم في دليل الخليج (1515م-198م)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2012 .

مانتران روبير وآخرون، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ج2، تر: بشير السباعي،باريس، 1987.

مؤنس حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزّهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط1، 1987.

- مبيضين مهند، الفكر السياسي و الإصلاح التجربتان العثمانية و الإيرانية، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ط1، بيروت، 2008.

مجموعة باحثين، الأقليات و القوميات في السلطنة العثمانية بعد 1516م ، الفنار، لبنان، 2001.

- منصور عبد الحكيم، مصطفى كمال أتاتورك ذئب الطورانية الأغبر طاغية الأناضول ، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة ، (ط 1)، 2010.ذ
- محمّد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس،بيروت، 2009.
- محمّد بن إسماعيل،حركة المهدي بالسّودان،دار ابن الجوزية، القاهرة، ط5،2006.
- محمود كامل، الدولة العربية الكبرى، دار المعارف بمصر، القاهرة، (ط2)، (د.ت).
- محمود السيّد، التتار والمغول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2006.
- الميرالاي إسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت،ط1، 1988،ص: 100.
- مقبل فهمي توفيق، دور العرب و المسلمين في اكتشاف العالم الجديد، دار أسامة، للنشر والتوزيع، عمان (ط1)، 2001 .
- مخلوف ماجدة، أوقاف نساء السلاطين العثمانيين وقفية زوجة السلطان سليمان القانوني علي الحرمين الشريفين، (ط1)، 2006.

- ـــــــــــــــ، الحريم في القصر العثماني، دار الآفاق العربية، القاهرة، (ط1)، 1998.
- ـــــــــــــــ، القانون الإداري لولاية مصر في العهد العثماني في ضوء التشريع الإسلامي مع الترجمة الكاملة لقانون نامه مصر، دار الآفاق العربية، (ط1)، القاهرة، 2008.
- ـــــــــــــــ، تحولات الفكر والسياسة في الفكر العثماني، دار الآفاق العالمية، القاهرة، (ط1)، 2009 .
- الناطاور شحادة و آخرون، تاريخ العرب الحديث، دار الأمل، (أربد - الأردن)، 2010.
- نوار عبد العزيز، تاريخ الشعوب الإسلامية العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة (د ط)، 1998.
- السيوطي علاء الدين عبد الرحمان محمّد بن عثمان، حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، مج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
- سنّيو عبد الرءوف، النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية (1877م/1881م)، بلاد الشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا، بيسان للنشر و التوزيع، (ط1)، 1998.
- السير هاميلتون جب و هارولد بون: المجتمع الإسلامي و الغرب و أثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى، ج1، القسم الأول، تر: عبد المجيد حسيب القيسي ،دار المدى للثقافة و النشر، دمشق، (ط1)، 1997.
- عاصي حسين، ابن إياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.
- عبد الأمير محمّد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن أل 18م، دار الوراق للنشر، بغداد، 2007.
- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517م/1798م)، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، منشورات المجلة التاريخية المغربية و ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر – تونس، 1982.
- عبدالغفارعلاءالدين،حركاتالتمردوالعصيانفيالتاريخالإسلامي،مصرالعربيةللنشروالتوزيع،القاهرة،ط1، 2011.
- عزتلو يوسف بك أصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم إلى الآن، ط1، 1995.
- العطار دنان، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دار الأصالة، الجزائر، (ط1)، 2010.
- عيسى الحسن، الدولة العثمانية عوامل البناء وأسباب السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009.
- عيسى الحسن، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، الأهلية للنشر و التوزيع بيروت، (ط2)، 2011.

- عماد عبد السلام رءوف: دراسات وثائقية في تاريخ الكرد الحديث و حضارتهم، دار الزمان ، دمشق، 2012.

عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الـــــــــ 18م، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).

- عفيف محمّد، عرب و عثمانيون رؤى مغايرة، دار الشروق، القاهرة، (ط 1)، 2005.
- فاروقي ثريا، الدولة العثمانية و العالم المحيط بها، تر: حاتم الطحاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2008.
- ـــــــــــ، حجاج وسلاطين الحج أيام العثمانيين، تر: أبو بكر باقادر، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2010.
- القشاعي - فلة موساوي، الواقع الصحي والسكاني قي الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1518م/1871م، وزارة الثقافة، الجزائر، (2013).
- الصلاّبي محمّد على: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار الإيمان، الإسكندرية، 2003.
- القاسمي خالد بن محمد، دراسات في تاريخ اليمن والخليج، دار الثقافة العربية، الشارقة، (دون طبعة)، 1993.
- قاشا سهيل، الموصل في مذكرات الرحالة الجانب خلال الحكم العثماني، دار الوراق، بيروت، ط1، شركة دار فور للنشر المحدودة، (ط1)، 2009.
- القطب سمير عبد الرزاق، أنساب العرب، دار مكتبة البيان، دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1969.
- شاهين ثريا، دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، تر : محمد حرب، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدّة (د، ت).
- التونجي محمد التونجي، بلاد الشام أيام العهد العثماني ، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2004.
- الخالدي روحي بك محمّد، أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة أصدق تاريخ لأعظم انقلاب، الهيئة المصري العامة للكتاب، القاهرة، 2011.
- خليل محمّد محمود، عرب البحرين تاريخ الدويلات المحلية لبني عقيل في الخليج وشرق الجزيرة العربية، تقديم و مراجعة سيّدة كاشف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د ط)، 2005.
- غندور محمّد يوسف، تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها حتى الفتح العثماني 815م-1515م، دار الفكر اللبناني، بيروت، (ط1)، 1990.

- **القواميس والموسوعات:**

- ابن منظور أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، مج 14، دار صادر، بيروت، (ط 3)، 2004.
- الجواهري إسماعيل بن بحماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح : أحمد عبد الغفور عطار، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984.
- أحمد سليمان فتح الله، الألفاظ الأعجمية في الأمثال العربية القديمة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2010.
- بدوي عبد الرحمان، موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (عمان-الأردن) ، ط4، 2003.
- جنين ودومنيك سورديل، معجم الإسلام التّاريخي، تر: أنطوان الحكيّم وآخرون، الدّار اللبنانيّة للنّشر الجامعي،
-يلماز أوزتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، 4مج، تر،عدنان محمود سلمان، الدّار العربية للموسوعات،ط1، بيروت، 2010.

-السيّر.

- كولن صالح، سلاطين الدولة العثمانية، دار النيل للطباعة و النشر، القاهرة ، (ط1)، 2011.

الأطروحات:

- مرادجه دوسون (Muradjea D'ohsson): نظم الحكم في الدولة العثمانية، تر: فيصل شيخ الأرض، الأطروحة مقدّمة بجامعة بيروت الأمريكية لنيل شهادة أستاذ العلوم، يناير 1942.
- عوض عبد العزيز: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864-1914، أطروحة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة، 1967.

الدوريات:

- أبو نحل أسامة ، جان بردي الغزالي المملوكي والدولة العثمانية رؤية تاريخية جديدة، *مجلة الفسطاط التاريخية* ،جامعة الأزهر، غزة، 2002.
- الدهاس فواز علي بن جنيدب ، «الدّور القيادي لمكة المكرّمة خلال العصر الأموي »، *مجلّة جامعة أم القرى لعلوم الشّريعة آدابها*،مج19، عدد41، حزيران،2007.
- طلحة أوغزلوإيل، ذكريات رحالة فرنسي عن استانبول العثمانية، *مجلة حراء*، مجلة علمية فكرية ثقافية دورية عالمية، استانبول، 2013.
- يحياتن محمّد، « مفهوم التّمرّد عند "ألبير كامو" وموقفه من الثّورة الجزائرية التّحريرية »،*مجلة الثّقافة*، عدد 84، وزارة الثّقافة والسّياحة، الجزائر، نوفمبر/ديسمبر،1984.
- *مجلّة عالم المعرفة*، تاريخ الدراسات في فرنسا، عدد 167، نوفمبر، 1992.
- *المجلّة التاريخية العربية للدّراسات التّاريخية*، تونس، 1990.
- عبد الرحمان عبد الرحيم،*المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية*، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 1990.

I. قائمة المراجع باللغة الأجنبية: Bibliographie:

- Anne Charles Froment de Campagnarde,Histoire abrégée de Tripoli de Barbarie 1794, et suite de l'histoire de la régence de Tripoli de barbarie règne d'Ali Caramanly 1793, texte présenté et annoté par :Alain Blondy avec la collaboration d'Ismet Touati, éd Bouchene,Dans l'epoqueOttoman, Trad du Turc en anglais par Iltter Turan, et de l'anglais en français, 2001 .
- Annie-Rey, Goldzeiguer, LE ROYAUME arabe, la politique algérienne de Napoléon III, 1861-1870,éd,(I.A.I.G.),Alger,2008.
- Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen, à l'époque de Philippe II, t2, 2éme éd, Librairie Arnaud Colin, Paris, 1966.
- Gérard de Nerval, Voyage En Orient, t3, sociétégénérale d'éd.et de diffusion, Paris,1999,p314.

Groupe chercheurs, Minoritéset Nationalistes dans l'Empire Ottoman après 1916, fnar, Liban 2010.

- HAMMER -PURGSTALL Joseph Von, Histoire De L'Empire Ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours, tome 4, traduit

de L'Allemand par J. J.Heller, Paris, sans date d'édition.
- Hourani A, The ottoman Background of the Middle East,1970.
- Jean Marie Carré, Voyageurs et Ecrivains français en Egypte,du début à la fin de la domination turque (1517ac -1840ac) T4,imprimé de l'institut Français d'archéologie orientale (I.F.A.O) le Caire MCMXXXII ,1956 .
- Lavallée Théophile, Histoire de l'empire Ottoman depuis les temps anciens jusqu'à nos jours, Garnier, éditeurs, Paris, 1855.
- Michel Herve, Les débuts de la régence d'Alger de 1518 à 1566, Paris,2005.
- MalkiN. Bibliographie, critique sur L'Histoire de l'Algérie (XVII^{e}siècle à 1830), t2,cahier Maghrébind'histoire,n:hors serie,juin 1990, université d'Oran,p 25.
- Mohamed ben Chenab, Mots Turcs et Persans conservés dans le parler Algérienne,Flitees,éd,2009,p68.
- Sahill Halil, L'Histoire sans l'Europe année sévis et cries monétaire.
- Soheil kash , L'un et multiple dans l'empire Ottoman, minorités et nationalités dans l'empire Ottoman après 1516,par groupe de chercheurs s'appartenant d'histoire de faculté des lettres et sciences humaine et de l'université libanaise , Liban,2011.

الفهارس :

- فهرست الملاحق.
- فهرست الأعلام.
- فهرست الأماكن والبلدان.
- فهرست القبائل والعشائر والأمم.
- فهرست المواضيع.

فهرست الملاحق :

الملحق رقم **01**: خريطة الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر. **176**
الملحق رقم **02**: صورة السلطان العثماني سليم الأول. **177**
الملحق رقم **03**: صورة السلطان العثماني سليمان المشرع. **178**
الملحق رقم **04**: خطاب السلطان سليم الأول إلى حاكم القرم **179**
الملحق رقم **05**: عن أوضاع مصر قبل التّواجد العثماني من خلال مقدمة قانون نامه مصر **180**
الملحق رقم **06**: رسالة ابن علوان (ت **936**هـ/**1530**م) إلى لسلطان سليم الأول..... **181**
الملحق رقم **07**: رسالة شيوخ القبائل العربية إلى السلطان سليم الأول **182**
الملحق رقم **08**: رسالة أهالي حلب إلى السلطان سليم الأول:..... **183**
الملحق رقم **09**: خطاب السلطان سليم الأول لـــــ: طومان باي بعد معركة الريدانية. **184**
الملحق رقم **10**: مرسوم السلطان سليم الأول بفتح الشام ومصر..... **185**
الملحق رقم **11**: فرمان السلطان سليم الأول خاص برهبان شبه جزيرة سينا وأديرتهم..... **186**
الملحق رقم **12**: رسالة طلب العفو من خير بك الوزير إلى السلطان سليم الأول عن طريق زينل باشا..... **188**
الملحق رقم **13**:تعليمات من السلطان سليمان المشرع إلى حاكم مصر محمد باشا (**1553**م/**1555**م)..... **189**
الملحق رقم **14**: نص عن مساعدة الأسطول العثماني لفرنسا ضد مملكة إسبانيا..... **190**

فهرست الأعلام :

أ-

إبراهيم بك حليم:7.
ألبير حوراني:11.
إسحاق(بابا):16.
اسكندر المقدوني:17.
(إبن) إياس:
21،24،27،35،64،67،104،131.
أرنولد توينبي:21،53.
أغاتا تغيل كريمسكي:22.
أنطوان خليل ضومط:23.
إسماعيل الصفوي (الشاه):
24،30،47،
50،56،122،134،136،137،157.
أصلان (الأمير):25.
أوفونصو البوكيرك:45.
إبراهيم خان:47.
إبراهيم باشا:47،77،79،80،
114،115،116،116،127.
إبراهيم السمرقندي:59.
إسكندر(حاكم اليمن):71.
إياس باشا:80،102،107،124،154.
آفرسياب:80.
أحمد عزت عبد الكريم:85.
أرزقي شويتام:91.
إسماعيل سرهنك:95،121.
أويس باشا:95.
أحمد باشا(الخائن):97،114،160.
أحمد بن زنبل(الرمال):108.
أحمد فؤاد متولي:111.
إينال السيفي:111،112،113،114.
أحمد باشا(شاه) الوزير:114،115.
أحمد بن بقر:117.
أوزدمير باشا:119.
إسماعيل ياغي:141.
إليزابيت الأولى:145،155،156.
اسكندر:147.
أندريا جريتي بايل:148.
إيفان الثالث(الأمير):149،150.
أحمد الأول(السلطان):151.
(البابا) إينوسنت:151.
أنطونيو تكسيرا:154.
أنطوني جنكنسن:155،156.
أحمد صلاح هريدي:156.

ب -

بيوس الخامس(الضحاك):5،8،13.
بايزيد الثاني(السلطان):9،50،51،
54،73،149،150،156.
إبن بطوطة:10.
(أبو) بكر الصديق:16.
(الشيخ) بدر الدين:15.
بارتملي دياز(بحار):26.
(السلطان) بايزيد الثاني:40،134،139،144.
(الشريف) بركات:38،39.
البدليسي (شرف خان):58.
بارتولد:63.
بيتر جوشر:94.
بيري ريس:118،121.

برسباي:120.
بلال محمد باشا:124،154.
(الأمير) بايزيد بن سليمان المشرع:138.
برنار لويس:145.156.
باليوس:147.

ج –

إبن الجوزي:5.
جان بلاط:29،90.
إبن جبير:38.
جازاني بن محمدبن بركات:38.
جم (الأمير):50،54،
132،133،143،152،157.
جودت:53.
جان بردي الغزالي:58،97،98،
101،102،103،103،104،105،106،
107،108،110،127،157،161.
جانم السيفي:62،97،111،114.
جانم الحمزاوي:115.
جان زابولي (أمير):150.
جان ألبيرت(ملك):156
جيروم دى زار:151.
جوزيف ناسي:153.

د–

(إبن) درغل أمير التركمان:31.
ديفيد إيالون:31.
(إبن) الدييع:42،43.45.
(الأرشدوق) دودولف الثاني:151.
دومنيك لانزا :122.

ه –

هابيل:14.
(الشريف) هزار بن بركات:38.
هولت:53.
هامر:107.
هارون الرشيد :146.

و–

وديع أبو زيدون:7،136.
الوشلي:42.

ز–

زونجلي:14.
(الأمير) زين الدين:99.
زكريا محمد الأنصاري:105.
زيادة الله إبراهيم بن الأغلب:142.

ح –

الحسن الوازن:21.
(إبن) الحمصي:24،25،26،29،32،136.
حسن أوزون (الطويل):27.
الحسين (بن علي):40.
الحسن(بن علي):40.
حسين البهال:44.
(إبن) الحنش:57،97،98،99،101.
(إبن) حرفوش:57،100.
(إبن) حجر:62.
حسن عثمان :64،65.
حسين الكردي:120.
حسين بن الشيخ مرعي:110،111.

ط –

طارق بن زياد :142.

الطوسي(الملك):5.

إبن طولون:7،94،96،102.

طومان باي(الملك العادل):28،29،30،32،
60،61،68،108،109،110.

طهماسب (الصفوي):79،134،137،150.
47،77،

طراباي كاشف (الملك):
28،29،30،32،60،
61،68،108،109،110.

ي –

يعقوب بن الليث:5.

يوسف بن تغري بردي :23.

يوسف الصفوي:31.

يزيد بن معاوية:36.

يحي بن سبع:39.

يونس العادلي:59.

يحى الشيخ :123.

ك –

(إبن) كنان:30،34.

كارلو ألفونصو نالينو:65.

كوزلجة قاسم باشا:113،114.

كرويا:147.

كاندي دي رومندو: 154.

ل –

لويس السادس عشر:3،4.

لودوفيكو دي فارتيما:20،42،100.

لالا حسن:47.

م –

محمد عمر عبد العزيز:7.

محمد فريد بك(المحامي):7.

محمد سهيل طقوش:7.

محمد الثالث:10،13.

محمود كامل المحامي:7.

مراد الثالث:11.156.

محمد الفاتح(السلطان):
8،17،51،131،
132،133،139.

محمد(ص):
15،37،40،65،70،73،74،
75،139،141،143،147.

مارتن لوثر:14.

أبو المحاسن بن تغري بردي:21.

محمد بن ساعد(الأمير):25.

محمد كرد علي:27،94.

ملك الكرج:30.

الملك محمود:31.

ملك الفرنج الفرانسة:31.

معاوية بن أبي سفيان:36.

الشريف محمد شكري:37.

مصطفى حجازي:42.

محمد بن ناصر(الإمام):43.

المطهر بن محمد(الإمام):43.

محمد بن علي:43.

محمود الأنصاري:62.

محمد المتوكل:64،66،67.

محمود المقداد:65.

مراد الأول:68.
مراد الثاني:68.
مصطفي باشا النشار:72،113.
مصطفى بك بتقلو أوغلو:72.
(الشيخ) مقرن بن زامل الجبوري:83.
مصطفى بك(أمير طرابلس):99.
مصطفى بن قمر قاز:99.
مصطفى باشا (الوزير):114.
مصطفي الصفوي القلعاوي:116.
محمود باشا:116.
(اللإمام) مطهر الزيدي:119.
(السلطان) مراد بك:122،139،145.
ميرزا:138.
محمد حرب:138.
(الأمير) مراد:138.
مراد الثاني:68.
محمد الزيتواي:139.
محمد دراج:141.
مانغلي جيراي:149.
مانويل دي ليما:154.
معاوية(بن أبي سفيان):160.

ن –

نقولا تورك:2.
نوح عليه السلام:5.
(أبو) نمى:69،118.
ناصر الدين محمد(بن الحنش):99.
نيكولاي إيفا نوف:104.
نجم الدين السيوطي:139.

س –

سليم الأول:
8،9،10،13،
14،29،32،40،50،51،53،56،57،58،
59،60،61،64،65،6766،68،69،71،
76،77،84،87،88،95،98،99،100،
102،103،104،105،106،108،110،
112،114،122،128،129،133،135،
137،142،145،148،153،159،160.
سليم الثالث:10.
سجاح بنت الحارث:15.
(إبن) سعيد:57.
سلمان:68.
سليمان ريس:71.
سالم أحمد سالم:71،118.
سليمان باشا(الخادم):72،95،121.
سليمان المشرع:
8،9،
10،13،14،47،53،66،71،75،76،77،
78،79،80،83،84،88،89،95،96،98،
99،102،104،107،112،114،116،
118،121،122،123،124،125،127،
129،137،142،144،145،146،148،
150،151،152،154،156،159،160.
سليمان (الأمير):105،150.
(السلطان) سليمان:105،106،107.
سليم الثاني: 125.
سليمان الأول=سليمان العظيم:143.
ستيفان (أمير):156.
علي رضي الله عنه:4،15،40.
عثمان بكب بن أرطغرل:7.
عبهلة بن كعب.15.
عثمان بن عفان (ض):15.

(إبن) عثمان، السلطان سليم الأول:27،30،59،60.
(الشريف) عجلان:بنرميثة:38.
عامر بن طاهر:42.
عامر بن عبد الوهاب:43،44،120.
(السلطان) عامر:43.

ع-

علاء الدين:50.
العجمي الشنجي:59.
عدنان محمد سلمان:62.
عامر بن داود الطاهري:71،120،121.
عمر عبد العزيز عمر:76.
عبد الفتاح أبو علية:82،140.
إبن عليان:89.
علم الدين سليمان (الأمير):99.
علي بالي:107.
(الشيخ) عبد الدائم بن بقر:115.
(الشيخ) علي عمر:117.
علي بن عليان:125.
عودة محمد إبراهيم:135.
عبد الرحيم بن حادة:155.

ف –

فرانسوا الأول:8،66،144.146.
فليب بن شارلكان:8،13.
فاسكو دي غاما:25.
فرناند برودال:55،62.
فرهاد باشا:104،106،127.
فاضل بيات مهدي:122،123.
(أرشدوق) فرديناند (ملك):150.

ص -

صلاح الدين الأيوبي:15.
(أبو) الصلت الأندلسي:27.
صاحب تونس:31.
صالح كولن:147.
صالح أوزبران:154.
صالح كولن
صلاح الدين الأيوبي
الصوباشي

ق –

قابيل:14.
قانصوه البرج:22.
قانصوه الغوري:
23،29،32،38،56،57،
58،59،60،62،66،108،136.
فاروق سومر:67.
قمرقاز:99.
قراجا بن طراباي:99.

ر –

(إبن) رمضان أمير التركمان:30.
رزمك:62.
(الشيخ) راشد بن مغامس:79،124.
روبير مانتران:143.

ش –

شارل الخامس:8.
شاهسوار:27.
شمس الدين علي (العنسي):42،44.
شرف خان البدليسي:57.
شاروخ:63.
(الإمام) شرف الدين:121.

شارلكان:143،146.
شارلمان:146.

ت –

تيمور لنك:27،63.
توران شاه:27.
تاج الدين:42.
توماس أرنولد:65.
تيوفيل لافاليه:143،148.

ث –

ثريا فاروقي:37.

خ –

الخالدي محمد روحي بك:3.
خير الدين بربروس:14،146.
خير بك:59،60،97،104،
108،111،112،117.
خاين بك:60،108.
(إبن) خلدون:61.
خليل إنالجيك:65،67،152.
خرم باشا:102.

ذ –

ذو الفقار (الأمير):47،77.

فهرست الأماكن والبلدان

أ –

أوروبا :7،12،14،18،19،25،53،140،154.
الأناضول:
7،11،13،40،51،53،
55،87،65،107،111،117،123،133،158.
آسيا الصغرى:9،17،154.
إسلام بول:11.
آسيا الوسطى:13،143.
إستانبول:13،66،78،78،94،96،112.
أمريكا:14.
أسبانيا:14،21،50،141،145،،155.
الأندلس 14.
إفريقيا:17،27،63.
الأردن:20.
آسيا:25،52.
الأسكندرية:26،146،153.
أسوان:27.
الأحقاف:41.
إيران:47،52،138.
إيطاليا:49،64،141.
(إمارة) ألبستان:56.
أنطاكيا:59.
أنجلترا:64،143.
الأحساء:76،78،126.
الأستانة:95،127،146،155.
أزرينجان:135.
أماسيا:139.
ألمانيا:149.

ب –

باريس:3.
الباستيل:4.
بغداد:7،17،19،21،48،78،79،121،125.
بافيا:8.
البحر الأبيض المتوسط:
10،13،14،17،19،25،85،143،149.
البحر الأحمر (بحر القلزم):
10،14،19،36،53،54،68،70،85،154.
البحر الأسود:10،14،85.
بحر مرمرة:10.
البحرين:18،40،70.
البصرة:19،25،48،79،89،94،122،125.
بيروت:20،26،99.
البرتغال:21،141،155.
بزنطة:25.
البندقية:8،50،143،153،158.
البلقان:40،51،158.
بولندا:50.

البقاع:99.

بعلبك:100.

البهنسا:112.

البيرة115.

بولندا:158.

ج –

جبل الطور:35.

جُدة:39،40،68،120.

الجوف:44.

جالديران:51،119،137،138.

جزيرة إبن عمر:51.

جبل طوروس:52.

جبل نابلس:57،106.

جيزان:73.

جبل لبنان:75.

جنوب العراق:75.

جزائر الغرب:75،90.

جزيرة البحرين:83.

جزيرة رودس:104،153،158.

الجزائر:125،141،142.

د –

دمشق:7،17،19،21،102،107،115.

ديار بكر :51،99،125.

دار السلام (بغداد):79.

دمياط :153.

الدولة العثمانية:156،158،160.

ه –

هضبة الأناضول:7.

الهند:18،41،45،53،82.

هولندا:153.

و –

الوطن العربي:52،76،85.

ولاية الحبش:69.

ولاية دمشق:103.

ولاية شيروان:137.

ز –

زبيد 43، 45، 46.

زكية:123.

ح –

حلب:17،19،21،21،25،57،59،
81،88،105،110،125.

حضرموت:18،41.

الحجاز:27،36،37،41،51،63،67،117،132.

الحديدة:45.

حماة:57.

حمص :57،59،105.

حصن كيفا 51.

ط –

الطائف:36.

طرابلس:99 .

طرابزون:136،153.

ي –

ينبع:36.

اليونان : 52.

اليمن:36،42،45،51،63،71،75،95،118،126
.

ك –

كندة:41.
كوكبان:43.
الكوفة:77.
كربلاء77،
كردستان:99.
الكرك:100.
(إمارة):كليكيا /قليقيا:113،134.
كافا:150،153.

ل –

لبنان 20.

م –

المشرق العربي:
6،7،13،14،15،17،19،48،54،75،
81،87،90،98،128،143،147،154،161.
مصر:
7،17،27،35،40،45،
51،56،58،108،111،128،132،160،161.
مدينة السلام:11.
مملكة فرنسا:13،14،156،158.
المدينة :13،54،63،139.
مسقط:18.
مصر المماليك:18.
المحيط الهندي:19،73،75.
مرج دابق:29،54،57،66،108،110،131.
المجر:50،158.
ماردين:51.
الموصل:51،77،79،154.
المدن المقدسة:63،75.
(بلاد) المغرب:70.
مخا:73.
بلدان المغرب العربي:84.
ملاطية:88.
المشرق الإسلامي:100.
المعرة:103.
المقرانة:120.
موسكو:150،151.
المغرب:156.
ملدافيا:158.

ن –

بلاد النوبة:52.
نابلس:57،61،100،102.
النمسا:78،143،151،152.

س –

السودان:17.
سوريا:20.
سينا:35.
سبأ:41.
سنجار:51.
السند:53.
سواحل الكجرات:73.
السويس:75.

ع –

العالم:8،11،13.
العالم الإسلامي:13،30،53،63،64،85.
العالم الجديد:14،141.
العراق:17،18،19،45،46،78،79،97،128.
عدن:18،41،72،120،121.
عمان:18.
عجلون:61.
العالم العربي:85،156.

(البلاد) العربية:88.
عريش مصر:103.
عينتاب:115.

ف –

فرنسا:4،8،14،31،141،143،144.
بلاد فارس:6،17،21،52.
فلسطين:20،147.
فينا:53.
الفيوم:112.

ص –

الصين:25.
صعدة:43.
صنعاء:43،44.
صفد:61.
الصحراء:62.
صيدا:99.
(إمارة) الصعيد:117.

ق –

القاهرة :7،13،14،33،38،64،66،95،108.
القسطنطينية:8،9،11،14،55،61،132،142.
القفقاز(القوقاز):9.
قارة آسيا:9.
القدس:13،57.
القطيف:83،155.
القابون:107.
قبرص:107.

ر –

روما:8،13،153.
الروم إيلي:9،95.
رأس الرجاء الصالح (رأس العواصف):14،18،21،32.
(بلاد) الروم:6،21.
رابغ:36.
الرملة:57.
الريدانية:61،110.
روسيا:150.

ش –

شبه الجزيرة العربية:6،36،80،82،84،134.
الشام :7،15،17،19،21،40،45،51،56،
94،108،128،160،161،162.
شبه جزيرة الأناضول:9.
شمال إفريقيا :9،17،142.
الشرق الأدنى:11،17.
شرق إفريقيا:14.
الشرق:17،52،53.
شرق أدنى:17،52.
شرق أقصى:17،154.
شبه جزيرة الألدلس:17.
شرق أوربا:18،143.
شط العرب:46.
الشرق الأوسط:52.
شهر زور:122،125.
الشوف:127.
شبه جزيرة المورة:155.

ت –

تركيا:21.
تعز:43.
تبريز:78،79،138.
تونس:133.

خ –

الخليج العربي/الفارسي:
47،53،76،77،77،77،81،126،154،155.

ذ -

(إمارة) ذو القادر:133.

ض-

الضحى: 45.

غ -

الغرب الأناضولي:9.
الغرب 17، 53.
غزة :57،59،61،100،110.

فهرست القبائل والعشائر والأمم

أ –

الأمراء:2،36،91.
الأتراك:3،13،38،67،142،145.
الأسبان:154،177.
الأنجليز:17.
الأوربيون:17،19،20،52،143،147.
الأئمة:34.
(بنو) أبي نمى:38.
الأشراف:39،40،58،69.
الأكراد:45،142.
(بنو) إبراهيم:57.
آق قوينلو:63.
آل عثمان:67،161.
الأنكشاريون:98،111،115.
الأناضوليون:135.
الأفلاق:151.
أردل:151.
الأعراب:161.
آل طاهر:161.

ب –

البرتغاليون:
7،17،45،47،53،54،62،68،
75،79،82،84،121،132،135،154.
البدو:45،103،106،161.

ج –

الجراكسة/الشراكسة:28،105،111.
الجواري:35.
البغدان:151.

د –

الدروز :57،60،103،106،128،142.

ه –

الهولنديون :17،153.

و –

الولاة:91،96.

ز –

الزعليون:43.
الزيديون:44.
الزعماء المحليون:108.

ح –

الحسينيون :37،40.
الحسنيون: 40.

ط –

ي –

اليهود :14،32،142.
اليونانيون:17.
اليمنيون:121.
اليزيديون:142.

ك –

(بنو) كلب:35.
الكزل باش 57، 61، 70، 139، 142.
كريم:151.

م –

المسلمون:
1،14،18،20،21،32،36،62،142،154.
المهمشون:15.
المماليك:18،23،24،25،25،27،

30،32،34،41،55،56،58،62،66،67،74،
103،110،117،131،133،135،136،160.
المشارقة:22.
المغاربة:22.
المدرسون:34.
المغول:36.
(بنو) محمد بن بركات:38.
المستشرقون:41.
الملالي:50.
الموارنة:60.
المقرانيون
الميادنة:105.
الملاحدة:139.

س-

السلاطين:32،36،39،42،43،140.
(بنو) سعيد بن زيد:38.
(بنو) سوالم:57.
السنة:137.

ع –

العثمانيون:3،7،38،42،51،54،55،
56،61،64،65،68،71،92،97،111،118،
125،127،133،135،136،142،148،154.
العرب:7،27،45،60،77،101،134،142.
عرب هوارة:10،117.
العوام:15،34،40.
العربان:
25،28،35،35،37،97،100،102،103،127.
(بنو) عدي:35.
العبيد:35.
(بنو) عجلان:38.
عشيرة كلهور:48.
(بنو) عطا:57.
(بنو) عثمان:60.

ف-

الفرنسيون:17.
(بنو) فليتة:38.
الفرس:52.

ص-

الصعاليك:15.
الصينيون:17.
الصليبيون:27.

الصفويين:47،48،54،55،
56،77،78،80،82،122،123،131،135.
الصوالحة:105.

ق-

(بنو) قتادة:38.
قبائل حرفوش.59.
قارا قوينلو:63.

ر–

الروم: 21.

ش –

الشواغر:105.
الشيعة:137.

ت –

التركمان :31،142.

خ –

الخوارج: 1.
الخلفاء:37.

غ-

الغربيون:100.

فهرست المواضيع:

شكر وعرفان.....
شكر خاص .....
إهداء.....
المختصرات .....
مُقدِّمة: ..... أ
الفصل التمهيدي : .....
أوّلا: مفاهيم بعض المصطلحات. 01
ثانيّا: بين مصطلحات الفتح،والاحتلال،والتّواجد.....06
ثالثا: كلمة مختصرة عن الدولة العثمانية.....08
رابعا: موقع الدولة العثمانية ومساحتها: 09
خامسا: مُميّزات وخصائص الدّولة العثمانيّة. 11
سادسا: بعض مميّزات القرن (16)م.....13
سابعا: لمحة عن الحركات المناوئة خلال العصر الإسلامي. 15
الفصل الأول: الواقع العام في بلاد المشرق العربي قبيل التّواجد العثماني.....16
تمهيد:.....18
المبحث الأول: أوضاع بلاد الشام ومصر......
21
أولاً:بالشام 21
1- وصف الشام:.....21
2- الواقع الاجتماعي:.....22
3- الواقع السياسي
والأمني:.....23
4- الواقع الاقتصادي:.....27
ثانيا:بمصر.....29
1- موقع مصر
وأوضاعها.....29

2- الواقع السياسي:.....32
3- الواقع الاقتصادي:.....33
4- الواقع الاجتماعي:.....34
5- الواقع الأمني.....36
المبحث الثاني: واقع الحجاز والشام:..... 38
أولاً بالحجاز:.....38
موقع الحجاز ومكانته لدى المسلمين.....38
الواقع السياسي.....38
الواقع الأمني:.....40
الواقع الاقتصاديّ.....42
الواقع الاجتماعي.....42
ثانياً: باليمن.....43
1- موقع اليمن وأهميته.....43
2- الواقع السياسي.....45
3- الواقع الاقتصادي.....47
المبحث الثالث: واقع العراق..... 49
1- موقع العراق وأهميته.....49
2- الواقع الأمني.....49
3- الواقع السياسي.....50
الفصل الثاني: التواجد العثماني بالمشرق العربي.....52
تمهيد.....53
المبحث الأول: المشرق العربي وأسباب التواجد العثماني.....54
1- المشرق العربي جغرافيا.....55
2- المشرق العربي اصطلاحا:.....55
3- أسباب ودوافع التواجد العثماني بالمشرق العربي عموما.....56
المبحث الثاني التواجد العثماني بالشام ومصر.....57
أولاً: التواجد العثماني بالشام وأسبابه.....57
ثانياً:التواجد العثماني بمصر.....63

أهمية التواجد العثماني بالشام ومصر.....65
نتائج التواجد العثماني بمصر والشام.....66
التواجد العثماني بمصر وانتقال الخلافة.....66
انتقال الخلافة.....70
المبحث الثالث: التواجد العثماني بالحجاز واليمن..... 72
أولاً: بالحجاز..... 72

تعيين شريف مكة وصلاحياته.....74
ثانياً: التواجد العثماني باليمن.....75
1- موقع اليمن وأهميته.....75
2- التواجد العثماني باليمن.....75
3- أسباب وعوامل التواجد العثماني باليمن.....77
4- نتائج التواجد العثماني باليمن.....79
سياسة السلطة العثمانية بالمشرق العربي.....80
المبحث الرابع: التواجد العثماني بالعراق والخليج(الأحساء).....81
أولاً : بالعراق.....81

1- موقع العراق وأهميته.....81

2- التواجد العثماني بالعراق.....82

3- الترتيبات التي سبقت دخول العثمانيين.....82

4- التواجد العثماني الفعلي بالعراق.....83

5- أسباب التواجد العثماني بالعراق(ببغداد والبصرة).....85

ثانياً: بالخليج (الأحساء).....86

1- أهمية منطقة الخليج.....87

2- التواجد العثماني بالأحساء.....88

3- نتائج التواجد العثماني بالخليج.....89

4- نتائج التواجد العثماني بالمشرق العربي.....90

الفصل الثالث: الحركات المناوئة للسلطة العثمانية.....91

تمهيد.....92

أولاً:أساليب السلطة العثمانية إزاء الحركات المناوئة.....92

ثانيا: نتائج وآثار الحركات المناوئة.....97

السياسة العثمانية ونتائجها.....97

المبحث الأول: الحركات المناوئة بالشام ومصر وأسبابهما.....99

أولاً: بالشام.....99

أسباب الحركات المناوئة.....99

أنواع الحركات المناوئة.....102

ثانياً: بمصر..... 115

أسباب الحركات المناوئة بالشام ومصر..... 124

المبحث الثاني: الحركات المناوئة بالحجاز واليمن..... 125

أولا: بالحجاز..... 125

ثانياً: باليمن..... 126

المبحث الثالث: الحركات المناوئة بالعراق والخليج.....130

أولاً: بالعراق.....130

ثانياً: بالخليج)الأحساء) 134

خلاصة الفصل الثالث.....135

الفصل الرابع: العلاقات العثمانية الخارجية والحركات المناوئة الداخلية.....137

تمهيد.....139

المبحث الأول:العلاقات العثمانية المملوكية..... 139

المبحث الثاني: العلاقات العثمانية الصفوية.....143

المبحث الثالث: العلاقات العثمانية الحجازية.....147

المبحث الرابع: العلاقات العثمانية الأوربية.....148

خلاصة الفصل الرابع.....167

خاتمة واستنتاج.....171

الملاحق.....173

قائمة البيبليوغرافية.....189

الفهارس.....202/201

فهرس المواضيع: 204